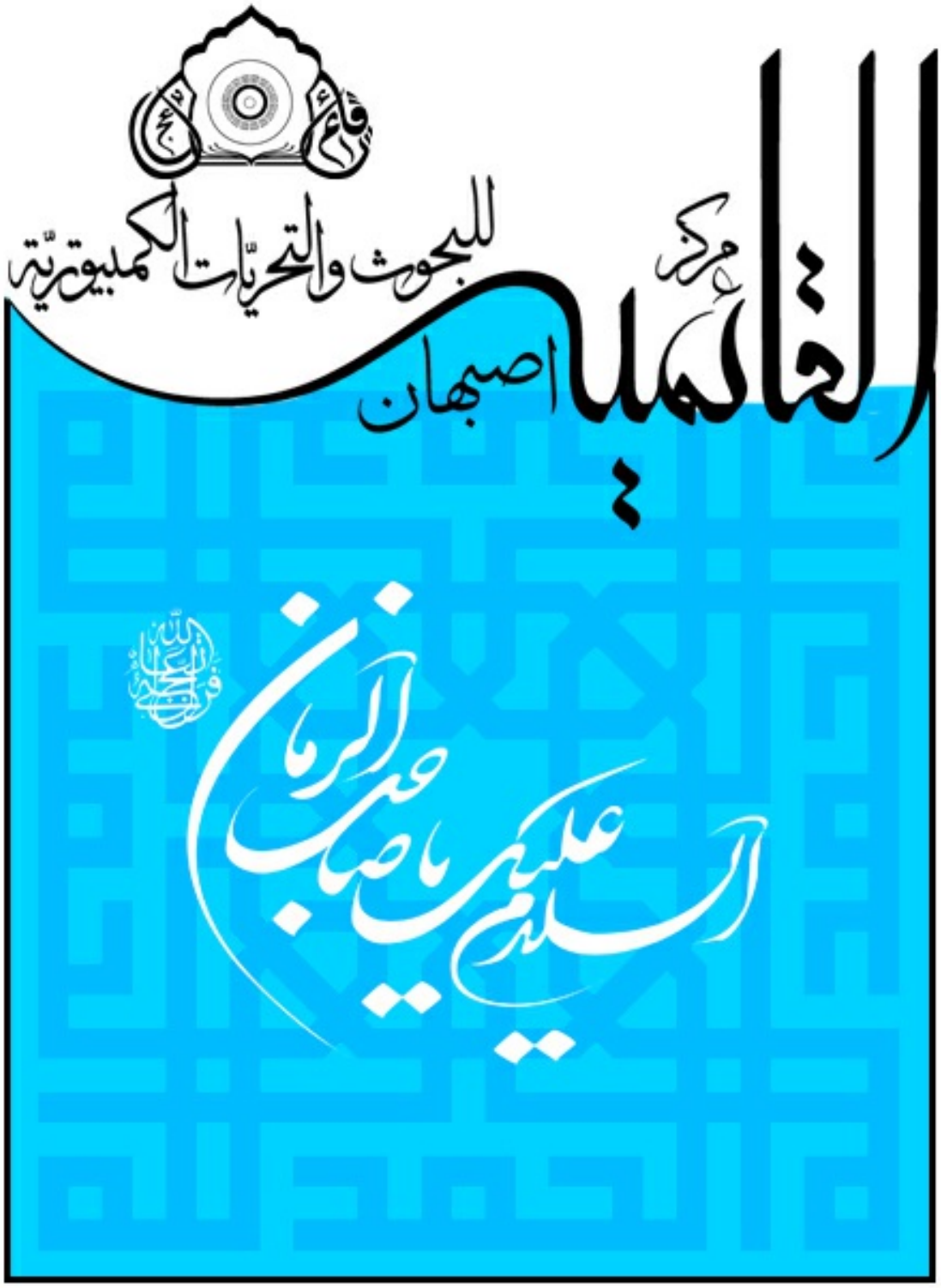

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

سلسلة

قضايا إعمارية في القرآن والسنة النبوية

14

الكتاب الرابع عشر

الاقتصاد والاجتماع

د. عبد الرزاق النبهان

دار الكتب العلمية

بسم الله الرحمن الرحیم

الاقتصاد و الاجتماع

كاتب:

خالد فائق عبيدى

نشرت فى الطباعة:

دار الكتب العلمية

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵

الإقتصاد و الإجتماع ----- ۱۲

اشاره ----- ۱۲

اشاره ----- ۱۲

مقدمه ----- ۱۴

الفصل الأول: نظره عامه ----- ۲۰

مقاصد الشريعه: ----- ۲۰

اشاره ----- ۲۰

۱. الضروريات: ----- ۲۱

۲. الحاجيات: ----- ۲۱

۳. التحسينيات: ----- ۲۱

الفصل الثانی: الاقتصاد فی الإسلام ----- ۲۷

الفصل الثالث: النظام الاجتماعی الإسلامی ----- ۳۶

اشاره ----- ۳۶

۱. حرمه الدم و حفظ حق الحياه: ----- ۳۶

۲. حرمه العرض فصان للفرد حق الكرامه: ----- ۳۶

۳. حرمه المال و حق التملک: ----- ۳۷

۴. حرمه البيوت و حق الاستقلال الشخصی: ----- ۳۷

۵. حريه الرأی و الفكر و الاعتقاد و التعبير: ----- ۳۷

۶. حق المعارضه و النصيحه: ----- ۳۷

۷. حق القضاء و القصاص العدل: ----- ۳۷

۸. حق التعلم حتی وقت الحرب: ----- ۳۸

۹. حق العمل(۱): ----- ۳۸

۱۰. حق التجمع لعمل الخير و نبذ التجمع للشر: ----- ۴۰

۱۱. ثبت حقوق الزواج و المرأه و الميراث و نظام الأسره: ۴۱
منزله المرأه و الأسره فی الإسلام: ۴۳
معنی القوامه فی الإسلام: ۵۲
الحقائق العلميه بنفی المساواه المطلقه: ۵۷
منزله الوالدين فی الإسلام: ۷۴
الفصل الرابع: بعض دلائل الرقی فی السلوک الاجتماعی فی الإسلام ۷۶
الملحق تاريخ التشريع الإسلامی ۹۴
اشاره ۹۴
التشريع الإسلامی: ۹۶
أدوار تاريخ التشريع الإسلامی ۹۶
مصادر التشريع الإسلامی: ۹۷
اشاره ۹۷
۱. القرآن الكريم: ۹۷
۲. السنّه النبويه: ۹۷
۳. الإجماع: ۹۷
۴. القياس: ۹۸
ضروره التزام الفقه الإسلامی، و التمسک بأحكامه: ۹۹
اشاره ۹۹
۱ - الدور الأول: التشريع فی حياه رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلّم الكتاب و السنه: ۱۰۰
اشاره ۱۰۰
۱ - القرآن الكريم: ۱۰۰
أ - تعريفه: ۱۰۰
ب - الفرق بينه و بين الحديث النبوی و الحديث القدسی: ۱۰۱
ج - نزول القرآن الكريم : ۱۰۳
اشاره ۱۰۳
الحكمه من نزوله منجّما: ۱۰۴

د - نزول القرآن علی سبعه أحرف: ----- ۱۰۵
اشاره ----- ۱۰۵
حکمه نزول القرآن علی سبعه أحرف: ----- ۱۰۹
ه - جمع القرآن و ترتیبه: ----- ۱۱۰
اشاره ----- ۱۱۰
۱ - جمع القرآن بمعنی حفظه علی عهد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: ----- ۱۱۰
۲ - ترتیب الآیات و السور: ----- ۱۱۱
۲ - تاریخ الحدیث النبوی: ----- ۱۱۱
کتابه الحدیث فی عهد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: ----- ۱۱۱
۲ - الدور الثانی: التشریع فی عصر کبار الصحابه ----- ۱۱۳
الکتاب و السنه فی الدور الثانی: ----- ۱۱۳
اشاره ----- ۱۱۳
أ - القرآن الکریم فی عهد أبی بکر رضی اللّه عنه ----- ۱۱۳
ب - جمع القرآن فی عهد عثمان بن عفان رضی اللّه عنه ----- ۱۱۵
اشاره ----- ۱۱۵
رسم القرآن: ----- ۱۱۷
تحسین الرسم العثمانی: ----- ۱۱۸
ضوابط القراءه الصحیحه: ----- ۱۱۹
عنایه العلماء بالمکی و المدنی: ----- ۱۱۹
الفرق بین المکی و المدنی: ----- ۱۱۹
أهمیه معرفه المکی و المدنی: ----- ۱۱۹
۱ - الاستعانه بها فی تفسیر القرآن: ----- ۱۱۹
۲ - معرفه الناسخ و المنسوخ من الآیات: ----- ۱۲۱
الحدیث فی عهد الصحابه رضی اللّه عنهم: ----- ۱۲۱
اشاره ----- ۱۲۱
عوامل حفظ الصحابه للحدیث: ----- ۱۲۱

قوانین الروایه فی عهد الصحابه: ----- ۱۲۳
فقه الصحابه: ----- ۱۲۵
۳ - الدور الثالث: التشریع فی عهد صغار الصحابه و التابعین ----- ۱۳۶
اشاره ----- ۱۳۶
ممیزات و خصائص هذا الدور: ----- ۱۳۶
نبذه عامه بمصطلح الحدیث: ----- ۱۳۸
اشاره ----- ۱۳۸
تعریف الحدیث: ----- ۱۳۹
أهم مراتب الحدیث من حیث القوه و الضعف: ----- ۱۴۰
علم الجرح و التعدیل: ----- ۱۴۱
أهم کتب الروایه فی القرنین الثانی و الثالث هجری: ----- ۱۴۲
۱ - موطأ مالک: ----- ۱۴۲
۲ - مسند الإمام أحمد: ----- ۱۴۲
۳ - صحیح البخاری: ----- ۱۴۲
۴ - صحیح مسلم: ----- ۱۴۳
۵ - سنن أبی داود: ----- ۱۴۴
۶ - جامع الترمذی: ----- ۱۴۴
۷ - سنن النّسائی: ----- ۱۴۴
۸ - سنن ابن ماجه: ----- ۱۴۴
۴ - الدور الرابع من تاریخ التشریع الإسلامی: عصر الأئمه ----- ۱۴۶
اشاره ----- ۱۴۶
أولا: ترجمه الإمام الأکبر أبی حنیفه النعمان رضی اللّه تعالی عنه و أرضاه: ----- ۱۴۶
بشاره النبی صلّی اللّه علیه و سلّم به: ----- ۱۴۶
حرصه علی الکسب الحلال: ----- ۱۴۶
حرصه علی مظهره: ----- ۱۴۸
طلبه للعلم: ----- ۱۴۸

ولعه بالفقه الفرضی: ---- ۱۴۹
فتنته مع أبی هبیره: ---- ۱۴۹
منهج أبی حنیفه العلمی: ---- ۱۵۰
تأدیبه لتلمیذه أبی یوسف: ---- ۱۵۲
موقفه من آل بیت النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: ---- ۱۵۲
أهم مؤلفاته: ---- ۱۵۴
أقوال معاصریه فیه: ---- ۱۵۵
ورعه و تقواه و عبادته للّه تعالی: ---- ۱۵۸
عرض القضاء علیه و وفاته: ---- ۱۵۹
۲ - ترجمه الإمام مالک بن أنس رضی اللّه عنه: ---- ۱۵۹
بشاره النبی صلّی اللّه علیه و سلّم به: ---- ۱۵۹
میلاده و نسبه و نشأته و طلبه للعلم: ---- ۱۵۹
تفوقه العلمی و جلوسه للفتیا: ---- ۱۶۱
ورعه و تخوّفه من الفتوی: ---- ۱۶۲
الأجواء التی کانت سائده فی عصره و علاقته بالخلفاء: ---- ۱۶۳
علم الإمام مالک و أقوال بعض العلماء فیه: ---- ۱۶۵
أهم مؤلفاته: الموطأ: ---- ۱۶۶
منهجه العلمی: ---- ۱۶۶
أصوله الاجتهادیه: ---- ۱۶۶
قاعده: المعروف عرفا کالمشروط شرطا ---- ۱۷۱
قاعده: إن النص یهیمن علی العرف و لا یهیمن العرف علی النص. ---- ۱۷۲
أسباب انتشار مذهب الإمام مالک: ---- ۱۷۲
من أقواله: ---- ۱۷۴
۳ - ترجمه الإمام الشافعی رضی اللّه عنه: ---- ۱۷۵
بشاره النبی صلّی اللّه علیه و سلّم به: ---- ۱۷۵
اسمه و نسبه و تاریخ میلاده: ---- ۱۷۵

تحصیله و طلبه للعلم: ----- ۱۷۶
اتهامه بخیانه الخلافه العباسیه: ----- ۱۷۹
موقف الشافعی من الإمامه و الخلافه: ----- ۱۸۱
إقامته فی العراق: ----- ۱۸۳
تألیفه لکتابه "الرساله" و أهمیته: ----- ۱۸۴
عوده الشافعی إلی العراق: ----- ۱۸۶
أسفاره و زیارته مصر: ----- ۱۸۸
لقاؤه السیده نفیسه و أخذه عنها العلم: ----- ۱۸۸
تدریسه و تألیفه لکتابه" الأم ": ----- ۱۸۹
أدب الشافعی مع مخالفی مذهبه و عدم تعصبه: ----- ۱۸۹
علم أصول الفقه و تعریفه: ----- ۱۹۰
منهج الشافعی العلمی: ----- ۱۹۲
من عباداته و نوافله: ----- ۱۹۴
مرضه و وفاته: ----- ۱۹۴
من وصایاه و أقواله: ----- ۱۹۴
۴ - ترجمه الإمام أحمد بن حنبل رضی اللّه عنه ----- ۱۹۶
اشاره ----- ۱۹۶
مولده و نسبه: ----- ۱۹۶
طلبه للعلم: ----- ۱۹۶
حجه بیت اللّه الحرام: ----- ۱۹۹
ورعه و تقواه و تعففه: ----- ۱۹۹
منهجه العلمی و ممیزات فقهه: ----- ۱۹۹
رفضه للفتوی فی أول حیاته: ----- ۲۰۰
شده حرصه و أسلوبه فی التدریس: ----- ۲۰۰
محنته العظیمه: ----- ۲۰۱
موقفه من الحکم و الدوله: ----- ۲۰۳

مسند الإمام أحمد: ---------- ٢٠٣
أعمال للمؤلف ---------- ٢٠٧
مشاريع كتب للمؤلف ---------- ٢٠٨
فهرس المحتويات ---------- ٢٠٩
تعريف مركز ---------- ٢١٠

الإقتصاد و الإجتماع

اشاره

نام کتاب: الإقتصاد و الإجتماع

نویسنده: خالد فائق العبیدی

موضوع: اعجاز علمی

تاریخ وفات مؤلف: معاصر

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: دارالکتب العلمیه

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۲۶ / ۲۰۰۵

نوبت چاپ: اوّل

ص: ۱

اشاره

الکتاب الرابع عشر: الاقتصاد و الاجتماع

مقدمه

بسم اللّه الرّحمن الرّحیم

الحمد للّه رب العالمین و الصلاه و السلام علی أفضل و أشرف رسله و أنبیائه سیدنا محمد صلّی اللّه علیه و سلّم، و علی آله و صحبه أجمعین، و من تبعهم بإحسان إلی یوم الدین، و بعد.

لقاؤنا یتجدد معکم للمره الثانیه عشره فی سلسلتنا (ومضات إعجازیه)، و سنتعرض فی هذا الکتاب إلی روعه و سبق القرآن الکریم فی مجال غایه فی الأهمیه، و هو علوم بناء الأفراد و الأسر و المجتمعات بناء هادفا متأنیا مازجا بین الروح و الماده.

لم یعرف العالم نظاما اقتصادیا و اجتماعیا عادلا یضمن للجمیع حقوقهم دون غصبٍ أو تمییز بین عرق أو دین أو انتساب مثل النظام الاقتصادی و الاجتماعی الإسلامی، هذا النظام العظیم الذی وصل حدا یضرب به المثل فی التأریخ البشری فی العداله و المثالیه، کما هو الحال فی عهد سیدنا عمر بن عبد العزیز رضی اللّه عنه الذی لم یبق فردا واحدا من أفراد الأمه الإسلامیه المترامیه الأطراف یدخل ضمن إطار الفقراء، فالکل دون استثناء مکتف و مرتاح، هذا فی الصدر الأول من عصر الرساله الإسلامیه، و هذا ما یؤکد عظمه التشریع الإسلامی للاقتصاد و أحوال المال من الزکاه و الصدقات و التدابیر الاقتصادیه الإسلامیه العظیمه الأخری التی تحتاج إلی مجلدات کثیره و هذا یترک لأهل الاختصاص... أما فی عصرنا هذا فإن النظام الاقتصادی و الاجتماعی الإسلامی الذی طبق فی السوید باقتراح من أولف بالمه نهایه العقد الثمانینی و بدایه العقد التسعینی من القرن العشرین قد أنقذها من هاویه اقتصادیه و اجتماعیه مرعبه.

لقد سبق التشریع الإسلامی کل الشعارات و الثورات و المؤسسات الداعیه لذلک کالثوره الفرنسیه و منظمه الأمم المتحده و منظمه حقوق الإنسان و الدعوات المتعلقه بمحاربه التمییز العنصری بدءا من حقوق الإنسان، و عداله توزیع الثروات، و حریه العقیده و الفکر السامی غیر المبتذل، و تطبیق مبدأ القانون فوق السلطه، و احترام العهود و المواثیق مع الصدیق و العدو، و سماع و احترام الرأی الآخر.. لکن الفرق الرئیس بینهما رغم تقدم الأول أی الإسلام علی الثانی أی الدعوات الحدیثه هو أن الأول دعی و طبق فملأ الدنیا عدلا

و رحمه لأن الإسلام جاء لتحقيق هذا الغرض، أما الثانى فدخلت فيه المصالح الضيقه للنفس البشريه و مطامعها فلم يطبق و لم يعدل و إنما كانت شعارات فقط أو تطبيق رمزى بأحسن الأحوال.

و القصص فى عدل الإسلام الذى لم يشهد تاريخ البشريه مثله أكثر من أن تذكر، فهذا سيدنا الصديق رضى اللّه عنه، الرجل عند المواقف، الذى يهابه الجبال من الرجال، و أى رجال، إنهم الصحابه رضوان اللّه تعالى عنهم، يذهب يوميا، فيما يروى سيدنا عمر رضى اللّه عنه، بعد صلاه الفجر و إكمال الورد بالذكر حتى طلوع الفجر إلى مكان جعل الصحابه يسألون عنه، حتى يقول سيدنا عمر: هممت يوما أن أتبعه بعد شروق الشمس و خروجه من المسجد لأعرف الخبر و أستقصى الأمر، فاتبعته و وجدته دخل بيتا فى طرف المدينه، فإذا هو بيت امرأه عجوز لا عائل لها، فدخلت عليها و سألتها عن أحوالها فقالت: لو لا هذا الشيخ الذى يأتينا يوميا لإنجاز عمل البيت من إعداد الطعام و التنظيف لكان حالنا بأتعس حال، فقال لها الفاروق أ تعرفين من هو قالت لا. و كان سيدنا عمر رضى اللّه عنه كلما يذكر القصه بعد توليه أمر المسلمين يجلس و يضع يده على وجهه قائلا: أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر..

و ها هو الفاروق عمر رضى اللّه عنه فى تطبيق العداله و الاقتصاص من الظالم و إن كان مسئولا مع القبطى الذى ظلمه ابن عمرو بن العاص - ابن الأكرمين - بضربه بالسوط على رأسه عقب سباق بينهما، و قوله المأثور و المشهور لأبيه عمرو بن العاص والى مصر (متى استعبدتم الناس و قد خلقتهم أمهاتهم أحرارا) إلا دليلا بسيطا عن العدل الذى ساد الأرض و أممها إبان الحكم الإسلامى بعد الجور و الظلم الذى عانته من قبل الحكم الفارسى و الرومانى و الحبشى قبل ذلك.

و عدل سيدنا عثمان رضى اللّه عنه مع رعيته و قبوله للنقد خلال الفتنه يسجل بأحرف من نور... و من بعده سيدنا على عليه الرضوان و السلام مع اليهودى فى قصه الدرع، و مع غيره من الرعيه تبين عظمه هذه الأمه.

و ما كل ذلك إلا إخراج للناس من الظلم الذى وقع بهم جراء تسلط الأشراف و الرؤساء و الأكابر عليهم و عدم الاقتصاص منهم إذا أخطئوا، و هو ما شخّصه الرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و سلّم بقوله فى الحديث الذى أخرجه الإمام مسلم (الحدود ٣١٩٦) عن عروه عن

عـائشه أنّ قريشـا أهمّهم شـأن المرأه المخزوميّه الّتى سـرقت فقـالوا من يكلّم فيهـا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فقـالوا و من يجترئ عليه إلّا أسامه حبّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فكلّمه أسامه فقال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم: (أتشفع فى حدّ من حدود اللّه)، ثمّ قام فاختطب فقال: (أيّها النّاس إنّما أهلك الّذين قبلكم أنّهم كانوا إذا سـرق فيهم الشّريف تركوه و إذا سرق فيهم الضّعيف أقاموا عليه الحدّ و ايم اللّه لو أنّ فاطمه بنت محمّد سرقت لقطعت يدها). و ما ذلك إلا تحقيق لأوامر اللّه و رسوله فى القضاء و العدل الاجتماعى و الاقتصادى الذى سنحاول جاهدين فى هذا الكتاب من سلسلتنا أن نطرق بعض أبوابه الواسعه.

تكثر هـذه الأيـام عقـد النـدوات و المؤتمرات فى كل دول العالم لأجل نيل المرأه كافه حقوقها و تمام اسـتقلالها من نير احتلال الرجل تاره، و لأجل تشـريع زواج الجنس الواحد تاره أخرى، و لأجل إعطاء أهل البغاء حقوقهم الكامله و تشريع مهنتهم الساميه تـاره ثـالثه، و هلم جرّى.. و عجبـا و حسـره على العبـاد، فلاـ يتركون حـاله تشـيع معهـا الفوضـى الفكريه و التخبـط الاجتماعى و الانحطاط الخلقى إلا و طرقوها بـدعوى الحريه و المساواه و الـديمقراطيه، بينما يذبح البشـر جوعا و قتلا و حصارا فترمل النساء و يسـبى أو ييتّم الأطفـال تحت شـعارات شتى، و ترمى آلاـف الأطنـان من القمـح و الزبـد و اللحم فى البحر لئلاـ يؤثر ذلـك على اقتصـاد الأغنيـاء بينمـا يتضور الفقراء جوعا، و لا من مجيب أو سامع أنّات الملايين من البشـر... و بأحسن الأحوال تجتمع الوفود، فى فنادق السـعود، لتنفق النقود، و تكتب العهود، و يبقى الحال على ما هو عليه.. أيه عـداله لنظام عالمى جديـد أعمى تلك التى يعدنا بها من يسمون أنفسهم أهل التحضر و العداله و الديمقراطيه؟!.

الحق أيهـا الأخوه أن الـذى يريـد أن يصـلح و يصـدق النيه فى ذلك من الساسه و الحكام يسـتطيع الإصـلاح، لأن توافر النوايا و الإمكانـات و التعاضـد بين أمم البشـر موجود، لكن المشـكله أنه حتى الـذين يريـدون الإصـلاح تـاهوا فى زحمه أهـل المصالح الضـيقه و النوايـا الخبيثه الـذين يخلطون الخبيث بـالطيب، فيتكلمون بكلمه الحق و يريـدون بها الباطل.. و الحق أن البشـر يجرب ليفشل فيكرر التجربه بعناد أشد و كبر أعلى نحو أوامر خالقه، الذى يعلم خيره فيأمره باتباعه و يعلم شره فيجنبه الخوض فيه.

و ما يحصل اليوم من تخبط للبشريه و انتشار الفقر و الأمراض التى لم يعهدها بنو

البشر من قبل كالأيدز و السارس و جنون البقر و أنفلونزا الطيور، و كذلك التلوث البيئى و فتحه الأوزون و ظاهره الاحتباس الحرارى و ما تبعها من زياده حراره الأرض، و تدمير الكوكب بتغيير مستمر فى بنيته البيئيه بحجه التطور و الحاجه للتصنيع، و انتشار الفوضى العارمه جراء العولمه فى كل العالم، و كثره القتل بالحروب الفتاكه و الحصارات المهلكه، و انتشار الكوارث الطبيعيه جراء كل ذلك من زلازل و براكين و فيضانات و تصحر و جفاف و حرائق و أعاصير و خسف الأرض و غير ذلك، إلا صور بسيطه لنتائج التدخل العشوائى و غير المنتظم للبشر و تلاعبهم بمصيرهم ليقودوه إلى هاويه سحيقه من حيث لا يشعرون، و ما خفى كان أعظم!.

أما الإسلام الذى تنبأ بحصول كل هذه الفوضى فى العالم فى آخر الزمان(۱) فإنه جاد فى إحلال الخير لكل البشريه، فلا يبحث عن تجربه و خطأ، إنما هو إرشاد الخالق لخير المخلوق، فأعطى الإسلام لكل ذى حق حقه، و حرّم الظلم بكل أنواعه و على كل المخلوقات حتى الحيوان و الجماد.. و ها هو العلم يثبت يوميا صحه و دقه الأوامر الإسلاميه فى التشريعات سواء أ كانت للأحوال الشخصيه، أو للجنح و الجرائم، أو للعلاقات الخاصه و العامه بين الكتل البشريه من الأسره إلى الجيره إلى المحله فالمدينه فالدوله، و انتهاء بعلاقات الأمم ببعضها سلما و حربا.

و لكن البشر رغم كل الأدله يعاندون و يكابرون لا لشىء إلا لأنهم إذا ما أقروا بأحقيه التشريع الإسلامى فإن بضاعتهم ستبور، و تفسد دعاواهم الباطله و تخسر تجارتهم الفكريه العقيمه، فتكون الضربه القاضيه لأتباع إبليس من الإنس و الجن، و هذا بالطبع لن يتحقق لأن للجنه أهلها و للنار أهلها، و ستستمر المعركه بين جند اللّه و جند إبليس حتى يقضى اللّه أمرا كان مفعولا مصداقا لقوله تعالى:

وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَهٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَهَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظّالِمِينَ (۱۴۵)، (البقره: ۱۴۵)... وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ.

۱- راجع حديث (خمس بخمس) فى كتاب الطب (الكتاب التاسع من هذه السلسله)، و كذلك الأحاديث فى الكتاب القادم من هذه السلسله عن مواصفات ما سيحصل فى آخر الزمان.

وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَهُ الْمُفْسِدِينَ (۱۴)، (النمل: ۱۴).. أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّهٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (۷۰) وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (۷۱)، (المؤمنون).

المشكله أن الأهواء و الشهوات بكافه أشكالها هى التى تحكم البشر و لو أنهم قدروا اللّه حق قدره و عرفهم مع من يتعاملون، لما تجرّأ أحد على الاعتراض على أوامر اللّه و تشريعاته، و لكن اللّه تعالى رءوف بالناس على ظلمهم رغم كونه سبحانه غنى عنهم و هم من يحتاج إليه فى كل الأحوال:

وَ اللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً (۲۷)، (النساء: ۲۷).. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظّالِمِينَ (۵۰)، (القصص: ۵۰).. أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللّهُ عَلى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَهً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّهِ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۲۳)، (الجاثيه: ۲۳).

على أن التشريع الحنيف أعطى فسحا عظيمه فى جنباته لاستيعاب المتغيرات التى تطرأ على المجتمع، لكن الأصل هو الحفاظ على إنسانيه البشر و كرامتهم و حريه أفكارهم و حرمه دماءهم و أعراضهم و أموالهم، فلا تجاره بجمال المرأه و جسدها، و لا أموال تزاد بربا يسحق الأغلبيه المحرومه، و لا اعتداء على أهل ذمه أو عقيده مخالفه، و لا قبول بأى جنس عمل يحول البشر الذين خلق الكون من أجلهم إلى مجرد آلات تستغل لرفع نفر قليل و سحق أمم بأكملها.

هذا الكتاب يبين لكل من يريد أن يستبين أن أى تشريع جاء به الإسلام كان لسبب مصلحى فى الصحه و الاقتصاد و الاجتماع، و لكل البشر دون استثناء و دون تمايز بين الرجل و المرأه، الأسود و الأبيض، العربى و الأعجمى، إلا بالاستحقاق الذى تقتضيه المصلحه العامه و بما شرّعه اللّه تعالى الخالق الكامل العالم بكل خفايا مخلوقاته لمصلحه المخلوق الناقص مهما علا علمه، و اللّه غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون...

و سنفرد فی نهایه الکتاب ملحق بتاریخ التشریع الإسلامی.

إن هـذه الـدنیا التی نعیش فیهـا لهی بحق اسم علی مسـمی، فهی حیـاه دنیـا لاـ قرار فیهـا و لا ثبات لأی شـیء و دیـدنها التغییر و التبـدیل من حال إلی حال.. بل هی طریق إلی حیاه أخری أهم و أبقی - هی حیاه البقاء و الاسـتقرار أو الدار الآخره - فما نزرعه فی حیاتنـا الـدنیا نحصـده هناک فی ذلک العالم الـذی ینتظرنا فی عالم غیب اللّه تعالی، عنـد ملک الملوک، المملیک المقتـدر، هناک حیث لا أحد یظلم فتیلا، فإما رضا و ثواب، و إما سخط و عقاب.. إما إلی نار و إما إلی جنه.

ص: ۸

الفصل الأول: نظره عامه

مقاصد الشريعه:

اشاره

لفظ الشريعه فی أصل الاستعمال اللغوی الماء الذی یرده الشاربون، و هی فی نفس الوقت طریق و منهاج و منبع یرتوی منه، ثم نقل هذا اللفظ إلی معنی الطریقه المستقیمه التی یفید منها المتمسکون بها هدایه و توفیقا(۱).

أما الشریعه فقها فهی ما یختص بالأوامر و النواهی و الإرشادات التی وجهها اللّه تعالی إلی عباده لیکونوا مؤمنین صالحین عاملین، سواء أ کانت متعلقه بالأفعال أم بالعقائد أم بالأخلاق، و ذلک لأنها محکمه مستقیمه و لأنها الطریق إلی حیاه النفوس و ارتواء العقول. و نفوس البشر مجبوله علی الأثره و عدم الانضباط و حب الذات، فالناس بحاجه إلی تشریع ینظم علاقاتهم و یحد من أنانیتهم و یمنعهم من العشوائیه و عدم الانضباط فی السلوک و التصرفات، و إلا کان الأمر فوضی بینهم، و الفرد فی المجتمع یرغب فی إیجاد نظام یحدد له الحدود و الواجبات فی المجتمع الذی یعیش فیه.

و حیث إن البشر لا یستقرون علی ضابط واحد یضبطهم لفتره زمنیه معینه، فهم دائمو التغییر فی الفکر و المنطق و المعتقد بحسب مراحل الحیاه التی یعیشون و نوع البیئه المحیطه و عوامل أخری عدیده، من أجل ذلک کانت الشرائع السماویه رحمه بالعباد و فصلا بینهم فیما یختلفون أنزلها خالقهم کی یبین لهم أفضل السبل لفضّ هذه الاختلافات و النزاعات فضلا عن تنظیمها لعلاقات الناس بربهم و خالقهم کی یتوجهوا له بالحمد و الشکر و العرفان بجمیل النعم، فالتشریع الإلهی عدل من اللّه تعالی و رحمه لعباده(۲).

تهدف الشرائع السماویه عامه و شریعه الإسلام بوجه خاص إلی تحقیق مصالح

۱- الشریعه الإسلامیه و مکانه المصلحه فیها، القاضی فاضل دولان، ص ۳۶، و انظر (بین الفقه و القانون)، للأستاذ عبد الهادی أبو طالب، ص ۷.

۲- الشریعه الإسلامیه و مکانه المصلحه فیها، القاضی فاضل دولان، ص ۳۶-۳۷ بتصرف. و انظر مدخل الفقه الإسلامی، للدکتور محمد سلام مدکور، ص ۱۱ و ما بعدها.

العباد و حفظها و منع الضرر عنهم، إلا أن هذه المصالح ليست هى ما يراه الإنسان مصلحه له و نفعا حسب هواه و رغبته، إنما المصلحه ما كانت مصلحه فى ميزان الشرع الذى شرعه خالق الإنسان و الكون معا فهو سبحانه مسبب أسبابه و أصل وجوده، و هو سبحانه القيوم - أى القائم - على ديمومه هذا الكون و هذا الإنسان حتى ينتهى العالم بإذنه، و هو سبحانه الوحيد الذى أحاط بكل شىء علما، و من دواعى و متطلبات هذه القيوميه و هذه الإحاطه أن يحدد الأطر و القوانين و النواميس التى يمشى بها هذا الكون بشكل صحيح سواء أ كان فى الماده أو الروح، فيعرف تبعا لذلك أن الأمر الفلانى مناسب للإنسان باستخدام الأسلوب الفلانى و هكذا.. و يقسم العلماء مقاصد الشريعه هذه إلى ثلاثه أقسام و هى حسب الأهميه و الأولويه:

١. الضروريات:

و معناها أنها لا بدّ منها فى قيام مصالح الدين و الدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدين و الدنيا على استقامه، بل فساد و تهارج و فوت حياه، و فى الآخره فوت النجاه و النعيم و الرجوع بالخسران المبين. و هذه الضروريات هى خمس، حفظ الدين و النفس و العقل و النسل و المال. و الحفظ يكون بأمرين فأما أحدهما فهو ما يقيم أركانها و يثبت قواعدها و هو عباره عن مراعاتها من جانب الوجود، و أما الثانى فهو ما يدرأ عنها الاختلال و يحافظ عليها من كل ما يمكن أن يؤثر عليها أو يقوضها.

٢. الحاجيات:

و معناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعه و رفع الضيق المؤدى فى الغالب إلى الحرج و المشقه اللاحقه بفوت المطلوب، فإذا لم تراع دخل على المكلفين الحرج و المشقه، و لكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادى المتوقع فى المصالح العامه و هى جاريه فى العبادات و العادات و المعاملات.

٣. التحسينيات:

و هى الأخذ بما يليق من محاسن العادات و تجنب الأحوال المدنسات التى تأنفها العقول الراجحات، فهى التى تجعل أحوال الناس تجرى على مقتضى الآداب العاليه و الخلق القويم. فإذا فاتت لا يختل نظام الحياه و لا يلحق الناس المشقه و الحرج، و لكن تصير حياتهم على خلاف ما تقتضيه المروءه و مكارم الأخلاق و الفطره السليمه.

و لكل من هذه الأقسام الثلاثه مكملات و هذه بالتأكيد ليست على مرتبه واحده،

و قد نتجت عن هذه المصالح الثلاثه و مكملاتها عده قواعد فقهيه استنبطها الفقهاء(۱).

إذن أول مقاصد الشريعه و أهمها هو الضروريات بأقسامها الخمسه، و أهم هذه الأقسام هو حفظ الدين و من ثم النفس و العقل للكائن البشرى الذى هو أهم مخلوق فى هذا الكون بل خلق الكون لأجله، فجعل اللّه تعالى كل ما فى الكون من أمور عظيمه لا يجحدها إلا مكابر مسخر بأمره لأجل خدمه هذا المخلوق. و من ثم أنزل الكتب و أرسل الرسل ليبينوا للناس على مر الأجيال حقيقه و سبب وجودهم، و حذروهم من مغبه انقيادهم وراء ما خلق لأجلهم و ترك ما هو أهم ألا و هو ما خلقوا من أجله(۲).

تتميز تنظيمات اللّه تعالى بسلامتها من أى غرض و ميل إلى الهوى و تفضيل لبشر على بشر فى لون أو نسب أو جنس، فالخلق عند اللّه تعالى سواء، بالإضافه إلى نفوذ علمه و إحاطته بجميع خلقه. و الناس لو سلمت تنظيماتهم الوضعيه من الهوى و الغرض فهى لم تسلم من النقص و العوج و الزيغ، بدليل تناقض أحكامهم، بل إن الشخص الواحد يناقض نفسه فينقض اليوم ما أبرمه بالأمس. و يؤكد أهل الشريعه الإسلاميه أن هذه الشريعه تعتبر أساسا و مصدرا لكل تشريع لأنها شموليه أى شامله للجنس البشرى لأى جيل فى كل زمان و المكان بحيث لا يمكن أن تقوم مقامها شرعه أخرى لشمولها الأصول و الفروع و الظاهر و الباطن، فهى الحق و هى العدل و هى المصلحه و حيثما كان الحق و العدل و المصلحه فثم شرع اللّه تعالى، وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَهً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّهً واحِدَهً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِى ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸)، (المائده: ۴۸).. ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَهٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۱۸)، (الجاثيه: ۱۸).

و الأحكام التى تناولها الشرع الإسلامى ثلاثه: الأحكام الاعتقاديه، و الأحكامم.

۱- الإسلام و التنميه البشريه، الدكتور أسامه عبد المجيد العانى، ص ۹-۱۴ بتصرف.

۲- انظر كتابنا (القرآن منهل العلوم)، إصدار الجامعه الإسلاميه، بغداد، ۱۴۲۳ ه/ ۲۰۰۲ م.

الخلقیه، و الأحکام العملیه. و هذه الأنواع الثلاثه تشمل جمیع أنواع تنظیم العلاقات من عبادات و حقوق و واجبات و أخلاق و تعاملات و أقوال و أفعال و تصرفات بین الإنسان و ربه، نفسه، أهله، جنسه، بیئته فی الأرض و الکون، و کل ما یحفظ حقوق الجمیع بما یحفظ لکل ذی حق حقه، و ما ینجی الکائن البشری فی دنیاه و آخرته. فحدد الإسلام العبادات التی یتقرب بها الإنسان من ربه عز و جلّ من صلاه و صیام و زکاه و حج، و تناول أحکام المعاملات بین الناس، فنظم العقود و حدد أحکامها کعقد الإیجار و الرهن و ما إلی ذلک، و تناول أحکام و مسائل الأحوال الشخصیه و شئون الزواج و تنظیم شئون الأسره و العلاقات الأسریه و حقوق کل فرد فیها، و أوضح السبل و الإجراءات القضائیه فی المحاکم و طرق الإثبات، و بین مرکز الحاکم بین المتقاضین، و حدد أحکام النظام الإداری و الدستوری فی الدوله، و بین السبل لاختیار رئیس الدوله و حقوقه تجاه الرعیه و واجباته نحوها، کما نظم القانون الدولی و علاقات الدول ببعضها فی الحرب و السلم. و کل ذلک نظم تنظیما دقیقا بقواعد قانونیه رصینه لا یأتیها الباطل من بین یدیها و لا من خلفها لأنها من لدن حکیم علیم بشئون البشر و سائر الکون، صِبْغَهَ اللّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَهً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (۱۳۸)، (البقره: ۱۳۸)(۱).

و حیث أن الأحکام الشرعیه الإسلامیه التی نسخت ما قبلها تعهد اللّه بحفظها من أی تحریف أو تلاعب بشری قد یصیبها، فإنها خالده باقیه دائمه حتی یرث اللّه الأرض و من علیها.

إذا ما تدبرنا آیات اللّه الخالدات من و جهه نظر تشریعیه قانونیه و اجتماعیه و اقتصادیه، فما ذا نری؟:

- المسلم الغنی مستخلف فی مال اللّه و ملکه، و الثروه أمانه فی عنق حاملها یسأل عنها یوم القیامه، من أین جمعها و فیم أنفقها.

- الکسب الحلال یؤدی إلی أسره کریمه طیبه، و الکسب الحرام یترک أثره فی الجوارح و السلوک لیکون أسره فاسده مفسده کالطفیلیات و المکروبات المدمره.

- توزیع عادل للثروات بحیث لا یبقی فقیر أو محتاج، و هذا ما حققه الخلیفهف.

۱- الشریعه الإسلامیه و مکانه المصلحه فیها، القاضی فاضل دولان، ص ۳۷-۴۱، بتصرف.

الراشدى الخامس عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه.

- ردع لكل متطاول بشكل لا يتجرأ بعده الآخرون على التقليد و هذا ما أثبته التطبيق العملى فى المجتمع الإسلامى - كقطع يد السارق مثلا -.

- نظام عظيم للزواج و تكوين الأسره و تربيه الأولاد.

- القانون فوق السلطه، و لا يستثنى الحاكم و المحكوم من عداله القضاء، فالإسلام هو أول من وضع هذا الشعار و طبقه.

- تكريم لا يدانيه تكريم للمرأه بدءا من ولادتها و تحريم الوأد الذى كان شائعا بين العرب قبل البعثه الشريفه، مرورا بحث الوالدين على تربيه البنات على أصول الخلق الرفيع و العلم النافع، ثم أهميه المرأه فى البيت و القضاء و العلم و الحرب و السلم و غير ذلك مما تزخر به كتب الفقه الإسلامى فى أهميه دور المرأه فى أن تكون بانيه للأسره و المجتمع لا أن تكون مدمره له وفق المفهوم الغربى الذى يجعل من المرأه عباره عن جسد يباع و يشترى بأبخس الأثمان، و ما يتبع ذلك من اتباع الشهوات للجنسين، و ترك الطريق الأمثل فى الزواج و تكوين الأسر إلى الطريقه الغرائزيه الحيوانيه فى تصريف الشهوه.

إن نظره ثاقبه إلى سوره النساء فقط و تدبر مدى الروعه العظيمه فى تقسيم الميراث فى الإسلام و حقيقه إعطاء النصف و الربع و الثلث و السدس لحالات مختلفه يريك مدى الترابط بين القانون و علم الاجتماع و الاقتصاد و الرياضيات. فإذا تأملت لما ذا هذه الكسور و حقيقه تقسيمها بهذه الدقه و ربطها مع الحالات الاجتماعيه المختلفه لكل تقسيم، لعلمت الدقه فى مراعات اللّه تعالى لحقوق الأسره برمتها و منها المرأه بأصنافها الثلاث الزوجه و البنت و الأم، من جهه و دقه التقسيم الرياضى من جهه ثانيه.

قام المهندس الأستاذ مولود مخلص الراوى بتقديم بحث رائع فى هذا الموضوع إلى المؤتمر الأول للإعجاز القرآنى الأول المنعقد بمدينه السلام بغداد للفتره ٢١-٢٦ رمضان ١۴١٠ ه الموافق ١۶-٢١ نيسان ١٩٩٠ م، و أسماه (الإعجاز فى علم المواريث) و الذى يتضمن إعداد برنامج حاسوبى للقسّام الشرعى يمكنه حل جميع مسائل الميراث مفرده كانت أم متناسخه (متعدده الوفيات) بأعداد صحيحه أو ما يعرف بالتصحيح و بنفس الأسلوب الشائع فى تنظيم القسّامات الشرعيه. و قد جرى اختبار البرنامج عمليا من قبل

لجنه شرعیه متخصصه ثم تم اعتماده من قبل وزاره العدل العراقیه للاستخدام عملیا فی المحاکم العراقیه(۱).

یقول أحد الحقوقیین الغربیین و هو یعلق علی ما جاء فی سوره النساء: (لا یمکن أن یکون هذا القرآن من عند محمد لأننا الآن و فی عصر التطور الهائل لا نستطیع أن نعطی تشریعا بهذه الروعه و التفصیل و الدقه و العداله لکل أفراد الأسره دون استثناء).

و قد اعترف الراسخون فی العلوم القانونیه من رجالات الغرب بأن التشریع الإسلامی یعد فی طلیعه المصادر الصالحه لسد حاجات التشریع الحدیث. و نطق بذلک قرار مؤتمر القانون المقارن المنعقد فی مدینه لاهای، فی شهر آب من سنه ۱۹۳۷ م، الموافق لجمادی الآخره من سنه ۱۳۵۶ ه، و قد دعی إلیه الأزهر، فمثله مندوبان من کبار علماءه فحاضرا فیه عن المسئولیه الجنائیه و المسئولیه المدینه فی الإسلام، و عن نفی أیه علاقه مزعومه بین القانون الرومانی الوضعی و الشریعه الإسلامیه الغراء. و قد خرج المؤتمر علی أثر ذلک بقرار تأریخی خطیر بالنسبه إلی رجال التشریع الأوربی، جاء فیه:

۱. اعتبار الشریعه الإسلامیه مصدرا مهما من مصادر التشریع العام.

۲. اعتبارها حیه قابله للتطور.

۳. اعتبارها تشریعا قائما بذاته، لیس مأخوذا من غیره(۲).

کان النظام القضائی الإسلامی أول من جاء بفکره القضاء و القانون فوق الحکم و السلطان، و طبقها فعلا فی کثیر من الحالات منها القصه المعروفه للإمام علی کرم اللّه وجهه مع الیهودی الذی اشتکی إلی القاضی بأن أمیر المؤمنین - حاشاه - قد سرق درعه، فحضر الطرفان أمام القاضی و انتهت القضیه بإعلان الیهودی إسلامه لما رأی من عدل الإسلام.. و هکذا أخذ الغربیون منا هذا التراث العظیم و صدروا لنا دکتاتوریاتهم التی کانت فی عصور ظلامهم، ثم ادعوا أنهم متحضرون لأنهم دیمقراطیون، فتنبهوا۴.

۱- الإعجاز فی علم المواریث، المهندس مولود مخلص الراوی، الاعجاز القرآنی، المؤتمر الأول للإعجاز القرآنی الأول المنعقد بمدینه السلام بغداد للفتره ۲۱-۲۶ رمضان ۱۴۱۰ ه الموافق ۱۶ - ۲۱ نیسان ۱۹۹۰ م، ص ۶۵۹-۶۷۶.
۲- الشریعه الإسلامیه و مکانه المصلحه فیها، القاضی فاضل دولان، مطبعه أنوار دجله، بغداد، ۱۴۲۳ ه، ۲۰۰۲ م، ص ۲۴.

معشر المسلمين لهذه المغالطه.

و هـا هو الأمير تشارلز يـدلى باعتراف خطير خلال مؤتمر عقـد بلنـدن عام ۱۹۹۶ م مـن أن ۶۰٪ من القضاء البريطانى يعتمـد فى روحه و بعض نصوصه على التشريع الإسلامى(۱).

و لأـهميه الموضوع لعامه الناس كى يفهموا عظمه هـذا الـدين و سـعه آفاقه و تعـدد آراءه و شـمول آلاءه، فقـد أفردنا ملحقا فى نهايه الكتاب لتبيان تاريخ التشريع الإسلامى و المراحل التى مرّ بها بشكل مختصر قدر الإمكان.).

۱- انظر كتـاب (المنظـار الهندسـى للقرآن الكريم)، للمؤلف. و بإمكـان القارئ الكريم الرجوع لنص الكلمه من مصادرها او من شبكه المعلومات الدوليه (الإنترنت).

الفصل الثانی: الاقتصاد فی الإسلام

إن ما یشهده العالم من ظلم اقتصادی لفئات کبیره من المجتمع البشری یؤکد ضروره ملحه ألا و هی کیفیه تکوین نظام اقتصادی یجعل العداله هی السمه الأبرز لتکوینه، و یطرد کل الأفکار التی من شأنها أن تکون دولا غنیه و أخری فقیره أو علی الأقل أن یکون الفرق بسیطا مقبولا و لیس ساحقا للغالبیه الفقیره.

إن أهم مبدأ جاء به التشریع الاقتصادی الإسلامی هو إزاله تلک الهوه بین الفریقین الأغنیاء و الفقراء و محاوله تقلیصها قدر الإمکان. یقول اللّه تعالی: ما أَفاءَ اللّهُ عَلی رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُری فَلِلّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ کَیْ لا یَکُونَ دُولَهً بَیْنَ الْأَغْنِیاءِ مِنْکُمْ وَ ما آتاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِیدُ الْعِقابِ (۷)، (الحشر: ۷). أی لکی لا تکون الغنائم محصوره بین مجموعه الأغنیاء فقد شرع التوزیع للجمیع دون استثناء، فالمبدأ إذن منع الاحتکار المالی و السلعی کی لا یحصل الخلل و المن ثم المظالم و المآسی التی تؤدی إلی الاقتتال من أجل المال. و إنک لتجد فی التشریع الحنیف ما أغنانا عن ذکره الکثیر من الباحثین و المتخصصین فی هذا الشأن المهم، و ما ذکر فی الکتب و المؤلفات و المجلدات ما یجعلنا نبتعد عن التفصیل و نقترب من الاختصار. دائما ما یحث الإسلام و کتابه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم الناس علی التکامل و التکافل الاقتصادی، و ینهاهم عن الاحتکار و الغش و السحت و السرقه و أکل مال الیتیم و الیمین الفاجر و الربح الفاحش و غیر ذلک من القیم الرائعه فی التعامل التجاری و الاقتصادی بین الأفراد و الدول، کما شرعت الزکاه و جعلت من دعائم النظام الإسلامی لما لها من أثر إیجابی علی المجتمع، و کذا و الصدقات و المکوس و نظم بیت المال للحفاظ علی التوازن بین الغنی و الفقیر فی الأمه. و قد فرض علی الأغنیاء ما یغنی الفقراء و هدد الممانعون بأشد العقاب فی الدنیا و الآخره لأن الفقر کاد أن یکون کفرا، کما جعل الدّین ثقیلا علی النفس لأنه یمنع الحی من الراحه و المیت من نیل الأجر حتی یسدد عنه دینه. و قد طبق کل ذلک فی عهود کثیره و أثبت نجاحه و تمیزه.

الناحيه الاقتصاديه فى نظام الحكم الإسلامى تستند على مسألتين، الأولى هى كيفيه أخذ الدوله للمال من الأمه، و الثانيه كيفيه إنفاقه. أما الأولى، فكانت الدوله الإسلاميه تأخذ الزكاه على الأموال و الأراضى و عروض التجاره و المواشى و الزروع و الثمار، باعتبار أن الزكاه عباده، لتقوم بتوزيعها على مستحقيها من الأصناف الثمانيه المقرره شرعا، كما تأخذ الخراج و الجزيه و ضرائب الجمارك بحكم إشرافها على التجاره فى الصعيدين الداخلى و الخارجى، و كانت تقوم على إداره ما هو داخل فى الملكيه العامه أو ملكيه الدوله كالمعادن و القنوات و غيرها من موارد بيت المال. أما من حيث إنفاق هذه الأموال فإنها توزعها حسب الأحكام الشرعيه، و قد طبقت أحكام النفقه على العاجز و حجزت على السفيه و المبذر، و أوجدت أماكن الفقراء و المعسرين، و نفذت أحكام العمل و العمال، و منعت الاحتكار و الغش و الاستغلال و الرشاوى و كل وسائل الكسب غير المشروع. و من الحق أن نقول إن بعض الحكام كانوا يسيئون تطبيق أحكام الشرع فى هذه الناحيه، و كان البعض الآخر يحسن غايه الإحسان فى رعايه هذه الناحيه، تبعا لنفسيه الحاكم و مدى التزامه بالأحكام الشرعيه، و موقف الأمه منه و خصوصا العلماء، فإذا حصل لبعض الحكام أن يقصر و يسىء فلا يعنى هذا عدم التطبيق(١).

لا أريد هنا أن أدخل فى تفاصيل هذا العلم الواسع و عظمه التشريع الإسلامى فى الزكاه و الصدقات و التدابير الاقتصاديه الإسلاميه العظيمه الأخرى و التى تحتاج إلى مجلدات كثيره لتفصيلها و هذا يترك لأهل الاختصاص(٢). إلا أننى سأركز على أمر غايه فى الخطوره بل هو أخطبوط مرعب التهم العالم كله بسبب نظام اقتصادى غير عادل حذر الإسلام منه أيما تحذير ألا و هو (الربا).

الربا لغويا هو مطلق الزياده و النمو، و هو حسب ما فصله الإمام الرازى رحمه اللّه فى مختار الصحاح: (ربا) الشىء زاد و بابه عدا. و الرابيه ما ارتفع من الأرض و كذاز.

١- الإسلام بين العلماء و الحكام، الشيخ الشهيد عبد العزيز البدرى، ألفه عام ١٣٨٥ ه - ١٩٦٥ م. مطبعه أنوار دجله، بغداد، ١٤٢٤ ه - ٢٠٠٣ م، ص ١٣-١٤.

٢- بإمكان القارئ الكريم الرجوع إلى مصادر مهمه فى النظام الاقتصادى الإسلامى، و أفضل كتاب (المعاملات الماليه المعاصره فى ميزان الفقه الإسلامى)، للمؤلف الدكتور على أحمد السالوس لأهميته و أسلوبه المميز.

(الربوه) بضم الراء و فتحها و كسرها و الرباوه أيضا بفتح الراء. و الربو النفس العالى يقال ربا من باب عدا إذ أخذه الربو. قال الفراء فى قوله تعالى: فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (١٠)، (الحاقه: ١٠)، أى زائده كقولك أربيت إذا أخذت أكثر مما أعطيت.

و رباه تربيه و ترباه أى غذاه و هذا لكل ما ينمى كالولد و الزرع و نحوه. و الربا فى البيع و قد أربى الرجل و الربيه مخففه لغه فى الربا و هو فى حديث صلح أهل نجران. قال الفراء: هو ربيه مخففه سماعا من العرب و القياس (ربوه) بالواو(١).

يقول اللّه تعالى فى محكم كتابه:

١ - اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاّ كَما يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَ أَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَ مَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبا وَ يُرْبِى الصَّدَقاتِ وَ اللّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)، (البقره).

٢ - يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَ ذَرُوا ما بَقِىَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)، (البقره).

٣ - يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَهً وَ اتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)، (آل عمران: ١٣٠).

۴ - وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ النّاسِ بِالْباطِلِ وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٦١)، (النساء: ١٦١).

۵ - وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِى أَمْوالِ النّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاهٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)، (الروم: ٣٩).

فإن الآيات المباركات تبين ما لخطوره هذا الأمر و عظمه تأثيره السلبى على٢.

١- مختار الصحاح، الشيخ الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى، ص ٢٣١-٢٣٢.

الاقتصاد للفرد و المجتمع، كما تبين مدى التهديد العظيم الذى هدد به اللّه تعالى المتعاملين بالربا ألا و هو حرب من اللّه و رسوله، و هذا ما نراه اليوم.

و لقد اكتشف علميا أن القلق الذى يحدث نتيجه تراكم الثروات يؤدى إلى إفراز ماده الأدرينالين التى بدورها ترفع ضغط الدم و تؤدى إلى الحزن و الألم، و هذا يؤدى إلى مرض البول السكرى، و يتعرض الإنسان إلى الانفعالات العصبيه فيرى الدنيا فى عينيه سوداء قاتمه لا أمل فيها. يؤدى ذلك بالتراكم إلى تخبط الإنسان فيصبح بحال غير طبيعى كأن به مسا من جن أو كأنه مجنون، و هذا ما وصفه تعالى فى كتابه الكريم فى الآيات التى استعرضناها آنفا من الآيه ۲۷۵ من سوره البقره و التى تصف حاله المتعاملين بالربا: اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاّ كَما يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَ أَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا... . كما و أنك تجد نسبه عاليه من الناس قد أصابهم من الربا أما مباشره أو أصابهم من رشاشه تماما كما تنبأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما سيكون من أمر الناس عند آخر الزمان(۱) ، فاختلطت أموالهم الحلال بحرامه بسبب البنوك و التعاملات الربويه من جهه و بسبب تداخل المصالح العالميه اليوم بشبكه عنكبوتيه و التى أصبح معها من الصعب بمكان الانفكاك منها شئنا أم أبينا. فما ذا كانت النتيجه أننا أكلنا فى بطوننا بعض هذا الحرام المتأتى من الربا المفروض علينا فرضا، فأصبح الرجال و النساء يرقصون و يتمايلون فى الملاهى و الطرقات كأنهم بهم مس من الشيطان، إلا من رحم ربى، فصدق اللّه و رسوله.

ذكرنا تلك المشاكل الصحيه المتأتيه من الربا رغم أنه يفترض أن ندرجها ضمن المواضيع الطبيه، و لكن الموضوع يقتضى الإشاره المباشره. و لا أريد هنا الدخول فى الأسباب التى أوصلتنا إلى هذه النهايه لأن الشرح يطول، و لكننى سأذكر بعض الأمور من كتاب ألفه رجل أمريكى اسمه وليم غاى كار و ترجمه إلى العربيه سعيد جزائرلى و طبعته بالنسخه العربيه دار النفائس للطباعه و النشر. اسم الكتاب (أحجار على رقعه الشطرنج) دفع المؤلف حياته ثمنا له و كان قد استغرق فى تأليفه و جمع وثائقه و حقائقه حوالى أربعين عاما و قد أحدث ضجه كبيره فى خمسينات القرن العشرين و لا يزال من المصادر).

۱- راجع الأحاديث التى وردت فى ذلك فى كتابنا الأخير من هذه السلسله (آخر الزمان).

المهمه التی تقض مضاجع الیهود و فضائحهم التی تزکم الأنوف. یذکر المؤلف فی هذا الکتاب حقائق مذهله توصل إلیها ببحث و استقصاء مضنیین مفادها أن سبب ما نعانیه هو المشکله الاقتصادیه التی أکلت العالم بسبب ما فعله المرابون الیهود طیله أربع قرون من الزمن سیطروا فیها علی المال العالمی و مصادره و أمسکوا بزمام الشریان الاقتصادی العالمی فتحکموا به و بنوا إمبراطوریه اقتصادیه مهوله أساسها الربا بأضعاف مضاعفه و من ثم تحولت سیطرتهم إلی سیطره إعلامیه و اجتماعیه و سیاسیه و عسکریه و هذا ما نراه الیوم من سیطرتهم علی أعقد العقد السیاسیه فیما یسمی الدول الکبری فی العالم، ألا و هو الکونغرس الأمریکی و بالتالی سیطرتهم علی تعیین الرئیس الأمریکی نفسه، (و أضیف هنا أن أکثر من ۸۰٪ من الحکومه الأمریکیه منذ عام ۱۹۹۲ م و لحد الیوم هم من الیهود المؤصلین و هذه أکبر نسبه للیهود فی تاریخ الحکومات الأمریکیه)، بل إن المحافظین الجدد الذین یرسمون السیاسه الأمریکیه الحالیه هم صهاینه أو متصهینون، فشتان بین جورج واشنطن الذی سمی الیهود بالحشرات التی یجب أن تسحق و تطرد، و بین ما وصلت إلیه أمریکا الیوم، و کذلک شتان ما بین الملک إدوارد الأول الذی طرد ما تبقی من الیهود بعد ذبحهم ذبح الشاه و بین ونستون تشرشل الذی یقول أنا صهیونی ابن صهیونی، و کل من جاء بعده.

إن حب الیهود للمال جاء منذ عهد سیدنا موسی علیه السّلام بعد حادثه العجل الذی عبدوه بعد ما نجاهم اللّه تعالی من فرعون و کما أخبرنا القرآن الکریم، یقول اللّه تعالی:

... وَ أُشْرِبُوا فِی قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِکُفْرِهِمْ... ، (البقره: من الآیه ۹۳)، أی جعل الذهب و الفضه و المال الإله الذی یحکمهم بعد ما کفروا باللّه تعالی و سمحوا لأنفسهم بأن یعبدوا عجلا مصنوعا من الحلی الذی أخذوه من أهل مصر القدیمه. هذا العقاب الإلهی لهم بأن أصبحوا عبده للمال جعلهم لا یتورعون عن فعل أی شیء و من ذلک الربا الذی حرم علیهم فی التوراه بنص الآیه القرآنیه التی ذکرناها (النساء: ۱۶۱).

إن الکتاب الذی أشرنا إلیه یذکر أسماء هؤلاء المرابین و انتساباتهم و مؤسساتهم و أین و صلوا الآن بعد أربعه قرون من العمل الأخطبوطی الدءوب توارثوه جیلا بعد جیل، و هو کتاب غایه فی الأهمیه و الروعه یعطی لقارئه الفکره الواضحه حول خبث هؤلاء الناس و مکرهم و دهائهم الذی جعل من کل دول العالم مقلدا لهم أو طائعا ذلیلا بسبب

الحبال التی أوثقوها حول رقاب الشعوب و ما فعلوه من أسلوب اقتصادی خنق العالم و کبله بالدیون و المشاکل الاقتصادیه التی لا تنتهی و ما صندوق النقد الدولی إلا ذراع واحد من أذرع هذا الأخطبوط المرعب.

لنتحول الآن إلی کاتب آخر و هو الدکتور حسین مؤنس، إذ کتب بحثا فی مجله أکتوبر المصریه (العدد ۴۷۵، دیسمبر، ۱۹۸۵، ص ۵۰-۵۲)، توصل فیه فی النهایه إلی تعبیر نصه: «إذن فالربا یعنی خراب الدنیا فعلا»، قال فیه: «خلال السنوات الماضیه تجلی بوضوح أکثر فأکثر أن العالم کله یسیر بسرعه متزایده نحو کارثه اقتصادیه بلا حدود، و أن تلک الکارثه لا ترجع إلی أن موارد الخیر و الرزق فی الأرض قد قلّت و لم تعد تکفی الناس، لأن الحقیقه عکس ذلک فقد ازدادت هذه الموارد خلال السنوات الماضیه بصوره تخطت کل التوقعات و الدراسات، فإنتاج العالم من الغذاء یبلغ الیوم أضعاف حاجه البشریه جمیعا إذا هی دبرت بعداله، ففی بعض بلاد الدنیا مقادیر من الغذاء تکفی أهل الأرض جمیعا، فهذه أمریکا تتحدث عن جبال القمح، و هذه أوربا تحدثت عن جبال الزبد، بینما فی قاره إفریقیا یموت ۱۰٪ من سکانها سنویا فی حین أن الملوک و الأمراء یعملون موائد تکفی إنقاذ أضعاف هذا الرقم من موتهم و هلاکهم و لا أحسب هذا التفاوت إلا من جراء الربا».

و قد ساق الرجل أمثله عدیده بالأرقام حول موضوع الربا فمثلا نراه یقول «إن القلم الذی أکتب به الآن یکلف من مواد و صناعه و هندسه و نقل و أمور أخری رقما یساوی عشر المبلغ الذی أشتریه به»، و أمثله أخری عدیده، و یقول أیضا متسائلا بعد هذه الأمثله، (ما الذی یجعل هذا الفرق الهائل بین الواحد و العشره؟! فیجیب، الوسطاء و البنوک، ثم یتساءل فی نهایه البحث ما الذی یعطی الدولار کل هذه القوه؟!، إنه الربا، إنها المعاملات الربویه التی هی أساس الاقتصاد الغربی کله. لأن الثروه الأمریکیه التی لا تصدق و التی یصل قیمه المداوره الیومیه لها مئات البلایین من الدولارات لا یمکن أن تکون قد تکدست بهذه الصوره الرهیبه عن طریق التجاره الحره الشریفه، لأن أرباح المعاملات التجاریه مهما بلغت فإن للمکاسب التجاریه حدودا، و الشطاره و المهاره مهما بلغت فهی لن تسمح لک ببیع منتجاتک بأکثر من أربعه أو خمسه أضعاف تکلفتها، فإذا أنت بعتها بمائه ضعف فأنت هنا تدخل فی میدان السرقه، و السرقه

تسمی فی عرف التجاره الغربی (Intrest) أو (Benifet) و الترجمه العربیه الفصیحه للکلمتین هو الربا». و توصل فی نهایه بحثه إلی أن مأساه البشریه التی نعیشها الآن هو أساسها أن «عالمنا الراهن یقوم علی الربا من البدایه حتی النهایه».. فشتان بین عدل الاقتصاد فی الإسلام و شریعته السمحاء التی ملأت العالم رحمه و عدلا طیله ثمانیه قرون و بین بربریه حضاره العم سام.

تعلق بعض المتأخرین بکلمه (أضعافا مضاعفه) التی وردت فی قوله تعالی فی الآیه ۱۳۰ من آل عمران التی أوردناها آنفا، و قالوا أن الربا المحرم هو ما کان أضعافا مضاعفه، أما ما کان بسیطا و قلیلا فلا حرمه فیه. إن هذا الفهم الخاطئ للآیه الرد علی هؤلاء کما یذکر الأستاذ صلاح الدین عبد المجید هو أن هذا من باب التدرج فی التشریع تماما کما تدرج حکم تحریم الخمر، و العبره دائما بالحکم الأخیر، فکما یلاحظ من آیات الربا التی أوردناها أن هناک تدرجا فی الحکم بتحریمه حتی وصل إلی درجه الحرب من اللّه و رسوله علی فاعلیه و العیاذ باللّه.. و الأحادیث الشریفه الصحیحه فی ذلک کثیره، نذکر منها:

۱. أخرج البخاری فی الوصایا (۲۵۶۰) عن أبی هریره رضی اللّهم عنه عن النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال (اجتنبوا السّبع الموبقات)، قالوا یا رسول اللّه و ما هنّ قال (الشّرک باللّه و السّحر و قتل النّفس الّتی حرّم اللّه إلاّ بالحقّ و أکل الرّبا و أکل مال الیتیم و التّولّی یوم الزّحف و قذف المحصنات المؤمنات الغافلات).

۲. أخرج الإمام مسلم فی المساقاه (۲۹۹۵) عن جابر قال لعن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم آکل الرّبا و مؤکله و کاتبه و شاهدیه و قال هم سواء ۳. أخرج أبو داود فی البیوع (۲۸۹۶) عن سلیمان بن عمرو عن أبیه قال سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فی حجّه الوداع یقول (ألا إنّ کلّ ربا من ربا الجاهلیّه موضوع لکم رءوس أموالکم لا تظلمون و لا تظلمون ألا و إنّ کلّ دم من دم الجاهلیّه موضوع و أوّل دم أضع منها دم الحارث بن عبد المطّلب کان مسترضعا فی بنی لیث فقتلته هذیل)، قال (اللّهم هل بلّغت)، قالوا نعم ثلاث مرّات، قال (اللّهمّ اشهد)، ثلاث مرّات و لقد أصدر المؤتمر السنوی لمجمع البحوث الإسلامیه الذی عقد عام ۱۹۶۵ م قرارا

هذا نصه: (الفائده على أنواع القروض كلها ربا محرم، لا فرق فى ذلك بين ما يسمى بالقرض الاستهلاكى و ما يسمى بالقرض الإنتاجى، و إن كثير الربا و قليله حرام). إن الربا له أضرار كثيره فى جوانب ثلاثه: الجانب الخلقى و الجانب الاجتماعى و الجانب الاقتصادى.

يرى عميد الاقتصاديين الأوربيين (كينز) أن الربا هو سبب الكساد، و أن المجتمع النامى لكى يحقق آماله فى التنميه عليه أن يصل فى تعامله الاقتصادى إلى الدرجه التى تصير درجه الفائده (الربا) صفرا.. و إن نظره واحده إلى ديون العالم النامى التى و صلت إلى أرقام مرعبه، هى كلها ديون ربويه، و مهما عملت الدوله لتسديد تلك الديون تراها تغرق فيها أكثر، السبب ببساطه أن المبدأ هو مبدأ إيغال فى المشكله و ليس حلها.

على أن هناك فوائد لا تنكر من عمل المصارف الإسلاميه كتيسير التبادل و تعزيز طاقه رأس المال و تحويل النقود بين الدول و بيع و شراء العملات و إصدار الشيكات و تحصيل الديون و بيع أسهم الشركات و تأجير الخزائن الحديديه و تسهيل التعامل مع الدول الأخرى.. و من هنا بدأت فكره البنوك غير الربويه فى خمسينيات القرن العشرين الميلادى، و قد أثبتت نجاحا باهرا مما دفع إلى تطوير الفكره و انتشارها حتى وصل إلى أوربا و أمريكا(۱).

فى بدايات العقد التسعينى من القرن العشرين الميلادى عقد مؤتمر عن الاقتصاد الإسلامى فى جامعه ليفيبوروه البريطانيه بحضور كبار اقتصاديى العالم، و استمعوا إلى شروح عن آيات القرآن الكريم و أحاديث المصطفى صلّى اللّه عليه و سلّم المتعلقه بتنظيم الشئون الاقتصاديه، فكان الانبهار العظيم من الجميع، و تم الاتفاق على تدريس الاقتصاد الإسلامى فى الجامعات البريطانيه فى البكولوريوس و الماجستير و الدكتوراه.

و فعلا فى عام ۱۹۹۶ م تأسس معهد ماركفيلد للدراسات الإسلاميه الاقتصاديه تحت إشراف أساتذه مسلمين متخصصين أمناء و أوفياء، و ليس المستشرقين الذين شوهوا الإسلام و كتابه و سنه رسوله، و دسوا لنا السم فى الدسم. و قد قام هؤلاء الأساتذه بالإشرافف.

۱- بحث للأستاذ صلاح الدين عبد المجيد فى مجله التربيه الإسلاميه، السنه ۳۵، العدد ۱۲، ص ۲۷-۳۰، بتصرف.

على الطلاب من مختلف المراحل الجامعيه و لأربعه جامعات بريطانيه كمرحله أولى.

و ها هى المصارف الإسلاميه غير الربويه تبدأ بالانتشار فى أمريكا و أوربا و تدر بالربح الوفير باعتراف الغربيين أنفسهم، و ها هى الإنجازات تترى لتكون بدايه الخير، فأول الغيث قطر كما يقولون، و الحمد للّه رب العالمين.

ص: ٢۴

الفصل الثالث: النظام الاجتماعی الإسلامی

اشاره

لقد کون رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم مجتمعا رائعا بعد أن طبق النوامیس و الأوامر الإلهیه التی جاء بها القرآن الکریم، فبدأ بالنفس و الأهل و الأقربون صعودا إلی المجتمع و المدینه و الدوله، فکانت تلک الحقبه تمثل أعظم الحقب التی حفظت للإنسان کرامته و عزته بعد أن عرف ربه و استقام علی ذلک.

و هنا أسرد قصه لطیفه لأحد الرحاله الأوربیین الذی زار بغداد فی العصر العباسی الثانی، فآجر منزلا، و کان یستیقظ کل صباح فیجد القمامه التی رماها فی باب بیته لیله الأمس و قد أزیلت، و کان یتعجب للأمر. فقرر ذات لیله أن یراقب الباب و لا ینام، فإذا بجاره یخرج عند هجیع اللیل لیحمل القمامه و یرمیها بعیدا. فأتی لجاره بعد ذلک فسأله عن الأمر، فقال له الجار، إنی و اللّه لم أکن أتمنی أن تعلم بهذا، أما أنک و قد علمت و سألتنی فسأجیبک... إن دیننا قد وصی بالجار، و إننی رجل أخاف العبور علی الصراط یوم القیامه، فلم یفهم السائل، فسأله عما عناه بالصراط، ففسر له الأمر، فازداد عجبه. و عند ما عاد لبلده روی القصه لأهله و قال لهم متسائلا: هل استطاعت کل فلسفاتنا أن تضع فی الناس خلقا رفیعا مثل ما فعله الصراط بالمسلمین؟... ذکرت تلک القصه لأبین لکل من یدعی أن المسلمین أخذوا النظافه من الغرب أن یعود لهذه الحضاره الرائعه و ذلک التاریخ المشرف لیعرف إلی أیه أمه ینتمی.

و لقد کفلت حضاره الإسلام العظیمه للبشر کل ما یحتاجونه لإقامه الأسس و المرتکزات التی حددتها، و من ذلک:

۱. حرمه الدم و حفظ حق الحیاه:

مِنْ أَجْلِ ذلِکَ کَتَبْنا عَلی بَنِی إِسْرائِیلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِی الْأَرْضِ فَکَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِیعاً وَ مَنْ أَحْیاها فَکَأَنَّما أَحْیَا النّاسَ جَمِیعاً وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَیِّناتِ ثُمَّ إِنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِکَ فِی الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (۳۲)، (المائده: ۳۲).

۲. حرمه العرض فصان للفرد حق الکرامه:

يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ (١١)، (الحجرات: ١١).. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لا تَجَسَّسُوا وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ تَوّابٌ رَحِيمٌ (١٢)، (الحجرات: ١٢).

٣. حرمه المال و حق التملک:

فی البخاری (الحج ١۶٢٣) عن ابن عبّاس رضی اللّهم عنهما أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم خطب النّاس یوم النّحر فقال: (یا أیّها النّاس أیّ یوم هذا قالوا یوم حرام قال فأیّ بلد هذا قالوا بلد حرام قال فأیّ شهر هذا قالوا شهر حرام قال فإنّ دماءکم و أموالکم و أعراضکم علیکم حرام کحرمه یومکم هذا فی بلدکم هذا فی شهرکم هذا)، فأعادها مرارا ثمّ رفع رأسه فقال: (اللّهمّ هل بلّغت اللّهم هل بلّغت). قال ابن عبّاس رضی اللّهم عنهما فو الّذی نفسی بیده إنّها لوصیّته إلی أمّته فلیبلغ الشّاهد الغائب لا ترجعوا بعدی کفّارا یضرب بعضکم رقاب بعض.

۴. حرمه البیوت و حق الاستقلال الشخصی:

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُیُوتاً غَیْرَ بُیُوتِکُمْ حَتّی تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلی أَهْلِها ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (٢٧)، (النور: ٢٧).

۵. حریه الرأی و الفکر و الاعتقاد و التعبیر:

و فی هذا یطول الشرح و التفصیل لکثره ما ورد فی ذلک.

۶. حق المعارضه و النصیحه:

للحاکم و المحکوم، ففی الترمذی (الفتن ٢٠٩۴) عن أبی بکر الصّدّیق أنّه قال أیّها النّاس إنّکم تقرءون هذه الآیه یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ لا یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ و إنّی سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقول: (إنّ النّاس إذا رأوا الظّالم فلم یأخذوا علی یدیه أوشک أن یعمّهم اللّه بعقاب منه). و فی صحیح مسلم (الإیمان ٨٢) عن تمیم الدّاریّ أنّ النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال: (الدّین النّصیحه) قلنا لمن قال: (للّه و لکتابه و لرسوله و لأئمّه المسلمین و عامّتهم).

٧. حق القضاء و القصاص العدل:

کما ذکرنا فی ما سبق من آیات و کذلک قوله

تعالى: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ، (الأنعام: من الآيه ۱۶۴). أَلاّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (۳۸)، (النجم: ۳۸)..

۸. حق التعلم حتى وقت الحرب:

* وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (۱۲۲)، (التوبه: ۱۲۲)... و قد حث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على طلب العلم فى عده أحاديث كما فى حديث النسائى فى الطهاره (۱۵۸) عن عاصم أنّه سمع زرّ بن حبيش يحدّث قال أتيت رجلا يدعى صفوان بن عسّال فقعدت على بابه فخرج فقال ما شأنك قلت أطلب العلم قال إنّ الملائكه تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب فقال عن أىّ شىء تسأل قلت عن الخفّين قال كنّا إذا كنّا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى سفر أمرنا أن لا ننزعه ثلاثا إلاّ من جنابه و لكن من غائط و بول و نوم.

۹. حق العمل(۱):

فقد دعا الإسلام للعمل لأنه من أهم و سائل الارتزاق، و هو أساس الاقتصاد، و الدعامه الأساسيه للإنتاج، و هو عباده من أجلّ العبادات مع النيه الخالصه، و كل قطره عرق تبذل فيه تكون فى ميزان المسلم مع صلاته و صيامه و زكاته.. و المسلم لا يعمل من أجل الدنيا و الحرص عليها و على فتنها و متاعها، بل لأن العمل أساس كل شىء بل هو أساس التقرب إلى اللّه تعالى.. يقول العلامه أبو الأعلى المودودى رحمه اللّه (إذا تعاطيت التجاره و الصناعه أو اشتغلت بالخدمه، و أديت ما عليك من الواجب بكل أمانه و صدق اتقاء للّه تعالى، ثم كسبت الحلال و تجنبت الحرام، كان كسبك هذا و سعيك فى سبيله عباده للّه تعالى، مع أنك ما قمت بكل ذلك إلا لتكسب الرزق لنفسك).. لذلك تجد أن القرآن الكريم قد قرن العمل بالإيمان فى آيات كثيره، فجاء الحث عليه فى كتاب اللّه و سنه رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و فى أقوال السلف الصالح. يقول اللّه تعالى فى دعوه صريحه للعمل و الارتزاق و طلب الرزق و الكسب و السعى لكسب المعاش فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّهِ وَ اذْكُرُوا اللّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰)،

(الجمعه: ۱۰).. و یقول تعالی أیضا هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِی مَناکِبِها وَ کُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَیْهِ النُّشُورُ (۱۵)، (الملک: ۱۵).. و کأن القرآن یصرخ بالناس أن اعملوا لتأخذوا ثمره عملکم، و اتعبوا و انصبوا لتجدوا لذه کسبکم. فالسعی إذن هو الوسیله إلی الکسب.. کما و قرن القرآن الکریم السعی فی التجاره بالجهاد فی سبیل اللّه تعالی إعلاء دینه، فیقول تعالی.. وَ آخَرُونَ یَضْرِبُونَ فِی الْأَرْضِ یَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللّهِ وَ آخَرُونَ یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللّهِ... ، (المزمل: من الآیه ۲۰).. و الآیات فی هذا المعنی کثیره، إذ أحصی بعض الباحثین المحققین الآیات القرآنیه الداعیه إلی العمل و السعی لکسب العیش فکانت تزید علی ۱۶۰ آیه، و التی ذکرت مطلق العمل بلغت ۳۶۰ آیه، کما وردت معانی أخری للعمل فی ۱۰۹ آیه.

و فی الحدیث الشریف نجد الأحادیث الکثیره التی ترغب بالعمل، منها قوله صلّی اللّه علیه و سلّم فی الحدیث الذی أخرجه الإمام أحمد فی باقی مسند المکثرین (۸۰۶۰) عن أبی هریره عن النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال (خیر الکسب کسب ید العامل إذا نصح).. و قوله صلّی اللّه علیه و سلّم فیما ینقل البخاری رحمه اللّه تعالی فی کتاب البیوع (۱۹۳۰) عن خالد بن معدان عن المقدام رضی اللّهم عنهم عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: (ما أکل أحد طعاما قطّ خیرا من أن یأکل من عمل یده و إنّ نبیّ اللّه داود علیه السّلام کان یأکل من عمل یده).. و قوله صلّی اللّه علیه و سلّم فی حدیث الطبرانی فی الأوسط و الأصبهانی من حدیث ابن عباس رضی اللّه عنه: (من أمسی کالا من عمل یده أمسی مغفورا له).. و أخرج الترمذی فی کتاب البیوع (۱۱۳۰) عن أبی سعید عن النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم قال: (التّاجر الصّدوق الأمین مع النّبیّین و الصّدّیقین و الشّهداء).

و یسمو الإسلام بالعمل حتی یجعله بمنزله الجهاد فی سبیل اللّه، فقد روی کعب ابن عجره رضی اللّه عنه قال مر علی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم رجل، فرأی أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم من جلده و نشاطه، فقالوا یا رسول اللّه لو کان هذا فی سبیل اللّه!، فقال صلّی اللّه علیه و سلّم: (إن کان خرج یسعی علی ولده صغارا فهو فی سبیل اللّه، و إن کان خرج یسعی علی أبوین کبیرین فهو فی سبیل اللّه، و إن کان خرج یسعی علی نفسه یعفها فهو فی سبیل اللّه، و إن کان خرج یسعی ریاء أو مفاخره، فهو فی سبیل الشیطان)، رواه الطبرانی و رجاله رجال الصحیح.. و قد نهی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم عن المسأله و حث علی القوه الاقتصادیه فالید العلیا خیر

من السفلى، و خير الصدقه ما كان عن ظهر غنى كما قال صلّى اللّه عليه و سلّم، و حث على الدقه و الإتقان فى العمل و قرنه بحب اللّه للعبد، و حث على إعطاء العامل و الأجير أجره بسرعه دون إبطاء.

أما أقوال السلف الصالح رضى اللّه عنهم فى هذا المعنى كثيره، منها ما يذكره الغزالى رحمه اللّه تعالى فى الإحياء (۶۴/۲) و هو قول سيدنا عمر رضى اللّه عنه (ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلى: أى أبيع و أشترى)، و قوله رضى اللّه عنه (إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأسأل: أ له حرفه؟، فيقال: لا، فيسقط من عينى)..

و قالت أم المؤمنين عائشه رضى اللّه عنها (المغزل بيد المرأه خير من الرمح فى يد المجاهد).. و يقول بعض الصالحين (ليست العباده أن تصف قدميك - يعنى للعباده - و غيرك يقوت لك: ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد).. و قال ابن خلكان (لو يعلم المسلمون و أبناء المسلمين ما أعد اللّه تعالى للمسلمين فى إحياء الأرض، ما ترك مسلم بقعه دون إحياء رجاء الثواب المدخر عند اللّه تعالى).

و يسمو الإسلام بالعمل أيضا حتى يجعله فوق الكثير من العبادات، فالرجل الذى يعمل و يعول أخاه العابد يصير أعبد منه، و هناك من يفضل الصناع على العباد كالشيخ الشعرانى و هو من المتصوفه، ذلك لأن نفع العباده تعود على صاحبها حسب، بينما نفع الحرف فيعود على الناس جميعهم بالخير.. و إذا كان الإسلام قد دعا إلى العمل فقد نهى عن الجلوس فى البيت من غير عمل، فهذا سيدنا عمر رضى اللّه عنه يدخل المسجد بعد الصلاه، فيرى فيه قوما قابعين بدعوى التوكل على اللّه، فما كان من فاروق الإسلام إلا أن علاهم بدرته، و قال كلمته المشهوره (لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق و يقول: اللهم ارزقنى، و قد علم أن السماء لا تمطر ذهبا و لا فضه، و أن اللّه تعالى يقول فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰)..

و هذا الإمام أحمد رضى اللّه عنه سئل عمن يجلس فى بيته من غير عمل بحجه أن رزقه سيأتيه فأجاب السائل (هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم (.. جعل رزقى تحت ظل رمحى..)، و قوله حين ذكر الطير (.. تغدو خماصا و تروح بطانا..).

۱۰. حق التجمع لعمل الخير و نبذ التجمع للشر:

وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۲)، (المائده: من الآیه ۲). و هکذا کان العمل الجماعی للخیر أمر فیه خیر. ففی الترمذی (الفتن ۲۰۹۲) عن ابن عبّاس قال قال رسول صلّی اللّه علیه و سلّم: (ید اللّه مع الجماعه). و تعاون الجماعه فی الإسلام من أعظم القربات إلی اللّه تعالی، فعن عبد اللّه بن عمر رضی اللّه عنهم أخبره أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال «المسلم أخو المسلم لا یظلمه و لا یسلمه و من کان فی حاجه أخیه کان اللّه فی حاجته و من فرّج عن مسلم کربه فرّج اللّه عنه کربه من کربات یوم القیامه و من ستر مسلما ستره اللّه یوم القیامه»، و عن أبی هریره رضی اللّه عنه قال قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم «من نفّس عن مؤمن کربه من کرب الدّنیا نفّس اللّه عنه کربه من کرب یوم القیامه و من یسّر علی معسر یسّر اللّه علیه فی الدّنیا و الآخره و من ستر مسلما ستره اللّه فی الدّنیا و الآخره و اللّه فی عون العبد ما کان العبد فی عون أخیه...».

۱۱. ثبت حقوق الزواج و المرأه و المیراث و نظام الأسره:

کما سنفصل لاحقا.

لقد کثر الحدیث هذه الأیام عن حقوق الإنسان فی دول العالم و فی دول الغرب بالذات و تحدیدا فی الولایات المتحده، فبدأت تسوق هذه الحقوق و کأنها بضاعتها أو أنها وصیه علیها، و أصبحت ذریعه فی إخضاع من هم دونها و إیذاء الأمم و الشعوب تحت دعوی الدفاع عن حقوق الإنسان. لکن الواقع یشیر و منذ ما یربو عن ال ۵۰ عاما أن الدول الغربیه نفسها هی أول من لا یطبق هذه الحقوق إلا فی الأمور التی تفید مصالح ضیقه لجماعات معینه دون غیرها، و الأمثله فی هذا أکثر من أن تذکر. إن الکلام عن حقوق الإنسان لا یأخذ مداه ما لم یکن هناک تنفیذ و تفعیل لتلک الحقوق. فبدون منهجیه تفعیل حقوق الإنسان و ضماناتها الحقیقیه یصبح الکلام عنها و السعی إلیها... کَباسِطِ کَفَّیْهِ إِلَی الْماءِ لِیَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ... ، (الرعد: من الآیه ۱۴).. فلا ینفع الکلام و التأشیر و التعداد ما لم تقترن بالتطبیق.

یذهب علماء القانون العام إلی تقسیم حقوق الإنسان إلی مجموعات من أجل تیسیر دراستها، فقسموها إلی مجموعه الحریات الشخصیه التی تشمل الحریه الشخصیه للفرد و حریه التنقل و السکن و المراسلات، ثم تأتی مجموعه حریات الفکر و تشمل حریه العقیده و التعلیم و الصحافه و الرأی. القسم الثالث هی مجموعات حریات التجمع مثل حریه

التظاهر و تأليف الجمعيات و الأحزاب و الحركات، ثم مجموعه الحقوق و الحريات الاجتماعيه مثل حق العمل و اختيار نوعه و الراحه و الفراغ و المعونه عند العجز و المرض و الشيخوخه. ثم تأتى مجموعه الحريات الاقتصاديه، مثل حق التملك و التجاره و الصناعه. و مجموعه الحقوق السياسيه مثل حق الانتخاب و الترشيح و تقرير المصير...

و قد سبق الإسلام و كما فصلنا آنفا إلى تشريع هذه الحقوق بل أضاف إليها حقوقا أخرى.

و رغم أن هذه الحقوق و الحريات جاءت تعدادا و مناشده فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان غير أنه لا توجد وسائل فعاله لتفعيلها و نقلها من النظريه إلى التطبيق. و فوق ذلك فإنها باتت معرضه لأن تعصف بها العولمه بأبعادها الاقتصاديه و الاجتماعيه و الثقافيه من جهه أخرى، و تحكّم الدول الكبرى المتغطرسه التى تشن الإرهاب الدولى تحت غطاء الدفاع عن حقوق الإنسان. و بقى ميثاق حقوق الإنسان حبرا على ورق و لم ينفذ منه شىء، فالعالم اليوم يعيش حاله غالب و مغلوب، و تفرد قوه عظمى بالهيمنه على العالم، بل إنها اختطفت الأمم المتحده و ميثاقها و جعلتهما ألعوبه فى يدها، فكان حق الفيتو سيئ الصيت لصالح مصالح خاصه ضيقه بمجموعه بشريه معينه قمه الإساءه للمنظومه الدوليه و حقوق الإنسان، ثم جاء تشكيل المحكمه الجنائيه الدوليه ليسهم فى تعزيز الظلم و الاستبداد فى جعل جرائم أميركا و أعوانها فى منأى عن المسائله و العقاب..

لكن الأمر يختلف بالنسبه للشريعه الغراء، التى يستنبط منها نظام كامل متكامل لحقوق الإنسان لا يهتم بالدرج و التعداد، بل جعل حقوق الإنسان منهجا و فعلا- و تطبيقا. و حين كانت أوربا تغط فى نوم عميق و تعيش قرونها الوسطى المظلمه تحت جبروت القساوسه و النبلاء و السلطات المطلقه للحكام، جاء الإسلام بتصور شامل لحقوق الإنسان، و كانت دوله الإسلام تنشر العدل و الإحسان، على أسس و مبادئ شرعيه قانونيه لم تعرفها البشريه من قبل، و كان الخليفه مقيدا بأحكام الكتاب و السنه، ملتزما باحترام حقوق الإنسان و الأفراد و حرياتهم التى نص عليها الإسلام، و وضع الضمانات التى تكفل حمايتها من كل جور و اعتداء.. إن المنهج الإسلامى يقوم على إقامه العدل و تقديمه على السلم عند التقاطع بينهما، و لا يحترم السلم المبنى على الظلم، و أعلن القرآن الكريم أن إقرار العدل فى الأرض هو أعظم هدف بعد عباده اللّه تعالى، و التى هى أعلى غايه على الإطلاق لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (۲۵)، (الحديد: ۲۵). و قوله تعالى فَقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّى تَفِىءَ إِلى أَمْرِ اللّهِ ، (الحجرات: من الآيه ۹).. و بعد فإن الإسلام أسس على الأرض أول دوله قانونيه تخضع فيه السلطه خضوعا تاما لقيود تسمو عليها، لأن مصدرها كتاب اللّه و أساسها الفكرى العقيده، لا تقبل التلبس بالظلم و الباطل و كما ذكرنا فى قصه الإمام على عليه الرضوان و السلام مع اليهودى، ترعى حقوق الإنسان من خلال منظومه كامله من الأحكام، و حقوق الإنسان فى الإسلام ذات صفه دينيه تقوم على العقيده و العبادات، و هى ليست منحه من بشر و إنما هى منح إلهيه واجبه على الجميع، و لا- مجال فيها لاستثناء أو تمييز ما بين حاكم و محكوم(۱).

لكن الأمر يختلف بالنسبه للشريعه الغراء، التى يستنبط منها نظام كامل متكامل لحقوق الإنسان لا يهتم بالدرج و التعداد، بل جعل حقوق الإنسان منهجا و فعلا- و تطبيقا. و حين كانت أوربا تغط فى نوم عميق و تعيش قرونها الوسطى المظلمه تحت جبروت القساوسه و النبلاء و السلطات المطلقه للحكام، جاء الإسلام بتصور شامل لحقوق الإنسان، و كانت دوله الإسلام تنشر العدل و الإحسان، على أسس و مبادئ شرعيه قانونيه لم تعرفها البشريه من قبل، و كان الخليفه مقيدا بأحكام الكتاب و السنه، ملتزما باحترام حقوق الإنسان و الأفراد و حرياتهم التى نص عليها الإسلام، و وضع الضمانات التى تكفل حمايتها من كل جور و اعتداء.. إن المنهج الإسلامى يقوم على إقامه العدل و تقديمه على السلم عند التقاطع بينهما، و لا يحترم السلم المبنى على الظلم، و أعلن القرآن الكريم أن إقرار العدل فى الأرض هو أعظم هدف بعد عباده اللّه تعالى، و التى هى أعلى غايه على الإطلاق لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)، (الحديد: ٢٥). و قوله تعالى فَقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّى تَفِىءَ إِلى أَمْرِ اللّهِ ، (الحجرات: من الآيه ٩).. و بعد فإن الإسلام أسس على الأرض أول دوله قانونيه تخضع فيه السلطه خضوعا تاما لقيود تسمو عليها، لأن مصدرها كتاب اللّه و أساسها الفكرى العقيده، لا تقبل التلبس بالظلم و الباطل و كما ذكرنا فى قصه الإمام على عليه الرضوان و السلام مع اليهودى، ترعى حقوق الإنسان من خلال منظومه كامله من الأحكام، و حقوق الإنسان فى الإسلام ذات صفه دينيه تقوم على العقيده و العبادات، و هى ليست منحه من بشر و إنما هى منح إلهيه واجبه على الجميع، و لا- مجال فيها لاستثناء أو تمييز ما بين حاكم و محكوم(١).

منزله المرأه و الأسره فى الإسلام:

رغم أننا قد تحدثنا عن بعض أوجه العظمه و الروعه فى التشريع الإسلامى فى الزواج و أسس تكون الأسره فى كتاب الطب النفسى، إلا إننا هنا سنحاول الولوج أكثر فى هذا الموضوع.

إن من أشد ما تبتلى به الأمم و المجتمعات و الأفراد عدم الاتعاظ بأخطاء و تجارب غيرها من الأمم و المجتمعات البشريه على المستويين الفردى و الجماعى، و لذا حفل القرآن الكريم بقصص الأمم السابقه، فأحد أسباب ارتقاء العنصر البشرى مقارنه بغيره من المخلوقات تراكم الخبرات بين الأجيال و انتقالها بين الأمم، لكن كثيرا ما يتخلى الإنسان عن هذه الميزه من تلقاء نفسه فيكرر أخطاء غيره و يطيل فتره تطوره و تقدمه. و من الأخطاء التى ما زالت تعانى منها الأمه و مجتمعاتها استيراد أنماطا اجتماعيه و اقتصاديه غربيه ذات قضايا و اهتمامات مختلفه تماما عن واقعنا و حاجاتنا. لقد عشنا قرونا عديده لا نجادل فى مسلّمه جاءت فى كتاب اللّه تعالى تقول:... وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى... ، فلم يكن رجالنا يرون فى ذلك ميزه لهم - إلا حالات شاذه لا يقاس عليها -، و لم تكن نساؤنا يرين فيها إقلالا من شأنهن أو حطا من قدرهن، بل هى توصيف لواقع و فطره نراها

١- عن مقاله للأستاذ الدكتور أكرم عبد الرزاق المشهدانى بمجله التربيه الإسلاميه بعنوان حقوق الإنسان بين الشريعه و القوانين الوضعيه، السنه ٣٥ - العدد ١٢، ص ٤٩-٥٣، بتصرف.

شاخصه لیس فقط بین بنی البشر بل بین الذکر و الأنثی لدی مخلوقات اللّه تعالی مما نری حولنا. لکن هذا الواقع تغیر لا بسبب اکتشاف جدید وضعنا أیدینا علیه أو مشکله نجمت عن هذه المسلّمه، بل لأن تیارا فی بعض بلدان الغرب سعی لأن یکون عکس ذلک بدعوی أن المرأه مظلومه لأنها لم تعط حقوقها عبر التاریخ، فجاءت استجابات مجتمعاتنا لهذه الدعاوی سریعه دون تمحیص أو تروی لمعرفه الحقیقه و إعطاء کل ذی حق حقه، فالمرأه فی الغرب تخرّج امرأه تقود طائره حربیه، فنفعل حتی و لو کنا لا نقاتل أعدائنا، و هم یعملون فرق ریاضیه نسویه فی الجمباز الخلیع فنفعل و لکن بالبنطال، و المرأه عندهم تلبس الخلیع لموضه خریف عام کذا فنفعل و نقلد کالببغاوات و الأرجوزات، و غیر ذلک من الأمثله التی تنم عن عقد نفسیه مترسخه فی کثیر ممن ینتمون لهذه الأمه بالاسم فقط، اسمها الغرب.

إن حقیقه کون الجنسین متساویین فی کل شیء و بشکل مطلق تم ترویجها فی السنین الأخیره من حیاه البشریه، فدعوی تحریر المرأه و دعوی المساواه و إنقاذ الجنس اللطیف من همجیه الرجال و تسلطهم جاءت متأخره و بالتحدید فی القرنین الماضیین فقط.

فلم نسمع فی تاریخ الحضارات جمیعا صدی لهذه الدعوه، لا لأن الرجل کان یضطهد المرأه و یبیعها فی سوق النخاسه، أو یتمتع بها و یرمیها، أو لأسباب أخری، و إنما لأن هذه الدعوه هی باختصار کلمه حق یراد بها باطل.

فحقیقه أن المرأه مضطهده فی کثیر من حقوقها لا ینکرها عاقل، و لکن المشکله هذا التکالب و الثوره غیر المنضبطه فی سبیل تحقیق ما یزعم أنه تطبیق عادل لما یضمن للمرأه حقوقها المتکافئه مع حقوق الرجل بما یجعل المجتمع یسیر فی طریق الخیر و المساواه، و لکن الحقیقه أن المسأله أخطر من ذلک بکثیر.

لقد أعطی الإسلام حقوقا للمرأه و تکریما لم یشهد التاریخ البشری مثیلا له من قبل، فقد کانت البنت محتقره، و محل سخریه و تذمر لأهلها فی أغلب المجتمعات البشریه قبل الإسلام، و لا یقتصر ذلک علی عرب الجزیره کما یظن البعض و إن کان یبدو أن الأمر لدی العرب یأخذ منحی أکبر، فقد کانت توأد و تدفن حیه لمجرد کونها أنثی، فکان هذه الأفعال و غیرها من أشد الأفعال التی ردّها الإسلام و حرّمها بقوله تعالی أَ فَأَصْفاکُمْ رَبُّکُمْ بِالْبَنِینَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِکَهِ إِناثاً إِنَّکُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِیماً (۴۰)،

(الإسراء: ۴۰).. وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۵۸) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۵۹)، (النحل).. أَمِ اتَّخَذَ مِمّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (۱۶) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۱۷) (الزخرف)..

وَ إِذَا الْمَوْؤُدَهُ سُئِلَتْ (۸) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (۹)، (التكوير).

و هكذا نزل القرآن الكريم ليعطى المرأه المنزله الراقيه التى تستحق، فأفرد لها سوره باسمها (سوره النساء) و التى ثبتت حقيقه مهمه فى بداياتها و هى مساواه المرأه للرجل فى النشأه و الخلق و العبوديه للّه تعالى يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَهٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَ نِساءً وَ اتَّقُوا اللّهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ إِنَّ اللّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (۱)، (النساء: ۱). فكلمه زوج تعنى المقابله، فللزوجيه فى القرآن عده معانى و هنا تعنى التقابل أو التكامل أو المساواه و ليس التضاد...

كذلك جمع اللّه تعالى بين الجنسين فى مهمه استخلاف اللّه البشر على إداره الأرض و إصلاحها و هو يقصد جنس البشر ذكرا كان أو أنثى (البقره: ۳۰)، و سوّى بين الجنسين فى التكريم و التفضيل الذى خصّ به الإنسان (الإسراء: ۷۰)، و ساوى بينهما فى الخلق من طين (ص: ۱۶)، و نفى الإسلام عن المرأه مسئوليه الخطيئه الأصليه. كما ركزت الآيات و الأحاديث على المساواه فى العمل مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياهً طَيِّبَهً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۹۷)، (النحل: ۹۷). هنا تجدر الإشاره إلى أن تقديم الذكر على الأنثى لا يفيد التفضيل كما يظن البعض، فكما يعلم من قواعد اللغه و الأحكام الشرعيه أن التغليب هنا يفيد المساواه، فالقرآن كان يمكن أن يشير إلى النساء بصيغه جمع المذكر الذى يفهم على أنه يعنى الإناث أيضا، و هذا يعرف لغه بالتغليب، و لكن القرآن فضل الوضوح منعا للبس و تأكيدا للمساواه. كذلك ساوى الشرع الحنيف بين الجنسين فى اكتساب الأجر وَ لا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَ سْئَلُوا اللّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْ ءٍ عَلِيماً ، (النساء:

۳۲). کما ساوی الإسلام بین الجنسین فی الولایه و تولی المسئولیات کالدعوه إلی اللّه و عمل الخیر و النهی عن الشر و الجهاد و غیر ذلک من المسئولیات التی تقیم المجتمع و الدوله بقوله تعالی: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ یُقِیمُونَ الصَّلاهَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاهَ وَ یُطِیعُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِکَ سَیَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۷۱)، (التوبه: ۷۱).

و قد کانت السیده عائشه رضی اللّه عنها من کبار رواه الحدیث و عنها قال عروه بن الزبیر (ما رأیت أحدا أعلم بفقه أو طب أو شعر من عائشه أم المؤمنین رضی اللّه عنها). و یروی أن سیدنا عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه ولّی (أم الشفاء بنت عبد اللّه) علی مرفق اقتصادی مهم هو حسبه السوق. کما أن سمراء بنت نهیک الأسدیه کانت تمر بالسوق تأمر بالمعروف و تنهی عن المنکر. و هناک أمیرات ولّین الحکم فی التاریخ الإسلامی کشجره الدر وقت المماليک فی مصر.

کما ساوی الإسلام الجنسین بمسئولیه تحمل النتائج بغض النظر عن الفاعل: کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ رَهِینَهٌ (۳۸)، (المدثر: ۳۸).. و أخرج البخاری فی صحیحه (کتاب الجمعه ۸۴۴) عن ابن عمر رضی اللّهم عنهما أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقول: (کلّکم راع و کلّکم مسئول عن رعیّته الإمام راع و مسئول عن رعیّته و الرّجل راع فی أهله و هو مسئول عن رعیّته و المرأه راعیه فی بیت زوجها و مسئوله عن رعیّتها و الخادم راع فی مال سیّده و مسئول عن رعیّته و کلّکم راع و مسئول عن رعیّته).

أما عن العقوبه لجرم کالسرقه فقد قدم الرجل السارق علی المرأه السارقه لأنه الأقدر علی ذلک: وَ السّارِقُ وَ السّارِقَهُ فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُما جَزاءً بِما کَسَبا نَکالاً مِنَ اللّهِ وَ اللّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۳۸)، (المائده: ۳۸). بینما فی الزنا قدمت المرأه الزانیه فی العقوبه علی الرجل لأن بیدها إتمام الجرم من عدمه، فهی تستطیع منع الجرم إن أرادت حتی و إن أراد الرجل الزانی اَلزّانِیَهُ وَ الزّانِی فَاجْلِدُوا کُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَهَ جَلْدَهٍ وَ لا تَأْخُذْکُمْ بِهِما رَأْفَهٌ فِی دِینِ اللّهِ إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ لْیَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَهٌ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ (۲)، (النور: ۲). و القاعده الفقهیه فی هذا الباب الذی یعنی بالعقوبات

و المعروف قانونا بالمساواه القانونیه بین الجنسین تقول (النساء شقائق الرجال). و لکن الإسلام غلّظ العقوبه فی الدنیا و الآخره علی الذین یدّعون أمر الزنا علی المرأه دون بینه و یتهمونها جزافا و بهتانا، إذ علیهم بأربعه شهود علی دقه ادعاءهم: وَ الَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ یَأْتُوا بِأَرْبَعَهِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِینَ جَلْدَهً وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَهً أَبَداً وَ أُولئِکَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۴)، (النور: ۴).. إِنَّ الَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ ، (۲۳)، (النور: ۲۳).

أما فی المعامله فقد أمر الشرع الحنیف الرجال بحسن المعامله مع النساء، فها هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یوصینا بالنساء فی کل الأوقات، بل و حتی قبل وفاته صلّی اللّه علیه و سلّم کان آخر کلامه أن استوصوا بالنساء خیرا، و کان أحن الناس علی أزواجه، ففی الحدیث الذی أخرجه الترمذی (المناقب ۳۸۳۰) عن عائشه قالت: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: (خیرکم خیرکم لأهله و أنا خیرکم لأهلی).. و فی بعض أسفاره کان یأخذ إحدی زوجاته صلّی اللّه علیه و سلّم فحصل أن ساق الحادی الجمل بقوه فوبخه صلّی اللّه علیه و سلّم علی هذا الفعل و أمره أن یرفق بالقوارير أی بالنساء، و سماهنّ کذلک لرقتهن، فقد أخرج البخاری فی الأدب (۵۷۴۱) عن أنس بن مالک قال کان النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم فی مسیر له فحدا الحادی فقال النّبیّ صلّی اللّه علیه و سلّم: (ارفق یا أنجشه ویحک بالقوارير). و المتتبع لسیره المصطفی صلّی اللّه علیه و سلّم و سیر الصحابه و التابعین یجد القصص الرائعه التی تذرف لها الدموع من فرط المحبه و الإخلاص و حسن التعامل و الموده بین الزوجین فی البیت المسلم و بین الحاکم و المحکوم فی حاله الدوله و القضاء.

أما قدسیه الزواج فقد کرّم الإسلام الزوجه أیما تکریم منذ خطبتها و حتی أقرب الأجلین الموت أو التفریق إن حصل و ما یتخلل ذلک من معاملات، و فی کلتا الحالتین لا یجوز للزوج أن یأخذ من الزوجه ما قدمه لها إلا إذا أتت بفاحشه وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَکانَ زَوْجٍ وَ آتَیْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَیْئاً أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِیناً (۲۰)، (النساء: ۲۰). و أما الزوجه الصالحه فقد جعلت أعظم کنز یعطی للرجل فی دنیاه. ففی سنن أبی داود (الزکاه ۱۴۱۷) عن ابن عبّاس رضی اللّه عنهما قال: لمّا نزلت هذه الآیه وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّهَ... ، قال کبر ذلک علی المسلمین فقال عمر رضی اللّه عنه أنا أفرّج عنکم فانطلق فقال یا نبیّ اللّه إنّه کبر علی

أصحابك هذه الآيه فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: (إنّ اللّه لم يفرض الزّكاه إلاّ ليطيّب ما بقى من أموالكم و إنّما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم)، فكبّر عمر ثمّ قال له (أ لا أخبرك بخير ما يكنز المرء المرأه الصّالحه إذا نظر إليها سرّته و إذا أمرها أطاعته و إذا غاب عنها حفظته).

أما تعدد الزوجات و التى أخذها الغرب حجه على الإسلام كما توهموا، فهى اختياريه و شرعت لأسمى غرض و هو الخوف على النساء من الضياع خصوصا أولاء الأطفال منهن و الذين لا يجدون من يعيلهن، فهى اختيار و بشروط مهمه أهمها إقامه العدل بينهن فإذا تعذر ذلك فزوجه واحده تكفى وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تَعْدِلُوا فَواحِدَهً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ذلِكَ أَدْنى أَلاّ تَعُولُوا (٣)، (النساء: ٣). تدبر الآيه و انظر أنها شرطيه ابتدأت ب (و إن) أداه شرط. أى إن خفتم ألا تعطوا اليتامى حقوقهم فلكم أن تتزوجوا من أمهاتهن لترعوهم، ثم تعود الآيه لتقول، ف (إن) مره أخرى خفتم ألا تعدلوا بين النساء فزوجه واحده فقط. و يدل على صعوبه القدره على العدل بين النساء قوله تعالى وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَهِ وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٢٩)، (النساء: ١٢٩). و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم دائما ما يطبق العدل بين الزوجات فى الأمور الدنيويه و المعيشيه فيوزع عليهن الرزق بالتساوى و كذلك كان يعطيهم حق الزوجيه دون تمييز، أما فى الأمور العاطفيه فقد كانت السيده عائشه رضى اللّه عنها أحب زوجاته إلى قلبه و أمور القلب ليس للإنسان عليها من سلطان. فقد أخرج الترمذى (النكاح ١٠٥٩) عن عائشه أنّ النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم كان يقسم بين نسائه فيعدل و يقول: (اللّهمّ هذه قسمتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك و لا أملك)، قال أبو عيسى حديث عائشه هكذا رواه غير واحد مرسلا. و معنى قوله لا تلمنى فيما تملك و لا أملك إنّما يعنى به الحبّ و المودّه كذا فسّره بعض أهل العلم.

و لك أخى الكريم أن تعرف سماحه الإسلام فى التشريع الذى ينظر لكل الناس صغيرهم و كبيرهم ذكرهم و أنثاهم ليحقق العدل. فكل تلك التفاصيل لتبين لك عظمه الزواج و مكانه الزوجه، كيف لا و قد جعلت وثيقه الزواج ميثاقا غليظا يشبه الميثاق

الغليظ الذى أعطى لأولى العزم من الأنبياء عليهم السلام و كما فصلنا فى كتاب الطب.

و لقد ذكرنا بعض الحالات التى ساهمت فيها المرأه فى الحرب و السلم و التمريض فى كتاب الطب، و نضيف أن الإسلام أعطى حقا للمرأه فى أمور عديده اقتصاديه و اجتماعيه و علميه و غيرها. و لكن الشرع الحنيف ثبت حقائق واضحه لا يمكن تجاوزها، ألا و هى أن الرجل أفضل من المرأه لا لغرض التفضيل المتعصب، و لكن لأن الرجل يمتلك من المقومات الخلقيه و الخلقيه ما يجعله كذلك.

على أن الجهال و أصحاب الأغراض و المصالح الضيقه و الفهم القاصر للدين استغلوا هذه الحقيقه فقدموا نماذج صارخه لظلم المرأه و استغلالها السيئ عبر التاريخ قديمه و حديثه، فحصلت رده فعل طبيعيه للمرأه معتقده أن الثوره على التقاليد الشرعيه و نفى الدين و إبعاد الشريعه عن واقعنا هو الحل، فتسممت الأفكار بدعاوى الغرب فى تحرير المرأه، و التى جاءت بعد عقود الظلم التى عاشتها هناك.

يبين اللّه تعالى أن للذكر أحقيه عن الأنثى من أوجه عده لا لتحقير المرأه بل لتكريمها. فكما أن الملك أو المسئول يحمى من قبل أناس متخصصون أقوى منه خوفا من غدر الغادرين، و كما أن الجواهر تحمى فى زجاج خاص خوفا من السراق، كذلك المرأه جعلت بهذه المواصفات كى تكرّم و تحمى لأنها لا تقدر على معترك الحياه القاسيه لوحدها دون رجل يقوم عليها و يحميها و يوفر لها سبل العيش الرغيد، تماما كما أن الرجل القوى لا يقدر على هذه الحياه بدون المرأه..

و هنا نريد أن نعكس الحاله فنقول مثلا- لما ذا أحل اللّه الفضه للمؤمنين من الذكور فى الدنيا و حرّم الذهب، بينما أحلهما للإناث، هل ليحقّر الرجال مثلا دون النساء، أم فى المسأله اعتبارات أخرى؟!.

لقد أثبتت البحوث الطبيه أن الذهب يؤثر على كريات الدم الحمراء للرجال دون النساء بسبب وجود طبقه شحميه بين الجلد و اللحم للنساء تمنع الإشعاعات الناتجه من معدن الذهب. و الذى يبلغ عمر النصف فيه ٢,٧ يوما، بينما لا تؤثر إشعاعات معدن الفضه على الرجال و النساء، كما أثبتت البحوث الطبيه العديده أن إشعاعات الذهب لها دور سلبى على الهرمونات الجنسيه الذكريه. و عن كتاب أطلس الكون الذرى للدكتور أنيس الراوى، فإن جسم الإنسان لا يحوى على الفضه فى تركيبه بينما يحوى

الـذهب و اليورانيوم و الحديـد و أغلب العناصـر الأخرى، كما و أن الفضه و الـذهب كأوان يتفاعلان مع مركبات الطعام لتكوين مركبات تتفاعل مع الأنزيمات البشـريه فتكون ماده تؤذى صـحه الجسم.. و هذا بالضـبط ما اخبرنا به صـلّى اللّه عليه و سـلّم بقوله «الـذهب و الحرير حرام على ذكور أمتى حـل لإناثها»(۱) ، و قـد نهانا صـلّى اللّه عليه و سـلّم عن الشـرب بآنيه الذهب و الفضه و لبس الحرير و الـديباج و قال «هى لهم فى الـدنيا و لكم فى الآخره»(۲) ، كما و أن الفضه أرخص بكثير من الـذهب و هى تلائم حـاله الأـمه الوسط التى ارادها اللّه لأمتنا. و هـذا ما يثبت لنا مـدى الفائـده العظيمه من تحريم الـذهب على الرجال من أمه سـيدنا محمد صـلّى اللّه عليه و سلّم بسببها و كم أن الإسلام يراعى الناس بكل أحوالهم، فما من تحريم لشىء إلا و جاء بسبب فائده إما صحيه أو اجتماعيه أو نفسيه أو غيرها.

إذن، هنا اختصاص لحاله عامه إذ أن التحريم للـذهب جاء للذكور لأسـباب عده منها صـحيه و منها نفسـيه و اجتماعيه و غيرها و ليس تحقيرا لهم بل تكريما و فائده، فنفس الكلام ينطبق على التفاصيل الشرعيه فى حقوق المرأه و واجباتها.

هـذه الحقيقه تؤكـد أن تكريم المرأه و علو شأنها فى الإسـلام جاء لعظمه دورها فى المجتمع الإسـلامى، و كما أن الذهب يتعب لاسـتحصاله فهو إمـا فى بـاطن الأـرض أو عنـد الجواهرى فلاـ يسـتحصل إلا بمال كثير فكـذلك المرأه المسـلمه كنز لا يرى إلا لصاحبه و لا يسـتحصل إلا بتعب و ثمن غال و كل من يريـد أن يغير هذه السـنه الا و هى كرامه المرأه و سترها و حجابها و عدم ظهور زينتهـا إلاـ لزوجها و المحارم فقـد ساهم فى تغيير سـنه اللّه فى خلقه و تناغم مخلوقاته وَ اللَّهُ يُرِيـدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (۲۷)، (النساء: ۲۷)، و اللّه أعلم(۳).

جاءت الآيات التى تؤكد على حقيقه قوامه الذكر على الأنثى كما يلى:

۱. فى المجال القضائى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوهُ

۱- أخرجه النسائى (الزينه ۵۱۴۴)، أبو داود (اللباس ۴۰۵۷) ابن ماجه (اللباس ۳۵۹۵).

۲- أخرجه البخارى (كتاب الأتربه - ۵۶۳۲) مسلم (اللباس و الزينه - ۲۰۶۷) و الترمذى و النسائى و أبو داود و ابن ماجه.

۳- المنظار الهندسى للقرآن الكريم، للمؤلف، ص (۵۷۲-۵۸۲)، بتصرف.

فَاكْتُبُوهُ وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَ لْيُمْلِلِ الَّذِی عَلَيْهِ الْحَقُّ وَ لْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَ لا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كانَ الَّذِی عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَ أَدْنى أَلاّ تَرْتابُوا إِلاّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلاّ تَكْتُبُوها وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۸۲)، (البقره: ۲۸۲).. يُوصِيكُمُ اللّهُ فِی أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ وَ إِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِی بِها أَوْ دَيْنٍ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (۱۱)، (النساء: ۱۱).. فی هذه الآيات المباركات دلائل و استنباطات عديده منها اقتصاديه فی أهميه الاكتتاب و العقد و الشهود، و منها اجتماعيه لغرض تثبيت الحقوق لكل الأطراف فی الميراث و العقود، و منها حقائق علميه فی أن حقل الذاكره فی دماغ الرجل أكبر منه عند الأنثی لذلك يتم الاعتماد فی الشهاده علی الرجال أكثر من النساء، و قد فصلنا فی هذا فی كتاب الجمله العصبيه.

۲. فی المجال الفيزيائی و الجسمانی: فَلَمّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّی وَضَعْتُها أُنْثی وَ اللّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثی وَ إِنِّی سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَ إِنِّی أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (۳۶)، (آل عمران: ۳۶).. اَلرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ بِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ فَالصّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللّهُ وَ اللاّتِی تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِی الْمَضاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كانَ عَلِيًّا

كَبِيراً (۳۴)، (النساء: ۳۴).. تبين الآيات أن الرجال أكثر قوه فى أمر العمل و المشاق الجسمانيه من المرأه. و كان لهذا التفضيل السبب الرئيس الذى جعل للرجل القيوميه على الأسره.

معنى القوامه فى الإسلام:

لكى نفهم المسأله علينا فهم الآيه من خلال علوم القرآن الكريم من حيث الإعراب و سبب النزول و التفسير لغه و اصطلاحا و معنى. و ذلك من خلال مراجعتنا لما ذكرته المصادر التاليه:

۱. التبيان فى إعراب القرآن (ج: ۱ ص: ۱۷۸): قوله تعالى قَوّامُونَ عَلَى النِّساءِ

على متعلقه بقوامون و بما متعلقه به أيضا و لما كان الحرفان بمعنيين جاز تعلقهما بشىء واحد "فعلى" على هذا لها معنى غير معنى الباء و يجوز أن تكون الباء فى موضع الحال فتتعلق بمحذوف تقديره مستحقين بتفضيل اللّه إياهم و صاحب الحال الضمير فى قوامون و ما مصدريه فأما ما فى قوله و بما أنفقوا فيجوز أن تكون مصدريه فتتعلق من بأنفقوا و لا حذف فى الكلام و يجوز أن تكون بمعنى الذى و العائد محذوف أى و بالذى أنفقوه فعلى هذا يكون من أموالهم حالا فالصالحات مبتدأ قانتات حافظات خبران عنه و قرئ فالصوالح قوانت حوافظ و هو جمع تكثير دل على الكثره و جمع التصحيح لا يدل على الكثره بوضعه و قد استعمل فيها كقوله تعالى وَ هُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ بما حفظ اللّه فى ما ثلاثه أوجه بمعنى الذى و نكره موصوفه و العائد محذوف على الوجهين و مصدريه و قرئ بما حفظ اللّه بنصب اسم اللّه و ما على هذه القراءه بمعنى الذى أو نكره و المضاف محذوف و التقدير بما حفظ أمر اللّه أو دين اللّه و قال قوم هى مصدريه و التقدير حفظهن اللّه و هذا خطأ لأنه إذا كان كذلك خلا الفعل عن ضمير الفاعل لأن الفاعل هنا جمع المؤنث و ذلك يظهر ضميره فكان يجب أن يكون بما حفظهن اللّه و قد صوب هذا القول و جعل الفاعل فيه للجنس و هو مفرد مذكر فلا يظهر له ضمير و اللاتى تخافون مثل قوله و اللاتى يأتين الفاحشه و مثل و اللذان يأتيانها و قد ذكروا و اهجروهن فى المضاجع فى وجهين أحدهما هى ظرف للهجران أى اهجروهن فى مواضع الاضطجاع أى اتركوا مضاجعهن دون ترك مكالمتهن.

۲. العجاب فى بيان الأسباب (ج: ۲ ص: ۸۶۸-۸۶۹): قوله تعالى (الرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ) ، الآيه. أخرج ابن أبى حاتم من

طریق أشعث بن عبد الملک عن الحسن قال جاءت امرأه إلی النبی تستعدی علی زوجها أنه لطمها فقال رسول اللّه القصاص فأنزل اللّه تعالی اَلرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَی النِّساءِ الآیه فرجعت بغیر قصاص و أخرجه عبد بن حمید و ابن المنذر من طریق حماد بن سلمه و أخرجه الواحدی من طریق هشام کلاهما عن یونس و أخرج ابن المنذر من طریق جریر بن حازم کلاهما عن الحسن أن رجلا- لطم امرأته فخاصمته إلی النبی فجاء أهلها معها فذکر نحوه و فیه فجعل رسول اللّه یقول القصاص القصاص و لا یقضی قضاء فأنزل اللّه هذه الآیه فقال النبی أرادوا أمرا و أراد اللّه غیره و نقل الثعلبی عن الکلبی قال نزلت فی سعد بن الربیع و امرأته عمیره بنت محمد بن مسلمه و ذکر نحو القصه الآتیه عن مقاتل... و نقل عن أبی روق أنها نزلت فی جمیله بنت عبد اللّه بن أبی و زوجها ثابت بن قیس بن شماس کانت نشزت علیه فلطمها فاستعدت علیه فنزلت قلت و قد تقدم ذکر هذه الأخیره فی تفسیر البقره فی قوله تعالی فیما افتدت به و کان ذلک الخلع أول خلع فی الإسلام و قال مقاتل نزلت فی سعد بن الربیع کان من النقباء و امرأته حبیبه بنت زید بن أبی زهیر و هما من الأنصار و ذلک أنها نشزت علیه فلطمها فانطلق أبوها معها إلی رسول اللّه فقال أفرشته کریمتی فلطمها فقال لتقتص من زوجها فانصرفت مع أبیها لتقتص منه فقال النبی ارجعا هذا جبریل أتانی فأنزل اللّه تعالی الرجال قوامون علی النساء الآیه، فقال النبی أردنا أمرا و أراد اللّه أمرا و الذی أراد اللّه خیر و رفع القصاص و قال عبد الرزاق عن معمر عن قتاده صک رجل امرأته فأتت النبی فأراد أن یقیدها منه فنزلت و أخرجه عبد بن حمید من روایه سعید بن أبی عروبه عن قتاده بلغنا فذکر.

۳. لسان العرب (ج: ۱۲ ص: ۴۹۷، ۵۰۳-۵۰۵): و القامه جمع قائم عن کراع قال ابن بری رحمه اللّه قد ترتجل العرب لفظه قام بین یدی الجمل فیصیر کاللغو و معنی القیام العزم کقول العمانی الراجز للرشید عند ما هم بأن یعهد إلی ابنه قاسم

قل للإمام المقتدی بأمهما قاسم دون مدی ابن أمه

فقد رضیناه فقم فسمه

أی فاعزم و نص علیه، و منه قوله تعالی وَ أَنَّهُ لَمّا قامَ عَبْدُ اللّهِ یَدْعُوهُ أی لما عزم و قوله تعالی إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أی عزموا فقالوا قال و قد یجیء القیام بمعنی المحافظه و الإصلاح و منه قوله تعالی اَلرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَی النِّساءِ و قوله تعالی إِلّا ما دُمْتَ عَلَیْهِ قائِماً أی ملازما محافظا و یجیء القیام بمعنی الوقوف و الثبات. یقال للماشی قف لی أی تحبس مکانک حتی آتیک و کذلک قم لی بمعنی قف لی و علیه فسروا قوله سبحانه وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَیْهِمْ قامُوا قال أهل اللغه و التفسیر قاموا هنا بمعنی وقفوا و ثبتوا فی مکانهم غیر متقدمین و لا- متأخرین و منه التوقف فی الأمر و هو الوقوف عنده من غیر مجاوزه له و منه الحدیث المؤمن وقاف متأن.

أی فاعزم و نص علیه، و منه قوله تعالی وَ أَنَّهُ لَمّا قامَ عَبْدُ اللّهِ یَدْعُوهُ أی لما عزم و قوله تعالی إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أی عزموا فقالوا قال و قد یجیء القیام بمعنی المحافظه و الإصلاح و منه قوله تعالی اَلرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَی النِّساءِ و قوله تعالی إِلاّ ما دُمْتَ عَلَیْهِ قائِماً أی ملازما محافظا و یجیء القیام بمعنی الوقوف و الثبات. یقال للماشی قف لی أی تحبس مکانک حتی آتیک و کذلک قم لی بمعنی قف لی و علیه فسروا قوله سبحانه وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَیْهِمْ قامُوا قال أهل اللغه و التفسیر قاموا هنا بمعنی وقفوا و ثبتوا فی مکانهم غیر متقدمین و لا متأخرین و منه التوقف فی الأمر و هو الوقوف عنده من غیر مجاوزه له و منه الحدیث المؤمن وقاف متأن.

و منه قامت الدابه إذا وقفت عن السیر و قام عندهم الحق أی ثبت و لم یبرح و منه قولهم أقام بالمکان هو بمعنی الثبات. و یقال قام الماء إذا ثبت متحیرا لا یجد منفدا و إذا جمد أیضا، و قامت السوق إذا نفقت و نامت إذا کسدت و سوق قائمه نافقه و سوق نائمه کاسده و قاومته قواما قمت معه صحت الواو فی قوام لصحتها فی قاوم و القومه ما بین الرکعتین من القیام قال أبو الدقیش أصلی الغداه قومتین و المغرب ثلاث قومات و کذلک قال فی الصلاه. و قام الرجل علی المرأه مانها و إنه لقوام علیها مائن لها و فی التنزیل العزیز اَلرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَی النِّساءِ و لیس یراد هاهنا و اللّه أعلم القیام الذی هو المثول و التنصب و ضد القعود إنما هو من قولهم قمت بأمرک، فالرجال متکفلون بأمور النساء معنیون بشئونهن و کذلک قوله تعالی یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَی الصَّلاهِ

أی إذا هممتم بالصلاه و توجهتم إلیها بالعنایه و کنتم غیر متطهرین فافعلوا کذا. و أقام الصلاه إقامه و إقاما فإقامه علی العوض و إقاما بغیر عوض و فی التنزیل وَ أَقامَ الصَّلاهَ و من کلام العرب ما أدری أ أذن أو أقام یعنون أنهم لم یعتدوا أذانه أذانا و لا إقامته إقامه لأنه لم یوف ذلک حقه فلما ونی فیه لم یثبت له شیئا منه إذ قالوها بأو و لو قالوها بأم لأثبتوا أحدهما لا محاله و قالوا قیم المسجد و قیم الحمام قال ثعلب قال ابن ماسویه ینبغی للرجل أن یکون فی الشتاء کقیم الحمام و أما الصیف فهو حمام و جمع قیم عند کراع قامه قال ابن سیده و عندی أن قامه إنما هو جمع قائم علی ما یکثر فی هذا الضرب و المله القیمه المعتدله و الأمه القیمه کذلک و فی التنزیل وَ ذلِکَ دِینُ الْقَیِّمَهِ أی الأمه القیمه و قال أبو العباس و المبرد هاهنا مضمر أراد ذلک دین المله القیمه فهو نعت مضمر محذوف و قال الفراء هذا مما أضیف إلی نفسه لاختلاف لفظیه قال الأزهری و القول ما قالا و قیل الهاء فی القیمه للمبالغه و دین قیم کذلک و فی التنزیل

العزيز دِيناً قِيماً مِلَّهَ إِبْراهِيمَ و قال اللحيانى و قد قرئ دينا قيما أى مستقيما قال أبو إسحاق القيم هو المستقيم و القيم مصدر كالصغر و الكبر إلا أنه لم يقل قوم مثل قوله لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً لأن قيما من قولك قام قيما و قام كان فى الأصل قوم أو قوم فصار قام فاعتل قيم و أما حول فهو على أنه جار على غير فعل و قال الزجاج قيما مصدر كالصغر و الكبر و كذلك دين قويم و قوام و يقال رمح قويم و قوام قويم أى مستقيم، قال إلا أن القيم مصدر بمعنى الاستقامه... و فى الحديث تسويه الصف من إقامه الصلاه أى من تمامها و كمالها قال فأما قوله قد قامت الصلاه فمعناه قام أهلها أو حان قيامهم و فى حديث عمر فى العين القائمه ثلث الديه هى الباقيه فى موضعها صحيحه و إنما ذهب نظرها و إبصارها و فى حديث أبى الدرداء رب قائم مشكور له و نائم مغفور له أى رب متهجد يستغفر لأخيه النائم فيشكر له فعله و يغفر للنائم بدعائه و فلان أقوم كلاما من فلان أى أعدل كلاما و القوم الجماعه من الرجال و النساء جميعا و قيل هو للرجال خاصه دون النساء و يقوى ذلك قوله تعالى لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ أى رجال من رجال و لا نساء من نساء فلو كانت النساء من القوم لم يقل و لا نساء من نساء، و قوم كل رجل شيعته و عشيرته و روى عن أبى العباس النفر و القوم و الرهط هؤلاء معناهم الجمع لا واحد لهم من لفظهم للرجال دون النساء و فى الحديث إن نسانى الشيطان شيئا من صلاتى فليسبح القوم و ليصفق النساء قال ابن الأثير القوم فى الأصل مصدر قام ثم غلب على الرجال دون النساء و لذلك قابلهن به و سموا بذلك لأنهم قوامون على النساء بالأمور التى ليس للنساء أن يقمن بها الجوهرى القوم الرجال دون النساء لا واحد له من لفظه قال و ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع لأن قوم كل نبى رجال و نساء و القوم يذكر و يؤنث لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر و تؤنث مثل رهط و نفر و قوم قال تعالى وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ فذكر و قال تعالى كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) فأنث قال فإن صغرت لم تدخل فيها الهاء و قلت قويم و رهيط و نفير و إنما يلحق التأنيث فعله و يدخل الهاء فيما يكون لغير الآدميين مثل الإبل و الغنم لأن التأنيث لازم له و أما جمع التكسير مثل جمال و مساجد و إن ذكر و أنث فإنما تريد الجمع إذا ذكرت

و ترید الجماعه إذا أنثت ابن سیده و قوله تعالی كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۰۵) إنما أنث علی معنی کذبت جماعه قوم نوح و قال المرسلین و إن کانوا کذبوا نوحا وحده لأن من کذب رسولا واحدا من رسل اللّه فقد کذب الجماعه و خالفها لأن کل رسول یأمر بتصدیق جمیع الرسل و جائز أن یکون کذبت جماعه الرسل و حکی ثعلب أن العرب تقول یا أیها القوم کفوا عنا و کف عنا علی اللفظ و علی المعنی و قال مره المخاطب واحد و المعنی الجمع و الجمع أقوام و أقاوم و أقایم کلاهما علی الحذف قال أبو صخر الهذلی أنشده یعقوب:

فإن یعذر القلب العشیه فی الصبا فؤادک لا یعذرک فیه الأقاوم

و یروی الأقایم و عنی بالقلب العقل و أنشد ابن بری لخزر بن لوذان:

من مبلغ عمرو بن لأ ی حیث کان من الأقاوم

و قوله تعالی فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ قال الزجاج قیل عنی بالقوم هنا الأنبیاء علیهم السلام الذین جری ذکرهم، آمنوا بما أتی به النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی وقت مبعثهم و قیل عنی به من آمن من أصحاب النبی و أتباعه و قیل یعنی به الملائکه فجعل القوم من الملائکه.

۴. تفسیر البیضاوی (ج: ۲ ص: ۱۸۴): الرجال قوامون علی النساء یقومون علیهن قیام الولاه علی الرعیه و علل ذلک بأمرین وهبی و کسبی فقال بما فضل اللّه بعضهم علی بعض بسبب تفضیله تعالی الرجال علی النساء بکمال العقل و حسن التدبیر و مزید القوه فی الأعمال و الطاعات و لذلک خصوا بالنبوه و الإمامه و الولایه و إقامه الشعائر و الشهاده فی مجامع القضایا و وجوب الجهاد و الجمعه و نحوها و التعصیب و زیاده السهم فی المیراث و الاستبداد بالفراق و بما أنفقوا من أموالهم فی نکاحهن کالمهر و النفقه.

إذن یفهم من معنی القوامه من کل ما سبق أنها تعنی الاهتمام، العنایه، الرعایه، توفیر الأمن و السکن و الطعام و الملبس و کل شئون الحیاه، تقدیم المشوره و النصح. و کل تلک المعانی تتطلب الخلق الحسن و حسن المعامله و العشره و الإحسان و الصبر علی المرأه إن حصل منها تقصیر فی شئون معینه بل و حتی فی شئون الطاعه لقوله تعالی: وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاهِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ الْعاقِبَهُ لِلتَّقْوی (۱۳۲)،

(طه: ۱۳۲). و یتبین من مراجعه المصادر أعلاه أن من ضمن أسباب التنزیل للآیه أن رجلا قد ضرب امرأته فجاءت تشتکی إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لأنها تعرف أنه صلّی اللّه علیه و سلّم سیأخذ لها الحق، و قد همّ بأخذ القصاص لها لو لا أن جبریل علیه السّلام، جاء بالأمر الإلهی أن الرجال أحق بالقوامه. و لا یظن البعض هنا أن الرجال من حقهم ضرب المرأه لأی سبب، و إنما جاءت الآیه لتعطی معنی أنه فی حاله استخدام الضرب کحل أخیر بعد انتهاء کل الأسالیب الأخری یکون تأدیبیا و ألا یکون مبرحا و یتجنب الوجه کما جاء فی الأحادیث، و لکی یعطی قناعه أنه فی حاله الحصول لا یفترض القصاص المقابل من قبل المرأه للرجل بضربه لأنه لو شرع ذلک فلک أن تتخیل أن المرأه تضرب زوجها، فهل تبقی بعد ذلک قیمه للزوج کقیّم علیها واجب الاحترام. و بالمقابل علی الزوج أن یتجنب الضرب و الإهانه و یستخدم الحجه و یتحلی بالصبر.

القوامه التی عنتها الآیه الکریمه لا تکون للرجل بوصفه ذکرا علی المرأه بوصفها أنثی لقوه جسمه و تحمله المشاق حسب، و لکن یکون له بما یکتسبه من أخلاق، و یمارسه من أدوار علی المرأه بما تکتسبه من أدوار و أخلاق، فقد خلق اللّه تعالی الذکر و فیه استعداد فطری لکی یکون رجلا مسئولا و راعیا کما خلق المرأه و لها استعداد فطری لتکون حانیه راعیه مهتمه بشئون أولادها و زوجها. و اکتساب القوامه للرجل لغه بقیامه علی شئون الأسره بکافه احتیاجاتها کالأمن و العیش و غیره. و علی هذا الأساس تفهم القوامه من فهم المسئولیه و الرعایه و الإداره و الإشراف التی أرشد لها الحدیث (کلکم راع)، و لیس التحکم و السیطره. فالقوامه إماره لا من باب الولایه السیاسیه و السلطه الاستبدادیه، من باب (تفضل علی من شئت تکن أمیره)، دون من أو تطاول(۱).

الحقائق العلمیه بنفی المساواه المطلقه:

تری هل تم إثبات حقیقه وجود الفروق بین الجنسین، و هل أن قوامه الرجل حقیقه، و هل أن کذبه مساواه الجنسین حققت علمیا و تشخیصیا من قبل أهل الاختصاصات الطبیه و النفسیه و الاجتماعیه و القانونیه؟!. إذا ما تم ذلک هل یبقی لدعاه کذبه المساواه و مؤتمراتهم العالمیه و الإقلیمیه و المحلیه من معنی؟!... سوف نناقش

۱- مجله الأسره السعودیه، العدد ۱۲۴، رجب ۱۴۲۴ ه، ص (۲۲-۳۶)، بتصرف.

المسأله من الناحيه العلميه المجرده دون عواطف و أحكام مسبقه، و نعود لجذورها لنحللها علميا و نستبين الحقائق، كى يتبين الحق و أهله و الباطل و أهله، و عندئذ كل نفس بما كسبت رهينه.. و سنرى:

بعد دعوى تحرر المرأه فى بريطانيا و بقيه أوربا فى بدايات القرن الميلادى العشرين، شهد الغرب فى الستينات الميلاديه من القرن نفسه نموا و فورانا ملحوظا لحركه الليبراليه و الفوضويه و الماركسيه التى وصلت أفكارها إلى حد التناقض فيما يتعلق بالطروحات السياسيه و الاقتصاديه، لكن القاسم المشترك بينها كان ما يسمى بالمساواه بين المرأه و الرجل و تحرير المرأه من قيودها، حيث ظهرت الحركات النسويه المعروفه بال (فيمنزم) التى راحت تدفع بالمرأه فى كل مجالات الحياه معتبره ذلك إنجازا و تقدما يصب فى كفه المرأه. و من ضمن الأفكار التى رفعوا لواءها (نظريه النوع أو جندر)، و مفادها أن الرجل ليس رجلا لأن اللّه خلقه كذلك، و لا المرأه امرأه لأن اللّه خلقها كذلك، و أن الحاله التى تبدو لنا طبيعيه ليست كذلك و أن الصفات المميزه لكل نوع حتى النفسيه منها ليست كذلك، و عليه فإن العلاقه القائمه بين الرجل و المرأه فى الحياه الزوجيه مرفوضه، لأنها تجعل من المرأه الجانب المظلوم.. و أن الأسره كرست نظام الظلم على المرأه لأنها لا تملك حريه نفسها فى اختيار من تريد لنفسها، فقد ظلمها الرجل - على حد تعبير الفلسفه الماركسيه - بفرض رجل واحد فى حياتها و هو الزوج بغرض معرفه نسب الولد. فلا بد إذن من الثوره على الأسره كنمط اجتماعى كرّس لظلم المرأه و وأد دورها الاجتماعى و الطبيعى لتخرج إلى نطاق الشواذ باسم الحريه و المساواه و ضروره إزاله الملكيه الخاصه حتى لا يتحكم الرجل فى المرأه بماله.. لذلك تطالب (النوعيات) بتطهير التلفاز من كل أنماط الصور المعهوده حتى ينمو الأطفال معتادين على الصور الجديده غير المقيده بإطار جنسى معين، و أنه لا بد من صياغه و تحديد العلاقات بتغيير كلمه (زوج) إلى كلمه (شريك). و لهذا ركزت الحركه النسويه فى حديثها عن تلك الحقبه على موضوع المساواه و نسب الأولاد و الوراثه كحقوق اغتصبها الرجل من المرأه و استقوى بها عليها.

و قد هيمنت (النوعيات) على برامج المرأه فى أغلب الجامعات الأمريكيه، ففى ماده بعنوان (إعاده صياغه صور النوع - الجندر -) تشرح الماده الموزعه على الطالبات و الطلاب فكره الأمومه المكتسبه و تحث على حق الإجهاض من منطلق أن زواج المرأه

بالرجل ظلم و نكاحه لها اغتصاب، كما تشرح الماده أن الذكوره و الأنوثه لا تعنى شيئا فهى مجرد نمط اجتماعى يحدده الدور الاجتماعى، و تركز الماده على فكره التخلص من النوع الذى يعتبره مفتاح التخلص من النظام الأبوى و ظلم الرجل.

هذه الرؤيه المتطرفه التى صيغت بهذا الشكل المضحك هزمت أمام سيل الأبحاث و الدراسات العلميه فى مجالات شتى، منها نفسى و منها اجتماعى و منها طبى، و التى أكدت حقيقه الاختلاف بين المرأه و الرجل، و من ثم ضروره اختلاف الوظائف و الأدوار الاجتماعيه بينهما. سنستعرض لكم أدناه بعض هذه الأبحاث و ما توصلت إليه من شهادات تنطق بالحق و الدليل المادى الملموس و التى هى شهادات من أهلها:

١. يقول الدكتور إبراهيم الفقى - اختصاصى تنميه بشريه/النفس و الذهن و صاحب الكتب و المؤلفات و البحوث المعروفه عالميا - أن العلم الحديث و المراقبه الترديديه للدماغ البشرى أثبتا باليقين أن أسلوب تفكير الجنسين مختلف بشكل كبير بل و جذرى، فالرجل يمتاز بأسلوب تسلسلى للتفكير (Seqancial Way)، أما أسلوب تفكير المرأه فهو أسلوب حلزونى (Spiral Way).

٢. بينت البحوث النفسيه أن معدل الإصابه بمرض الكآبه عند النساء أكثر بثلاثه أضعاف ما هى عند الرجال.

٣. يقول الباحث الطبيعى الروسى (أنطون نميلاف) فى كتابه الذى أثبت فيه عدم المساواه الفطريه بينهما بتجارب العلوم الطبيعيه و مشاهدات توثيقيه: (ينبغى أن لا نخدع أنفسنا بزعم أن إقامه المساواه بين الرجل و المرأه فى الحياه العمليه أمر هين ميسور، الحق أنه لم يجتهد أحد فى الدنيا لتحقيق هذه المساواه بين الصنفين مثل ما اجتهدنا فى روسيا السوفييتيه، و لم يوضع فى العالم من القوانين فى هذا الباب مثل ما وضع عندنا، و لكن الحق أن منزله المرأه قلّما تبدلت فى الأسره، لا فى الأسره حسب بل قلّما تبدلت فى المجتمع أيضا).. و يقول فى مكان آخر: (لا يزال تصور عدم مساواه الرجل و المرأه ذلك التصور العميق راسخا ليس فى قلوب الطبقات ذات المستوى الذهنى البسيط فحسب، و إنما فى قلوب الطبقات السوفييتيه العليا أيضا).. و يقول عن الفوضى الجنسيه التى أحدثتها محاولات تطبيق المساواه:

(الحق أن جميع العمال قد بدت فيهم أعراض الفوضى الجنسيه، و هذه حاله جد

خطره تهدد النظام الاشتراکی بالدمار، فیجب أن نحاربها بکل ما أمکن من الطرق، لأن المحاربه فی هذه الجبهه ذات مشاکل و صعوبات. ولی أن أدلکم علی آلاف من الأحداث یعلم منها أن الإباحیه الجنسیه قد سرت عدواها لیس فی الجهال الأغرار حسب، بل فی الأفراد المثقفین من طبقه العمال).

۴. یقول الدکتور (ألیکسس کاریل) الحائز علی جائزه نوبل: (یجب أن یبذل المربون اهتماما شدیدا للخصائص العضویه و العقلیه فی الذکر و الأنثی، کذا لوظائفها الطبیعیه. هناک اختلافات لا تنقص بین الجنسین و لذلک فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات فی إنشاء عالم متمدن.

۵. الدراسات و الأبحاث التی أکدت وجود الفروق السلوکیه و البیولوجیه بین الرجال و النساء دفعت عددا من التربویین إلی الاستفاده من هذه الحقیقه فی مجال التعلیم، و من هنا ولدت فکره مدارس الجنس الواحد فی أمریکا و أوربا فی سابقه یستغربها الکثیرون و یراها البعض طبیعیه. فقد أعلنت إداره الرئیس الأمریکی جورج بوش عن عزمها تشجیع مبدأ عدم الاختلاط بین البنین و البنات فی المدارس العامه، و ذلک فی عوده لقانون کان سائدا قبل ۳۰ عاما. و قد صدر إعلان عن هذا المشروع فی السجل الفیدرالی و هو الصحیفه الرسمیه الأمریکیه بتاریخ ۲۰۰۲/۵/۸ م، و جاء فی بعض فقراته: (أن وزیر التربیه ینوی اقتراح تعدیلات للتنظیمات المطبقه حالیا تهدف إلی توفیر هامش مبادره أوسع للمربین من أجل إقامه مدارس غیر مختلطه، و إن الهدف من هذا الإجراء هو توفیر وسائل جدیده لمساعده التلامیذ علی الترکیز فی الدراسه و تحقیق نتائج أفضل). و قد أثار القرار نقد البعض و استحسان الآخرین.

علی إثر ذلک أکد البروفیسور أمیلیوفیانو أن العدید من الدراسات التی أجریت علی تلامیذ و تلمیذات أظهرت أنه فی بعض مراحل نموهم یرتفع مستوی التحصیل الدراسی لدیهم فی حاله الفصل بین الجنسین أثناء الدراسه. و أضاف (إن بعض الفتیات یشعرن بالمیل إلی بعض الفتیان، الأمر الذی یحرمهن من تطویر حیاتهن الاجتماعیه و العلمیه فضلا عن التحصیل الدراسی، و کذلک الحال بالنسبه للتلامیذ الذین یفضلون الانفصال عن الفتیات حتی لا یتحتم علیهم الالتزام ببعض اللباقات و التصرفات التمثیلیه التی تؤدی فی حاله حضور الفتیات.

٦. أيدت الجمعيه الوطنيه لتشجيع التعليم غير المختلط هذه التوجهات و عرضت دراسه أجرتها جامعه ميتشيغان فى بعض المدارس الكاثوليكيه الخاصه المختلطه و غير المختلطه تفيد أن الطلاب فى المدارس غير المختلطه كانوا أفضل فى مستوى القراءه و الكتابه و الرياضيات.. كما صدرت شهاده أخرى بنفس الاتجاه عن الوكاه التربويه الوطنيه الأمريكيه أفادت نتائج بياناتها الاحصائيه بأن الفتيات الأمريكيات فى الفصول المختلطه أكثر عرضه للقلق و الاكتئاب و الانتحار.. و فى دراسه لمجله نيوزويك الأمريكيه ذكرت بالأرقام و الإحصائيات أن الدراسات فى الكليات النسائيه غير المختلطه هن الأكثر تفوقا و نجاحا فى حياتهن الدراسيه و المهنيه بعد التخرج.. كل تلك الإعلانات تأتى لتهدم الصرح الكبير الذى بنى ليحتضن النظريه القائله بوجوب المساواه و الاختلاط و الشذوذ.

٧. و فى بريطانيا أكدت بحوث نشرت فى العديد من الدوريات أن المدارس التى حققت تفوقا دراسيا فى طلبتها هى تلك المدارس التى لا يوجد فيها اختلاط بين الجنسين، فقد حققت ١٥ مدرسه للذكور و ١۴ خاصه بالإناث التفوق فى شهاده (A- LEVEL).. هذه النتائج جعلت مجلس إداره مدرسه (شين فيلد) الثانويه فى منطقه برنت و ود تقرر فصل الطلاب عن الطالبات، و قال المدير الدكتور أوزبورن (قد يبدو القرار عوده إلى الماضى، و لكنه اتخذ لمصلحه الطلبه و مستقبلهم من الجنسين، فقد اكتشفنا أن الطالبات فى التعليم المختلط يضيعن جزءا كبيرا من أوقاتهن فى الاهتمام بالمظاهر و المكياج و أنهن مع وجود الطلاب الذكور يفقدن زمام السيطره و لا يعرفن الهدف).. و تؤكد الإحصاءات أنه عند ما يدرس الطلبه من كل جنس بعيدا عن الجنس الآخر فإن التفوق العلمى يتحقق، ففى وسط التعليم المختلط أخفقت البنات فى تحقيق التفوق فى مجال الرياضيات و العلوم و الفيزياء و التكنلوجيا و الكومبيوتر، و قد أيدت الإداره التعليميه فى منطقه نيوهام هذه الحقائق فى دراسه تحليليه.

٨. إليزابيث فليجورى – رئيسه رابطه مدارس البنات الخاصه – لم تؤكد هذه الإحصاءات حسب، بل أكدت أيضا أنه مع التوسع فى استخدام التكنلوجيا فى العمليه التعليميه تزايد معدل التفوق لدى البنات فى المدارس غير المختلطه، و أن

نسبه النجاح بينهن ارتفعت فى الشهادات العامه إلى ٩٣٪ و نسبه التفوق بامتياز إلى ٥٠٪. و قالت فليجورى (فى محيط نسائى خالص بعيد عن الضغوط النفسيه و الاجتماعيه و تأثير الجنس الآخر، استطاعت البنات من أن يؤكدن تفوقهن و قدرتهن على استيعاب المعلومات و استخدامها و تحليلها و اتخاذ القرارات فيها)...

و لعل شهاده شيرلى وليامز الأستاذه فى جامعه هارفارد و التى أمضت حياتها الدراسيه فى مدارس غير مختلطه حتى حصلت على شهاده (A-LEVEL) ثم التحقت بكليه سرفيل - غير المختلطه أيضا - بجامعه أوكسفورد، توضح الكثير من تميز التعليم غير المختلط، فتقول (فى هذا الجو الخالى من الضغوط التى يسببها وجود الرجال، يكون عطاء البنات عاليا و إيجابيا و مثيرا يؤكد قدرتهن على الإبداع و التفوق و العطاء، كما أن وجودهن لوحدهن دون الرجال يزرع فى أنفسهن الثقه العاليه و الصداقه الحميمه البعيده عن الأغراض و الشبهات).

٩. أعد عالم الاجتماع الأمريكى روس ستولز نبيرج دراسه لجامعه شيكاغو تحت عنوان (لما ذا تشكل الزوجه العامله خطرا على زوجها؟)، قال فيه (إن السبب الرئيسى فى ذلك هو أن الأزواج و الزوجات ما زالوا يؤدون أدوارا مختلفه فى الزواج، و ليس هناك مساواه بينهما فى هذا، و أن مهمه الحفاظ على سلامه العائله و صحتها تبقى ضمن مسئوليات الزوجه، فالنساء يتدربن منذ الطفوله على التعامل مع المشاكل الطبيه و نشر الوعى الصحى بين أفراد الأسره و يلممن بالأعراض المرضيه.

كما و أنهن المسئولات عن الحياه الاجتماعيه)... و حذر فلاسفه غربيون من مغبه المساواه المطلقه غير المنضبطه بين الرجال و النساء، فقد انتقد الدكتور اليكسس كاريل فى كتابه (الإنسان ذلك المجهول) الحضاره الماديه الغربيه و ما جنته من تحلل و انهيار للأسر و المجتمعات، و أعزى ذلك للمساواه بين الجنسين رغم وضوح الفروق العضويه و الجسديه و الفيزيائيه و النفسيه بينهما.

١٠. تشير عده إحصائيات فى دول متقدمه أن ٧٠٪ من النساء يفضلن البقاء فى البيت و عدم العمل إذا ما توفرت لهن القدره الماليه للعيش بسبب الضغوط الشديده التى تتعرض لها المرأه فى العمل و الذى لا يتناسب مع قابليه تحملها، مما يزيد فى تعرضها لتدهور فى الصحه أو الحاله النفسيه. و قد كشفت نتائج فى الولايات المتحده

أن المرأه استطاعت أن تقلص الهوه بينها و بين الرجل فی مجالات علميه مختلفه و لكنها تفوقت عليه فی مجال الاكتئاب و التدخين و الانتحار و المخدرات و الكحول.

۱۱. يشير الدكتور محمد رشيد العويد ردا على الداعين للمساواه و المتقولين بأن الفروق إنما جاءت بسبب البيئه المحيطه و العادات التی نشئا وسطها و التربيه التی تلقياها فی الصغر بقوله (الدراسه و البحث و العلم أثبتت أن الفروق بين الجنسين فروق عضويه موروثه و ليست مكتسبه و من ثم فإن محاوله المساواه بينهما محاوله فاشله مناقضه لطبيعه كل منهما. لقد قام فريق بحثی بتشكيل معسكر ضم عددا من الأطفال من الجنسين أشرف على تربيتهم مربون يتبدلون كل فتره زمنيه معينه، و قد حذفت كلمه رجل و امرأه فی المعسكر و تم تجنب كل إشاره أو عمل أو سلوك فيه تفريق بين الجنسين من الأطفال الذين ترعرعوا أحرارا من كل قيد أو صفه يطلقها عليهم المجتمع حتی أنهم تركوهم يمارسون جميع الأعمال دون الأخذ بنوع العمل إذا كان يخص الرجل أو المرأه.. و حين كبر سكان المعسكر و خرجوا للمجتمع آثرت المرأه القيام بدور الأم و ربه البيت، و آثر الرجل القيام بدوره فی تأمين دخل الأسره و العمل الشاق و مارس الحياه بشكل عادی جدا دون تأثير محسوس لذلك المعسكر و ما بذل فيه من جهود و أموال و أمور أخرى لمحو الفروق بين الجنسين، فثبت بذلك أن نمط الحياه التی يختارها كل من الجنسين لنفسه تخضع لتحكم طبيعه الجنس و تكوينه العضوی).

۱۲. لقد بينت البحوث أن البنات يولدن بدهون أكثر و أنهن يسبقن الذكور فی الحصيله اللغويه. يستطيع الطفل بعد العام الأول من عمره تمييز جنس الأطفال - ذكر أو أنثی - بغض النظر عما يرتدونه، كما تتميز لعب كل جنس عن الآخر فی هذه السن، و فی سن الروضه يصبح لديه فكره واضحه عن الفارق بين الولد و البنت بل و يتصرف كل جنس بشكل يختلف عن الآخر. تقول الدكتوره ميريام ستوبارد الاستشاريه النفسيه (تفرض الضغوط الاجتماعيه على الأطفال منذ ولادتهم اتباع النموذج الخاص بكل جنس، و تحدد الأسره مميزات شخصيه كل منهما، و تأتی المدرسه و دور الحضانه بمن فيها من مدرسين و أصدقاء لصياغه هويه كل من الجنسين أيضا).

۱۳. من الناحیه الاجتماعیه و مجال النمو الجسمانی و اکتساب المهارات: تقول الدکتوره ستوبارد (یتمیز الأطفال بعضهم عن بعض سواء أ کانوا أناثا أم ذکورا، و یؤثر الأهل فی معدل سرعه التطور لاکتساب المهارات لدی الجنسین. فمن ناحیه النمو الجسمانی نری الإناث أسرع فی معدل نموهن فهن یسبقن الذکور فی النضوج فی مرحله المراهقه، و یبدو نموهن أکثر انتظاما و سرعه إلی أن یبلغ الصبی سن البلوغ فینضج و یصبح أکثر قوه و سرعه فتقوی لدیه العضلات و العظام، و یصبح أقل سمنه و تنمو عضله القلب و الرئتین لتستوعب أکبر قدر ممکن من الأوکسجین الذی یحتاجه الدم لتغذیه العضلات و العظام. و تکون الإناث فی مرحله ما قبل المدرسه أکثر رشاقه و مقدره علی القفز و الوثب و فی الحرکات الإیقاعیه و التوازن، بینما یصبح الذکر فی وقت لاحق أفضل فی تلک النشاطات التی تحتاج إلی الرکض و القفز... أما فی النمو اللغوی نجد الإناث أسرع من الذکور فی اکتساب المهارات الکلامیه و یستطعن صیاغه جمل أطول و ترکیب أحادیث إنشائیه و تلازم هذه المیزه الإناث فی حیاتهن المستقبلیه، کما یبدو أنهن یستطعن الکتابه و القراءه أسرع و تبدو قواعدهن اللغویه و نطقهن أفضل). و تضیف ستوبارد: (و یظهر أن الإناث و حتی سن البلوغ أفضل بقلیل من الذکور فی الریاضیات و لکن الذکور یظهرون مهارات أفضل أثناء سن المراهقه و لا سیما فی الهندسه الفراغیه و هم یستوعبون العلاقات الریاضیه و الأبعاد الهندسیه، و هذا التمیز یبقی واضحا و مستمرا فی سن ما بعد المراهقه)..

و تضیف الدکتوره ستوبارد (یکون الذکور عاده أکثر عدائیه و سیطره من الإناث، کما یظهر الذکر میلا إلی التنافس و الطموح، و مما لا شک فیه أن الإناث أکثر اجتماعیه و یقمن علاقات صداقه متینه و تغلب علیهن صفه المسایره، و یکن لینات العریکه).

و تنصح ستوبارد الوالدین بضروره مراعاه الاختلافات الفطریه بین الجنسین لتقویم نقاط الضعف لدی کل منهما کتوفیر الکتب و المستلزمات الأخری التی تعین کل جنس علی معالجه نقاط ضعفه عن الجنس الآخر، و عدم ذکر تلک العیوب أمامهما.

و تذکر الأبحاث أن البنات أکثر اتساقا و مرونه من الأولاد و أقل میلا للنوم و أکثر استعدادا لتهدئه النفس، بینما الأولاد أکثر حرکه و میلا للقوه.

۱۴. من النواحی السلوکیه و التطورات و التقلبات فی العلاقات الاجتماعیه: الدکتور حامد

زهران أستاذ الصحه النفسيه بجامعه عين شمس فيتحدث عن الفروق بين الجنسين من ناحيه النمو الاجتماعى قائلا (يتعلم كل جنس المعايير و القيم و الاتجاهات المرتبطه بجنسه مما يؤدى إلى اختلاف الذكور عن الإناث فى بعض أنماط السلوك. و يرى بعض الآباء أن بعض سمات السلوك الاجتماعى تليق. بالذكور كالشجاعه و القوه الجسمانيه و التحكم فى الرياضه البدنيه و الميل إلى التنافس و الاستقلال. بينما هناك أنماطا سلوكيه تجتذب الإناث حصرا كالوقار الاجتماعى و النظام و الدقه. و فى مرحله الطفوله الوسطى، نجد أن الإناث يسبقن الذكور دراسيا و يتفوقن عليهم، و رجع ذلك إلى أن نموهن أسرع عن أقرانهن الذكور خلال تلك السنوات، و لأنهن يقضين أوقاتا أطول فى البيت مع الكبار. و الذكور يتجهون ليصبحوا أكثر خشونه و استقلالا و منافسه من الإناث اللاتى يتجهن إلى أن يصبحن أكثر أدبا ورقه و رأفه و تعاونا من الذكور. و يشير الدكتور زهران إلى التنميط الجنسى أى تبنى الأدوار و اكتساب صفات الذكوره بالنسبه للذكور و الأنوثه بالنسبه للإناث، و يتضمن التنميط الجنسى اكتساب المعايير السلوكيه و الميول و الاهتمامات و نوع الألعاب و النشاط العام. فنجد الذكور يهتمون بالنشاط التنافسى و الألعاب الخشنه كالدراجات و المصارعه و الفنون القتاليه و كره القدم و غيرها، بينما الإناث يهتمون بالنشاطات الرقيقه كالطبخ و الحياكه و الخياطه و أعمال المنزل. فالجنسين إذن يختلفون بحكم الوراثه و البيئه العضويه و وظائف الأعضاء، و مع النمو يتميز الجنسان اجتماعيا من حيث الملابس و المعايير السلوكيه و خصائص الشخصيه. و فى نهايه مرحله الطفوله يبتعد كل جنس عن الآخر، و يظل هكذا حتى المراهقه، و تكون الاتصالات الاجتماعيه بين الجنسين مشوبه بالفظاظه و نقص الاستجابه و المضايقات و الخجل و الانسحاب).. و هنا تجدر الإشاره للحكمه الإسلاميه فى تشريع هذه النقطه، فالمتأمل للتشريع الإسلامى المتعلق بحضانه الصغار يلمس إدراكا عبقريا للفروق بين الاحتياجات التربويه للذكر عن تلك التى للأنثى، فى عالم الطفوله. و فى ذلك تقول الدكتوره كوثر محمد المنياوى (تنتهى حضانه النساء للصبى فى الإسلام بانتهاء المده التى يحتاج فيها للنساء، و ذلك بأن يأكل و يشرب و يلبس وحده ثم يكون مع أبيه حتى يبلغ سن الرشد فيستقل حينئذ بنفسه. بينما

حضانه البنت تنتهی إذا بلغت البلوغ الطبیعی للنساء. و إذا کانت الأم مطلقه لا یحق لها الاحتفاظ بالولد بل یجب تسلیمه للأب الذی یوفر له سبل الحیاه و التعود علی حیاه الرجوله و التخلق بأخلاق الرجال و اکتساب الخبره و المعرفه و تحصیل الفضائل و غیر ذلک، و لو ترک لأمه فلن تستطیع مواجهته أو منعه من فعل أمور قد توقعه فی التهلکه بعد أن یکبر لا لعیب فیها بل لعدم قدرتها علی منعه إذا تطلب الأمر استخدام الحزم، أما البنت فلا بأس فی ترکها للأم لأنها تستطیع تفهم مشاعرها و تقلبات السلوک الحاصل لها خلال نموها فیمکنها معالجه المسأله بحکمه).

۱۵. من الناحیه الطبیه و علم وظائف الأعضاء: لقد ثبت علمیا أن المرأه أقدر من الرجل بما لا یقاس علی الصمود فی وجه الأمراض، و المؤکد علمیا أنها متفوقه تفوقا عضویا واضحا علی الرجل. هذا التفوق یسمیه العلماء (الانتقاء الطبیعی)، أی أن اللّه تعالی کما زود الرجل بقوه جسمانیه فیزیائیه فی عضلاته فإنه زود المرأه بجهاز خلقی و قابلیه یضمن لها الصمود أمام الإرهاق المفرط و مقاومه و تحمل الأمراض المختلفه و آلامها أکثر من الرجل. یفسر الدکتور محمد رشید العوید ذلک بأن الخالق العلیم جل شأنه قد میز الأنثی بهذه القدره لأنه تعالی أسند إلیها مهمات عضویه مرهقه لم یسند مثلها للذکور مثل الحمل و الولاده و ما یسبق ذلک و ما یلیه من حمل و نفاس ناهیک عن التغیرات الهرمونیه و العضویه، هذا فضلا عن الحیض و آلامه التی شرحناها فی کتاب سابق. و یضیف البروفیسور الألمانی المعروف فی جامعه برلین رودولف باوماشن (إن المرأه قادره علی تحمل الإرهاق و الصدمات النفسیه أکثر من الرجل)، و أضاف استنادا لنتائج سلسله من التجارب الطبیه و العلمیه أن جسم المرأه یتفاعل بسرعه عنیفه و سریعه مع حالات الإرهاق النفسی و یفرز کمیات کبیره من هرمونات الإرهاق کماده الأدرینالین و النورادنالین و أسیدات دهنیه متحرکه، إلا أن هذه الهرمونات تتقلص بسرعه کبیره لدی المرأه بعد الإرهاق و الانفعال النفسی.

و استخلص البروفیسور من هذه التجارب أن المرأه تنفعل بصوره أسرع من الرجل إلا أنها تهدأ بالسرعه نفسها. و خلافا لذلک فإن جسم الرجل یفرز هذه الهرمونات الناتجه عن الإرهاق بشکل بطیء مما یجعلها تستقر لمده أطول فی الدوره الدمویه،

فالإرهاق أثره أطول فی الرجال مقارنه بالنساء. کذلک فإن للنساء عاطفه جیاشه و حس مرهف ورقه فی المشاعر بشکل أکبر من الرجل لأن تعاملها مع الأطفال بشکل مباشر یتطلب ذلک.

لأجل ذلک جهز اللّه تعالی النساء بکل تلک الإمکانات و لم یزودها للرجال لأن لکل واحد منهما مهام تختلف عن الآخر و أحدهما یکمل الآخر و لا یتضاد أو یتقاطع معه لبناء أسره أساسها الموده و الرحمه لبناء المجتمع الفاضل الراقی وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْها وَ جَعَلَ بَیْنَکُمْ مَوَدَّهً وَ رَحْمَهً إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۲۱)، (الروم: ۲۱). و لأجل ذلک أیضا نبه تعالی عن تلک الآلام التی تعانیها المرأه عند الحمل و الوضع و غیره و التی أثبت علمیا أنها أقوی أنواع الآلام من بین کل أنواع آلام الأمراض الأخری التی تحصل للبشر فی کتابه الکریم و سماه (و هنا) بل و شدّد فقال (وهنا علی وهن)، و فی الآیه الأخری بلفظ (کرها) و هذا کله تبیانا لشده التعبیر عن الألم و معاناته، بقوله سبحانه و تعالی وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَیْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلی وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِی عامَیْنِ أَنِ اشْکُرْ لِی وَ لِوالِدَیْکَ إِلَیَّ الْمَصِیرُ (۱۴)، (لقمان: ۱۴).. وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَیْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ کُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ کُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتّی إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِینَ سَنَهً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلی والِدَیَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَصْلِحْ لِی فِی ذُرِّیَّتِی إِنِّی تُبْتُ إِلَیْکَ وَ إِنِّی مِنَ الْمُسْلِمِینَ (۱۵)، (الأحقاف: ۱۵). فلم یبین القرآن الکریم فی کل آیاته ترکیزا علی حاله ألم لمرض قدر ترکیزه علی ألم الوضع. بل أن المرأه التی تموت فی الولاده تعتبر شهیده، لذلک ذکرت أحادیث کثیره للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم فی الأم تبین لک منزلتها فی الإسلام. و یا لها من منزله جعلت الجنه تحت قدمیها، و جعلت منزله الأم مقدمه علی منزله الأب بثلاثه أضعاف. ففی صحیح مسلم (البر و الصله و الآداب ۴۶۲۲) عن أبی هریره قال: قال رجل یا رسول اللّه من أحقّ النّاس بحسن الصّحبه، قال صلّی اللّه علیه و سلّم:

(أمّک ثمّ أمّک ثمّ أمّک ثمّ أبوک ثمّ أدناک أدناک).

۱۶. أثبتت البحوث الطبیه أن الجنسین یستمران بفروقهما بعد البلوغ و الکبر، بل و یتطور الأمر إلی نشوء الخلاف الحقیقی بین الجنسین جسدیا و عضویا و نفسیا. فی

الذكور تبدأ الخصيه بإفراز هرمونات جنسيه ذكريه المعروفه بالأندروجين، أهم ما فيها التيستوستيرون (الذى ذكرنا السبق القرآنى حول تأثيره فى النظام الهرمونى فى سوره مريم فى كتاب الطب من هذه السلسله) الذى يسبب العديد من التأثيرات الجسديه المسئوله عن كل الخصائص الذكوريه للذكر، و هكذا تحصل مجموعه من الظواهر الجنسيه الثانويه كنمو الذقن و شعر الصدر فضلا عن عمق الصوت، كما يعزى للتيستوستيرون النمو السريع الذى يحصل فى هذا السن. هذا النمو يحصل متأخر لدى الذكور لكنه يدوم فتره أطول مما لدى الإناث، و يتجسد ذلك بنمو أشد وضوحا فى تركيبه العضلات و قوه الأطراف السفليه التى يعتمد عليها نمو الشباب أطول من الفتيات. كما أن توزيع الدهون لدى الرجال يختلف بحيث يذهب السواد الأعظم منه للمعده و الجزء الأعلى من الجسم.. بينما الفتاه عند بلوغها تبدأ بإفراز هرمونات جنسيه هى الإستروجين من مبيضها، و التى تأثيرها عن تأثير التيستوستيرون بحيث تنمى المبيض و الرحم و تدفع الإباضه الأولى. و يعتبر الإستروجين المسئول أيضا عن الشكل الأنثوى الذى يتميز باتساع الحوض و ضيق الكتفين. كما و تختلف المرأه فى توزيع الدهون و كميتها، إذ يحتوى جسم المرأه على ضعف ما يحتويه الرجل من الدهون و يذهب أغلبه للفخذين و الردفين. كما و يحوى جسم المرأه على صنف آخر من الهرمونات الجنسيه هو البرجيستيرون الذى يكون فعالا خلال المرحله الثانيه من دوره مبيضها أى بعد كل إباضه فيتولى نمو النهدين و بدء المحيض.

١٧. الناحيه المرضيه: أثناء حياتهما سيتعرض الرجل و المرأه للأمراض، و لكن لكل جنس مكامن ضعفه، فالرجل أكثر تعرضا لأمراض القلب من المرأه بمعدل الضعف، ذلك ان التيستيرون يؤدى إلى تنميه ما يعرف بالكوليستيرول السيئ تأثيره على جدران الأوعيه الدمويه، بينما يعمل الأستروجين لدى المرأه على تنميه ما يعرف بالكوليستيرول الجيد الذى يتولى تنظيف الأوعيه الدمويه. إلا أن المرأه تتوقف عن إنتاج الأستروجين بعد سن اليأس مما يجعلها معرضه لأمراض القلب بمعدل النسبه ذاتها لدى الرجل.

١٨. الفروق السلوكيه عند الكبر: لا يستطيع الرجال التعبير عن عواطفهم فيلقون ما

تحویه جعبتهم مره واحده، بینما النساء یستخدمن المحاوره و الکلام غیر المباشر مما یجعلها قادره علی التحکم فی الحدیث کما ترغب و هی عند ما تتحدث تستخدم الابتسامه أو الحرکات لتعبر عن التعجب أو الغضب. و المرأه تتحدث أکثر من الرجل و تقرأ أسرع منه. الرجال یلجئون إلی الدعابه أکثر من النساء للتأثیر علی الآخرین فی حین تلجأ المرأه بالتعبیر بالوجه و الجسم للتأثیر علی الآخرین. یفضل الرجال النظر إلی الأشکال ذات الزوایا الحاده فی حین تفضل النساء النظر إلی الأشکال الدائریه مثل شکل القلب.

۱۹. فروق فسیولوجیه و ترکیبیه: عند تناول الرجل وجبه من النشویات یشعر بالهدوء فی حین تشعر المرأه بالنعاس، و یصاب ۴٪ من الرجال بعمی الألوان. الکرات الدمویه البیضاء لدی النساء أکثر من الرجال و جهاز المناعه لدیها أقوی. و المرأه أقل إصابه منه بأمراض القلب و قرحه المعده، کما أن حجم معدتها أکبر من معده الرجل، و هی تحرق الأوکسجین أسرع من الرجل حیث تزید و تنقص نسبه کریات الدم الحمراء مما ینتج عنه سرعه إغمائها. و یدق قلب الرجل فی المتوسط ۷۲ دقه لکل دقیقه بینما المرأه یدق قلبها أکثر من الرجل لکل دقیقه. جسم الرجل فی المتوسط یحتوی علی ۲۰ قدما مربعا من الجلد أما جسم المرأه فیحتوی علی ۱۷ قدما مربعا من الجلد.

۲۰. الفروق فی الذکاء و وظائف الدماغ: رغم أن الدماغ مسئول عن کل ما سبق من فعالیات جسمانیه أو وظیفیه، نقول أن المسأله فیها بحوث تفصیلیه تبین الفارق بین دماغ الجنسین فی سبل تنظیمهما و أسالیب عملهما رغم تساوی نسب الذکاء بینهما و تشابه الشکل العام فیهما. فقد قام علماء من جامعه ولایه نیویورک فی بافالو فی الولایات المتحده بإجراء تجارب علی ۱۷ ولدا و ۱۸ بنتا تتراوح أعمارهم بین ۸-۱۱ عاما، لدراسه کیف تتغیر موجات الدماغ فی جزءیه عند القیام بعملیه التعرف علی تعابیر وجوه معینه عرضت علیهم، و وجد العلماء أن کل جنس استخدم جزءا من الدماغ یختلف عن الجزء الذی استخدمه الجنس الآخر فی معالجه المعلومات. و یعتقد العلماء أنه من المحتمل أن الأولاد تعرفوا علی تعابیر الوجوه بطریقه عامه، و هی مقدره مرتبطه بالجزء الأیمن من الدماغ، بینما عالجت

الفتیات معلومات التعرف علی تعابیر الوجه بطریقه خاصه، و هی قدره مرتبطه بالجزء الأیسر من الدماغ... أما مخ الرجل فیزید وزنه عن مخ المرأه بمقدار ۱۰۰ غرام و نسبه وزن مخ الرجل لجسمه تعدل ۴۰/۱ بینما نفس النسبه عند المرأه تعدل ۴۴/۱. و یقول الباحثون أنهم وجدوا تخزین المعلومات یختلف فی الرجل عما هو فی المرأه، و هو ما یفسر تفوق الرجل عن المرأه فی عالم الاختراعات و الابتکارات، بل أن جمیع التخصصات فی الفنون و الأعمال الخاصه بالمرأه کالطبخ و الأزیاء زاحم الرجال بها النساء و تفوقوا علیهن. أما فی حاله الدماغ لمراحل النشاط الذهنی المتقد فقد تم الإثبات بالبحوث و التجارب و المراقبه أن حقل الذاکره فی دماغ الرجل أکبر حجما منه فی دماغ المرأه، و هنا یتجلی أمر اللّه تعالی بجعل الشهاده برجلین، فإن تعذر فرجل و امرأتان کی تذکر إحداهما الأخری إن هی نسیت، یقول تعالی فی البقره (۲۸۲): یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا تَدایَنْتُمْ بِدَیْنٍ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی فَاکْتُبُوهُ وَ لْیَکْتُبْ بَیْنَکُمْ کاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لا یَأْبَ کاتِبٌ أَنْ یَکْتُبَ کَما عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْیَکْتُبْ وَ لْیُمْلِلِ الَّذِی عَلَیْهِ الْحَقُّ وَ لْیَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَ لا یَبْخَسْ مِنْهُ شَیْئاً فَإِنْ کانَ الَّذِی عَلَیْهِ الْحَقُّ سَفِیهاً أَوْ ضَعِیفاً أَوْ لا یَسْتَطِیعُ أَنْ یُمِلَّ هُوَ فَلْیُمْلِلْ وَلِیُّهُ بِالْعَدْلِ وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِیدَیْنِ مِنْ رِجالِکُمْ فَإِنْ لَمْ یَکُونا رَجُلَیْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَکِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْری وَ لا یَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَکْتُبُوهُ صَغِیراً أَوْ کَبِیراً إِلی أَجَلِهِ ذلِکُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَهِ وَ أَدْنی أَلاّ تَرْتابُوا إِلاّ أَنْ تَکُونَ تِجارَهً حاضِرَهً تُدِیرُونَها بَیْنَکُمْ فَلَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ أَلاّ تَکْتُبُوها وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبایَعْتُمْ وَ لا یُضَارَّ کاتِبٌ وَ لا شَهِیدٌ وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِکُمْ وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ یُعَلِّمُکُمُ اللّهُ وَ اللّهُ بِکُلِّ شَیْ ءٍ عَلِیمٌ (۲۸۲)... أما فی حاله الکبر و الشیخوخه فإن المرأه المسنه تبدی مطوله أکبر من الرجل المسن فی نواحی وظیفیه عدیده للدماغ، فقد أثبتت الدراسات أن النساء یمضین سنین أطول بعقل سلیم و ذکاء یحسدن علیه، و جاء فی الدراسه التی أجریت لمصلحه جامعه لیدن فی هولندا و شملت ۵۹۹ شخصا تتجاوز أعمارهم الخامسه و الثمانین، أن النساء المسنات أسرع استجابه و عقولهن أکثر

حده. كذلك أظهرت الدراسه أن النساء المسنات يتفوقن على الرجال المسنين فى القدره على استعاده الماضى و التذكر. و العجيب كما ذكرت الدراسه أن ٧٠٪ من المستطلعات لم ينلن تعليما عاليا و على الرغم من ذلك سجل نتائج عقليه أفضل من الرجال، و عزا الخبراء السبب فى ذلك إلى أن دماغ المرأه مهيأ ليعمل لمده أطول لأنها تعيش عمرا أطول. و أفادت نتائج بحث آخر لنفس الفئه العمريه روعى فيه أن النساء المبحوثات أقل تعليما من الرجال أن قدره النساء المسنات العقليه أفضل مما هى لدى الرجال المسنين، و يرجع ذلك إلى كونهن أقل عرضه للإصابه بالنوبات القلبيه مما يجعل تدفق الدم إلى أدمغتهن أيسر. كما أجرى الخبراء فى هذا البحث اختبارا لمعرفه سرعه التفكير و القدره على التذكر لدى المبحوثين فحقق نسب أعلى فى اختبارات سرعه الفهم و القدره على الاحتفاظ بذاكره قويه، و تبين أن سرعه الفهم كانت ٣٣٪ لدى النساء مقابل ٢٨٪ لدى الرجال، و قد عزى ذلك لأمور عضويه تتعلق بالغياب النسبى لأمراض الشرايين عند النساء(١).

و بعد، و رغم كل تلك النتائج الواضحه و الصيحات المخلصه لا زالت دعوى الجندر تلقى رواجا فى مجتمعاتنا الإسلاميه فارتفعت نبره الحديث عن الاضطهاد للمرأه و وجوب حصولها على حقوقها كامله، و لا ندرى ما ذلك الكمال فى الحقوق و إلى أى حد يصل؟!.

كما وصلت الدعاوى إلى حد ضروره إيجاد اتحاد عالمى يوجد هويه جديده فوق القوميات و الاختلافات كى تتحدث نساء العالم عن أنفسهن، و عملت الأفلام السينمائيه و التمثيليات التلفازيه و الاجتماعات و المؤتمرات الدوليه و صرفت الملايين من الدولارات على كل هذا دون الالتفات إلى حقيقه الداء و الانصراف لعلاجه بهدوء و دون تعصب أو تزمت لا يؤدى إلا إلى تباعد الهوه بين المشكله و علاجها، و كأن المسأله حرب شعواء بين الجنسين، و ليس تكامل و تعاضد و تعاون.

و هكذا و كخلاصه من هذا البحث فإننا نرى أن الإسلام أعطى للمرأه و الأسره قيمه عظيمه لم يعطها أى دين سابق و لا شريعه و لا قانون أرضى، فهى لها القيمه الماديه).

١- هذه التفاصيل منقوله بتصرف عن ملف علمى متكامل أعدته مجله الأسره السعوديه، العدد ١٢٤، رجب ١۴٢۴ ه، ص (٢٢-٣۶).

العظمی المتمثله بالـذهب کمـا لهـا القیمه الاعتبـاریه الجلیله إذ أنهـا تربی الأجیـال و تحفـظ النسـل فهی تمثل العمود الفقری فی الحیاه و مثلها کمثل الـدره المحفوظه فی لوح زجاجی یمنع لمسـها إلا لصاحبها. و علی هـذا الأساس تآمر الغرب و علی رأسـهم الیهود علی مکـانه المرأه فی أمتنـا و أوهموا ضـعیفات الإیمـان بـأن نزع الحجاب و لبس اللئالئ و التزین و السـفور و الإتیکیت و الموضه و معارضه الوالـدین و الاختلاط و المساواه مع الرجال کل ذلک من باب التحضـر، کما أوهموهن بأن ضـروره إیجاد ال "حبیب" لهن هو من دواعی الشخصیه الحدیثه المتطوره و الاستقلال فی التفکیر، و ان الخلق و الحشمه و التصرف السلیم المبنی علی الشریعه و الدین فی کل مجالات الحیاه هو من دواعی الرجعیه و التخلف، ألا ساء ما یحکمون.

قال مسئول غربی "لا تسـتقیم حاله الشـرق ما لم یرفع الحجاب عن وجه المرأه و یغطی به القرآن" أی لن یستطیع الغرب الحاقد السـیطره علی الشـرق المسـلم حتی تزیح المرأه المسلمه الحجاب عن وجهها و تنبذ کتاب اللّه وراء ظهرها(۱)... و هذا ما أرادوه لنسائنـا و مجتمعاتنـا و اسـتجاب لهم الکثیرون مخـدوعین تـاره و مطیعین تـاره و مقلـدین تـاره أخری بینما رفض هـذه (العولمه) القـدیمه النسـاء المؤمنـات و العوائل المؤمنه، و لهؤلاء المساکین المقلـدین نقول إنکم بهـذا اشترکتم لیس فقط بجریمه إغضاب رب العـالمین و ترک الشـرع الحنیف و إنمـا أصـبحتم مشترکین فی جریمه هـدم مـا بنته أجیـال و أجیال من خلق عظیم و تعالیم سامیه و دفعت بسببه دماء زکیه طاهره کثیره علی مدی أکثر من ۱۳۰۰ عام.

لنری الوجه الحقیقی للإسـلام من خلال مـا قـالته نسـاء غربیـات، ففی مقـابله أجرتها مجله الوطن العربی (العـدد ۳۱۴) مع امرأه فرنسـیه متخصـصه فی الفن الإسلامی ناذیه أوبریی قالت: "وجدت المرأه المسلمه (العربیه) محترمه و مقدره داخل بیتها أکثر من الأوربیه و أعتقد أن الزوجه و الأم العربیتین تعیشان سـعاده تفوق سـعادتنا" .ثم توجه النصح للمرأه المسـلمه قائله "لا تأخذی من العائله الأوربیه مثالا لک لأن عائلاتنا هیث.

۱- مقتطفات من کتاب اللئالئ الحسان من روائع الکلم و البیان، محمد عبد العزیز المسند، الجزء الثالث.

أنموذج ردىء لا يصلح مثالا ليحتذى".

و فى مقابله أخرى أجرتها مجله صدى الأسبوع "مع براونين ميزاك ايفانز - إنجليزيه أعلنت إسلامها فى البحرين - كان من الأمور التى دفعتها إلى اعتناق الإسلام هو مكانه المرأه فى الإسلام و كذلك تركيبه الأسره المسلمه حيث قالت" المرأه المسلمه دائما فى حمايه و رعايه، تجد من يعيلها أينما حلت، و هى جزء هام من المجتمع الإسلامى..

جو عائلى تفتقده الكثير من الأسر الغربيه الأب و الأم ثم الأولاد و بعدهم الأقارب..

العائله المسلمه كأنها مملكه واسعه الأطراف، أما العائله الغربيه فإنها تقتصر على رجل و امرأه فقط، طرفين لا توابع تخلفهما، أما فى الإسلام فلا يوجد و سيط بين الإنسان و ربه"(١).. و القصص من هذا القبيل أكثر من أن تذكر فى هذا الكتاب، و منها قصه القسيس إسحاق المصرى نائب البابا البروتستانتى الذى أسلم و سمى نفسه إبراهيم و فصلّ قصه إسلامه فى محاضره شيقه(٢).

فى محاضرته الرائعه «قصه الإيدز الكامله»، يقول الدكتور عمر عبد الستار عن موضوع الحجاب بعد أن يعرض صور عديده تتعلق بالموضوع و تخص تشخيص المسأله الطبيه لمرض الإيدز، و عند ما يصل إلى الصوره أو السلايد الخاص بالبويضه يقول: انظروا روعه هذا الشكل و ما حوله من غشاء، هذا الغشاء الرقيق الجميل هو حجاب للبيضه فكل شىء أنثوى خلقه اللّه تعالى جميلا و رقيقا محفوظا عن الذكر بحجاب لا يسمح لأحد أن يخترقه إلا واحدا فقط، فهذه البويضه يلاحقها ملايين من الحيوانات المنويه و لا يخترق الغشاء أو الحجاب هذا و لا يسمح بذلك إلا لواحد فقط، ثم يغلق الحجاب نهائيا.. هذا الأمر مشمول به كل شىء أنثوى فى الكون إلا نساء هذا العصر الذين ارتموا بوحل الحضاره الزائف.

و لنعد الآن إلى الآيه المباركه زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَهِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّهِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَهِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياهِ الدُّنْيا وَ اللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١۴)، (آل عمران: ١۴)، كيف أنهان.

١- نفس المصدر السابق.

٢- المحاضره مسجله فى شريط كاسيت، نشر فى بدايه تسعينات القرن العشرين.

ربطت الشهوات بالتسلسل فإذا بالمرأه التى هى أقوى الشهوات للرجل تصبح بمساعده القناطير المقنطره من الذهب و الفضه المطحنه و الجاروشه التى تطحن الرجال و الأمم، و هذا ما كان فى تاريخ البشريه و فى حاضرها و فى مستقبلها إلا ما رحم ربى. و من أراد التخلص من هذا الإعصار الجارف و التيار الهائل الذى لم يرحم و لن يرحم أحد فما عليه إلا التمسك بزورق النجاه الذى هو فى حمى ملك الملوك ألا- و هو الإسلام الحنيف الذى يعطى الجميع حقوقهم دون استثناء و لا- يهمه فى ذلك تعليقات الجهال و الفسقه و السفهاء فهؤلاء هم المحرقه التى تتقد فيها نيران هذه الفتن(۱).

منزله الوالدين فى الإسلام:

أما عن الوالدين و احترامهما فإنه لا يوجد تشريع أرضى أو سماوى أعطى لهما أهميه قدر اهتمام الإسلام بهما، فيكفى أن القرآن الكريم قد قرن فى غير موضع الإشراك باللّه بعقوقهما * وَ قَضى رَبُّكَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا- تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا- تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (۲۳) وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَهِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (۲۴) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوّابِينَ غَفُوراً (۲۵)، (الإسراء).. هذه الآيه تحديدا عند ما قرأها الأمير تشارلز الشخصيه البريطانيه المعروفه و أمير ويلز تغيرت نظرته تماما عن الإسلام، فامتدحه بخطبه مشهوره أمام البرلمان البريطانى عام ۱۹۹۶ م.

و بعد خير الكلام كلام اللّه يأتى خير الهدى هدى رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم فى مسأله الوالدين، و قد جعل بر الوالدين مفضلا على الجهاد فى سبيل اللّه و هو ما قاله صلّى اللّه عليه و سلّم للصحابى الذى أراد الجهاد «أ لك والدان»، قال نعم، قال صلّى اللّه عليه و سلّم «ففيهما جاهد»، و عن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه أنّ رجلا سأل النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أىّ الأعمال أفضل قال «الصّلاه لوقتها و برّ الوالدين ثمّ الجهاد فى سبيل اللّه»، و فى حديث قلت يا نبىّ اللّه أىّ الأعمال أقرب إلى الجنّه قال «الصّلاه على مواقيتها قلت و ما ذا يا نبىّ اللّه قال برّ الوالدين قلت و ما ذا يا نبىّ

۱- المنظار الهندسى للقرآن الكريم، للمؤلف، ص (۵۷۲-۵۸۲)، بتصرف.

اللّه قال الجهاد فی سبیل اللّه».

و بعد فهذا غیض من فیض رحمه الإسـلام الشامله لکل خلق اللّه تعالی و التی لم تتمیز بشـمولیتها و خصائصها أیه حضاره أخری باعتراف کبار منظری و مستشـرقی الغرب و تلک مقارنه بسـیطه لأجل وضع القارئ الکریم بالصوره المطلوبه للدخول فی قوانین القرآن الکریم فی الحضارات.

ص: ۶۴

الفصل الرابع: بعض دلائل الرقی فی السلوک الاجتماعی فی الإسلام

یبنی الإسلام مجتمعا عاملا- غیر خامل و لا- کسول، متکلا غیر متواکل، خلوقا غیر منحرف، عادلا غیر متطرف. للرجل دوره، و للمرأه دورها، و الکل راع و مسئول عن رعیته. الفساد و الانحراف بکل أشکاله و ما یؤدی إلیه مرفوض لأن اللّه تعالی لا یحب الفساد.

و الإسلام یحث علی العمل و النجاح و الکد و عدم الرکون للکسل و الفشل و الإحباط، و فی هذا تفصیل کبیر، و لعلنا ذکرنا بعض الآیات و الأحادیث الداله علی العمل خلال هذا الکتاب و غیره(۱).. و لقد أثبت العلم الحدیث أن النجاح فی العمل هو من أحد أسرار إطاله الأجل، و لعل العمل الصالح علی رأس هذه الأعمال لما یوفره من شحنه طاقه للخیر تعم النفس فتجعل منها شعله للخیر و الإنجاز.. و ما الأحادیث الداله علی شروط حسن الخاتمه و التی تتعهد بتوفیرها لأهل العمل الصلح مثل الإخلاص و بر الوالدین و صله الرحم و حسن الخلق و السریره و غیرها لتدل علی هذا المفهوم من بابه الواسع، و صدق الصادق الأمین الذی بین فی الحدیث الصحیح الذی یرویه أهل السیر و منهم البخاری و مسلم و أبی داود و غیرهم أن العمل الصالح و علی رأسه صله الرحم هو من شروط طیب الرزق و طول العمر و بقاء الأثر، فقد روی البخاری فی البیوع (۱۹۲۵) عن أنس بن مالک رضی اللّه عنه، سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقول (من سرّه أن یبسط له فی رزقه

۱- یمکن للقارئ الرجوع لکتب مهمه فی هذا مثل کتاب (صناعه الحیاه) للأستاذ الجلیل محمد احمد الراشد، و کتاب (الهمه طریق إلی القمه) للأستاذ محمد بن حسن بن عقیل بن موسی، أو یدرس سیر الأماجد و العمالقه لهذه الأمه و غیرها، أو یتابع برنامج صناعه النجاح (للأستاذ الدکتور طارق السویدان)، أو صناع الحیاه للأستاذ (عمرو خالد)، و غیرها من مشاریع إحیاء فقه الدعوه و النهوض بالأمه.

أو ينسأ لّه فی أثره فليصل رحمه)..

و لقد بينت البحوث الحديثه صدق هذا السبق الإسلامی، فی بحث أجری مؤخرا تبين أن نجاح المرء فی عمله و حياته من أهم أسباب زياده العمر و طيب الرزق.. يقول أحد المشتركين فی البحث: (لما ذا يعيش بعض الناس لفتره أطول من غيرهم؟ هذا السؤال شغل بال الكثيرين لعده أجيال. و فی كثير من الأحوال تبدو الإجابه واضحه: اتباع نظام غذائی جيد و رعايه صحيه جيده و عدم الإصابه بالكثير من الأمراض. لكن بالنسبه لآخرين فإن السبب يشوبه الكثير من الغموض. فلما ذا، مثلا، يعيش رجل يابانی أربع سنوات أكثر من البريطانی؟ و لما ذا تتوفی سيده تعيش فی مانشستر قبل ثلاث سنوات من سيده تعيش فی ظروف مماثله لكن فی لندن؟. و لما ذا يطول عمر رجل يعيش فی غرب لندن ست سنوات عن رجل يعيش فی شرق لندن).

وضع العلماء مجموعه من الأسباب على مدى السنوات تتراوح بين أسلوب الحياه و الاختيارات التی يقوم بها الإنسان مثل التدخين، و بين الجينات. إلا أن كتابا لسير مايكل مارموت بروفيسور علم الأوبئه و الصحه العامه فی جامعه يونيفيرستی كوليج لندن، يوفر إجابات مختلفه لهذه الأسئله. و قام مارموت بدراسه الاختلافات بين طول الأعمار لمده ثلاثه عقود. و فی الستينات أجری ما أصبح يعرف الآن باسم دراسه وايتهول، و هی دراسه على صحه الموظفين الحكوميين فی لندن. و خلصت الدراسه إلى أن صحه موظفی الحكومه ترتبط بعلاقه وثيقه بدرجتهم الوظيفيه فی الحكومه. و أن الموظفين الذين يحتلون مناصب كبرى يتمتعون بصحه أفضل. و خلصت دراسات أخرى إلى نتائج مماثله فی جماعات اجتماعيه مختلفه مثل الأكاديميين و الحاصلين على جوائز أوسكار.

فقد خلصت الدراسات إلى أن الحاصلين على درجه الدكتوراه يعيشون أطول من الحاصلين على درجه الماجيستر، و الذين يعيشون بدورهم فتره أطول من الحاصلين على شهاده جامعيه، و الذين يعيشون أطول ممن لم يكملوا دراستهم الجامعيه. و بالصوره نفسها، فإن الممثلين الحاصلين على جائزه أوسكار يعيشون متوسط ثلاث سنوات أطول من الذين رشحوا للحصول على الجائزه دون أن يحصلوا عليها بالفعل.

و يعتقد مارموت أن هذه النظريه يمكن تطبيقها على أی جماعه فی المجتمع بدءا من السياسيين إلى الذين يعيشون تحت خط الفقر. و يصر على أن الصحه العامه و طول

العمر يتأثر بدرجه كبيره بمكانه الإنسان فی المجتمع. و أطلق مارموت علی هذا اسم "عرض الوضع الاجتماعی" و هو نفس الاسم الذی أطلقه علی کتابه. و یقول: "الدلیل دامغ. و یشیر إلی أن تبوأ منصب اجتماعی مرموق یؤدی إلی تحسن الصحه. و الذین یحتلون قمه الهرم الاجتماعی یعیشون أطول." و یعتقد مارموت أن الوضع الاجتماعی ربما یکون أهم من النظام الغذائی المتبع و الرعایه الصحیه. و یقول: "یعتقد الناس أن طول العمر یتحدد إما بالرعایه الصحیه و التدخین أو النظام الغذائی المتبع." ..هذه الأمور مهمه أیضا لکن الدلیل یظهر أنها مجرد جزء من الصوره الکامله. "و یقول مارموت إن موقعنا فی الهرم الوظیفی یتأثر بأمرین: الدرجه التی نسیطر بها علی حیاتنا و الدور الذی نلعبه فی المجتمع و یسأل:" هل یشعرون بأنهم یسیطرون علی حیاتهم و یتمتعون بفرص تمکنهم من التواصل الاجتماعی الکامل؟ "..و یبدو أن المال لیس له تأثیر کبیر، و یقول مارموت:" المزید من المال لا یعنی صحه أحسن. المال حد ذاته لیس مهمّا. "و ربما تفسر هذه النظریه السبب فی أن الحیاه فی بعض الدول الفقیره نسبیا مثل الیونان و مالطه أطول منها فی المملکه المتحده أو الولایات المتحده.

و یعتقد مارموت أن منح الناس المزید من السیطره علی حیاتهم و ضمان أن یلعبوا دورا کاملا فی المجتمع سیعزز صحتهم و یزید من أعمارهم و یوصی بأن تعمل الحکومه علی ضمان أن یحصل جمیع الأطفال علی تعلیم جید، و أن یحصل العمال علی المزید من السیطره علی حیاتهم و ألا تعتبر المسنین مجرد" کومه من العظام ".کما یوصی بضروره أن یبذل المزید من الجهود لضمان أن یشعر المواطنون بأنهم جزء من مجتمعاتهم.

الفساد کل اضطراب فی النوامیس الإلهیه ماديه کانت أم معنویه، فی البر و فی البحر، للزرع و الضرع، للحرث و النسل، للإنسان و الحیوان، فی الخلق و السلوک کما فی المجتمعات و الدول. للفساد هذا أشکال عده فصلها القرآن الکریم بما یأتی:

۱. وَ إِذا تَوَلّی سَعی فِی الْأَرْضِ لِیُفْسِدَ فِیها وَ یُهْلِکَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللّهُ لا یُحِبُّ الْفَسادَ (۲۰۵) (البقره: ۲۰۵).

۲. فَلَوْ لا کانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِکُمْ أُولُوا بَقِیَّهٍ یَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِی الْأَرْضِ إِلاّ قَلِیلاً مِمَّنْ أَنْجَیْنا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِینَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِیهِ وَ کانُوا مُجْرِمِینَ (۱۱۶) (هود:

۲. فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِى الْأَرْضِ إِلاّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ (۱۱۶) (هود:

۱۱۶).

۳. وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (۷۷) (القصص: ۷۷).

۴. ظَهَرَ الْفَسادُ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِى النّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۱) (الروم: ۴۱).

۵. وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّى أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الْأَرْضِ الْفَسادَ (۲۶) (غافر: ۲۶).

من أهم ما حذر الإسلام منه هو الانكباب على الدنيا و ملذاتها، و جعلها القيمه الأساسيه لفلسفه الوجود، فهى رأس كل فتنه و فساد. على عكس الحضاره الغربيه التى جعلت من الدنيا أساس كل شىء، و دونها يهون كل خلق و تموت كل فضيله. فكان الفكر الغربى ربيب الفكر اليهودى يدعو دائما إلى شيوع الغرائز كالجنس و التسلط و القتل و النفوذ و التعصب الأعمى، و أساس كل ذلك اللهث وراء المال، إله اليهود الذى أشرب فى قلوبهم بعد ما عبدوا العجل المصنوع من الحلى الذى سرقوه من المصريين القدماء، رغم كل المعجزات الإلهيه التى أعطاها اللّه تعالى لنبيه موسى عليه السّلام لعل هؤلاء القوم يفقهون حديثا، إلا أن قلوبهم أصبحت أقسى من الحجاره، فماتت قلوبهم و ضمائرهم فهم كالأنعام بل هم أضل.

و لأن هذا الفكر المسخ يعلم مدى تأثير النساء، شجع هؤلاء الحيوانات البشريه الجنس و التحلل و الشذوذ الجنسى، و جعل المرأه جسد يباع و يشترى تحت تعريف واحد هو (الحب) بين الجنسين الذى يجب أن يقدس و لا يمس بأى سوء. و ما هو فى الواقع إلا الجنس بعينه و تحلل المجتمع و تدمير فكره و سلوكه كى يسهل السيطره عليه كما جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون، و مع الأسف طبق فى مجتمعاتنا الإسلاميه:

۱." إذا أردت أن تدمر مجتمعا فانشر فيه الفساد".

۲." إذا أردت أن تدمر أمه فسلمها بيد جهالها "،و معلوم أن الجهال أكثر

الناس استجابه للشهوات.

۳." إذا أردت أن تدمر جيشا فسلمه بيد المدنيين "،و معلوم ما للجيش فی الأمه و الوطن من اهميه فتدميره داخليا يكون من أناس لا يفهمون فی الترتيبات العسكريه و هم المدنيون.

۴." كأس و غانيه تدمر أمه محمد".

و رغم أن اللّه تعالی قد حذرنا من هذه الأمور بقوله جل و علا: زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَهِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّهِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَهِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياهِ الدُّنْيا وَ اللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (۱۴) (آل عمران: ۱۴). إلا أننا ركضنا وراء دعاوی هذا الفكر و اعتبرنا أن هذا كله من دواعی الحضاره و التطور، و ما هو إلا الفساد بعينه الذی حذرنا اللّه تعالی منه.

حول هذا الموضوع (موضوع الحب و الهوی) الذی تدور حوله كل ما يسمی بالأعمال الدراميه من تمثيليات و أفلام و مسلسلات و أغانی، حتی انهم إذا أرادوا أن يخرجوا فيلما تاريخيا مثلا حول شخصيه معينه أقحموا فيها دورا فيه عشقا و حبا. بل و أحيانا يزورون الأحداث بحجه الحبكه الدراميه ليضعوا فيها امرأه تعشق و تلبس الثياب (العاريه) لتغری و تفتن من يراها كی يقال أن هذا الأمر أمرا مقدسا حتی فی الأديان.

هذا ما عودوا عليه الأجيال منذ نشأه السينما و لحد الآن و ضحكوا بها علی الكثيرين. و هذا هو لعمری بالضبط ما تريده الصهيونيه و الماسونيه و مأجوريهم من المستشرقين و أدعياء الحضاره (الجاهليه) الغربيه و أصحاب القلوب و العقول الخاليه من كل شیء إلا من الهوی و الهوس بكل ما يدفع الإنسان إلی حيوانيه مقيته و قسوه أين منها قسوه الحجر و الصوان و هی بالتأكيد خاليه من محبه اللّه و رسوله و من الغيره المحمديه.. إذن الهدف واضح و هو أنهم أرادوا تدمير أجيال بكاملها و خلع محبه اللّه و رسوله من القلوب و وضع محلها محبه الهوی و النساء و النفس و النفوذ و الجاه و المال و كل الشهوات الأخری كی يسهل تحطيمها، و كان لهم ما أرادوا بفعل هؤلاء من يدعون أنهم فنانين، رغم أن الفن رساله ساميه تسمو بالفكر الإنسانی و تقومه و ترفع عنه كل معانی الرذيله و الانحطاط الخلقی.

لكنهم أرادوا به أمرا آخر، أى كلمه حق يراد بها باطل، فبدعوى الحب هذه يحققون ما يصبون إليه، فأنصت لهم دون تروى من كان بقلبه مرض، و هم أدعياء الفن هؤلاء المساكين الذين يتصورون انهم يحسنون صنيعا، و اللّه تعالى يقول:

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً (۱۰۳) اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياهِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (۱۰۴)، (الكهف).

و المصيبه أنهم إذا ما حاولت نصحهم و إرشادهم إلى الحق اتهموك بالجهل و الرجعيه و عدم مواكبه العصر و ما إلى ذلك من التهم، و قد تحقق فيهم قول اللّه تعالى:

وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۶) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۷)، (لقمان)، أى و من الناس من يشرى ما يلهى عن طاعه اللّه و يصد عن سبيله، مما لا خير و لا فائده فيه، قال الزمخشرى: و اللهو كل باطل ألهى عن الخير، نحو السمر بالأساطير و التحدث بالخرافات المضحكه، و فضول الكلام و ما لا ينبغى، و روى ابن جرير عن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه انه سئل عن الآيه فقال: و اللّه الذى لا إله إلا هو - يكررها ثلاثا - إنما هو الغناء، و قال الحسن البصرى نزلت هذه الآيه فى الغناء و المزامير(۱). و هذا أيضا تفسير الكشاف و الطبرى و ابن كثير.

و الأدهى و الأمر انهم ينسبون هذا إلى اللّه تعالى و يقولون أن نجاحنا و شهرتنا بفضل اللّه - حاشا للّه - وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَهً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اللّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۲۸)، (الأعراف: ۲۸)، فسبحان اللّه عما يصفون و تعالى اللّه علوا كبيرا فأولئك و أمثالهم قال اللّه عنهم اَلَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (۱۰۱)، (الكهف: ۱۰۱).

و قد سئل الدكتور عبد الملك السعدى حول الفتوى فى هذا الأمر فرأيت أن انقله بالكامل لما فيه من الفائده:

السؤال: ما هو حكم الشريعه فى الغناء من الرجل و المرأه و ما حكم الموسيقى المقترنه۸.

۱- صفوه التفاسير، محمد على الصابونى، ج/ ۲، ص ۴۸۷-۴۸۸.

به أو منفرده عنه؟ الجواب: هذا السؤال ذو شقين الغناء و المغنى.

أولا: الغناء الغناء... كلام منظوم حسنه حسن و قبيحه قبيح.

فالحسن.. هو المدح المعتدل، و الرثاء بدون مغالاه، و الشعر الحماسى الباعث على البطوله كما سنذكر من غناء يوم بعاث(۱) ، و ما فيه من حث على الخير و العمل الصالح، و الشعر الوطنى المحبب للوطن و للحفاظ عليه، و مدح البارى جل شأنه و دعاؤه، و مدح النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و إخوانه و أصحابه الصالحين دون مبالغه فهذا مباح يجوز التغنى به و سماعه.

القبيح.. ما فيه إثاره الفتنه أو إثاره الغريزه كالشعر الغزلى و ما فيه وصف النساء أو فيه غرام و حب و هوى جنسى فهذا يحرّم التغنى به و سماعه.. و الأدله على ذلك:

منها قوله تعالى وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۶). و الغناء الماجن من لهو الحديث لا من خيره و حسنه. و منها قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «إن الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» رواه الترمذى و الإمام احمد. و ما ينبت النفاق يحرم قوله و سماعه..

و من ذلك نهيه صلّى اللّه عليه و سلّم عن بيع و شراء القينات، أى الجاريات المغنيات. حيث يقول صلّى اللّه عليه و سلّم «لا تبيعوا القينات و لا تشتروهن و لا تعلموهن و لا خير فى تجاره فيهن و ثمنهن حرام» رواه الترمذى و الإمام احمد و ابن ماجه... و النهى عن شرائهن و تحريم ثمنهن دليل على تحريم فعلهن و قولهن، قد ورد بروايات متعدده و بطرق مختلفه حتى بلغ درجه الحسن لغيره و ان كان سند كل روايه فيها ضعف إلا أنها بمجموعها تبلغ درجه الحسن لغيره.۶.

۱- يوم بعاث: يوم مشهور عند العرب حدث فيه قتال بين الأوس و الخزرج دام مائه و عشرين عاما إلى ان من اللّه عليهم بالإسلام فانتهت. و بعاث موقع فى بنى قريظه وقعت فيه الواقعه/راجع العينى فى شرح البخارى، ۲۶۹/۶.

ثانیا: المغنی و هو إما ذکر أو أنثی: فالذکر.. یجوز أن یغنی للذکور إذ لا تحصل بصوته فتنه لهم إذا کان غناؤه من النوع الحسن.. و أما المرأه.. یجوز أن تغنی للنساء لأنه لا یحصل بصوتها فتنه لهن و لا سیما إذا کانت جاریه(۱) صغیره و کان الغناء من النوع الحسن.

فقد روی البخاری عن عائشه رضی اللّه عنها قالت: «دخل علیّ أبو بکر رضی اللّه عنه و عندی جاریتان تغنیان بغناء یوم بعاث فانتهرنی و قال (مزماره الشیطان عند النبی صلّی اللّه علیه و سلّم) فأقبل علیه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فقال (دعهما) فلما غفل غمزتهما فخرجتا» رواه البخاری (باب الحراب و الدرق یوم العید).

أما غناء الجنس لغیره، کأن تغنی المرأه للرجال أو للرجال و النساء أو الرجل للنساء کما فی الوسائل الصوتیه و المرئیه الآن فعلی من یری أن صوت المرأه عوره و هی روایه عن الإمام احمد و المرجوع عند الحنفیه و المشهور لدی الإمامیه فإنها آثمه إذا غنت و حرام الاستماع إلیها.. و أما علی من یری أنه لیس عوره و هم الجمهور ففیه تفصیل:

إن غنت بصوت مرقق و خاضع و فیه تلیّن و تمیّع تستمیل به الرجال و یحصل فتنه حرّم علیها الغناء، و ان أظهرته بشکل طبیعی و بصوت غلیظ و کان من النوع الحسن فلا أری مانعا من ذلک لأنه لا یثیر الغرائز و کذا حکم الاستماع إلیه إن استمع إلیه ببراءه و عدم طمع فلا مانع. و الدلیل علی ذلک قوله تعالی.. فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَیَطْمَعَ الَّذِی فِی قَلْبِهِ مَرَضٌ... ، (الأحزاب: من الآیه ۳۲)، و لم یقل و لا تقلن بل قال لا تخضعن بالقول، و بالنسبه للرجل جعل المحذور الطمع الذی فی قلبه و یعنی به الافتتان و الغریزه الجنسیه.

هذا التفصیل إذا خلا من المعازف أما إذا اقترنت به المعازف (کالموسیقی) المهیجه فانه حرام لغیره استماعه لاقترانه بمحرم.. و من أدله تحریم المعازف... ما روی البخاری - فی باب ما جاء من یستحل الحر - عن أبی مالک الأشعری انه سمع النبی صلّی اللّه علیه و سلّم یقول:

«لیکونن من أمتی أقوام یستحلون الحر - بکسر الحاء و تخفیف الراء أی الفرج - و الحریر و الخمر و المعازف».. و وجه الاستدلال به أن المعازف محرمه و استحلالها کفرب.

۱- الجاریه: هی العبده الصغیره دون البلوغ و سمیت بذلک لکثره جریانها بالذهاب و الإیاب.

و قد قرنها صلّى اللّه عليه و سلّم بالخمر و الحرير و الزنا. و كذا إذا ظهرت المغنيه على الرائى (التلفزيون) و هى متبرجه و وضعها مثير فانه حرام لغيره مطلقا.

و قد أخطأ من أطلق العنان لبعض الفنانات بالإباحه مطلقا و لو من على شاشات التلفاز و بشكل مثير و معه التبرج أو قال بإباحته مطلقا، و كذا من يفسر الحديث أعلاه بأن المراد أن يجتمع الكل فى آن واحد أى تحرم المعازف إذا كانت مقترنه بالخمر و الحرير و الحر فإنه لم يتذوق العربيه و لم يعرف أن الواو لمطلق الجمع و ليس (واو) حال أو (واو) معيه فقط، و كذا من طعن بإسناد الحديث بأنه معلق و يرفض ما قام به ابن حجر العسقلانى فى إثبات وصله و كل ذلك لأجل أن يرضى المجتمع على حساب غضب اللّه تعالى و رسوله. نعوذ باللّه من علم يسخر لمجاراه الناس و محاباتهم(١).

أما الدكتور عبد الكريم زيدان فيقول فى مفصله حول هذا الموضوع و بعد أن يفصل كل ما يخصه، و تاريخ نشوء الغناء و تطوره، و أساليبه، و ما ذهب إليه الأئمه و العلماء من مختلف المذاهب ما نتيجته:

و فى ضوء ما ذكرنا كله لا يبدو لنا سائغا سماع الغناء فى المذياع فى الراديو أو التلفزيون لما فيه من الفتنه الظاهره و لما يقترن به، مما يجعله محظورا على النحو الذى بيناه، لا سيما أغانى التلفزيون حيث تجتمع الصوره و ما فيها من فتنه و شبه عرى مع حركات المغنيه و ما فيها من فتنه و إثاره، و مع الصوت المفتن، و بالإضافه إلى ذلك كله فإن الغناء قلما تخلو ألفاظه و عباراته من الخنا و الفحش و وصف محاسن النساء و إثاره الشهوات، و كذلك الحال فى أغانى الذكور من صبيان مرد، و من شباب مخنثين، و من رجال متصابين. و فى ضوء هذا الواقع يمكن القول أن غناء المغنيات و المغنين فى الراديو و التلفزيون على النحو الذى وصفناه - و هو الواقع - لا يجوز، و إن الاستماع إليه لا يجوز لا سيما أغانى التلفزيون(٢).

الحقيقه العلميه: يقول الدكتور فائق السامرائى: إن للموسيقى تأثيرا علاجيا كما١.

١- جاءت هذه المقاله فى مجله التربيه الإسلاميه العدد السابع، السنه ٣٤ ذو الحجه ١٤١٩ ه، ١٩٩٩ م ص ٣٩٥-٣٩٧.

٢- المفصل فى أحكام المرأه و البيت المسلم فى الشريعه الإسلاميه، د. عبد الكريم زيدان، ج/ ٤، ص ٩١.

أثبتت البحوث الحديثه، فحاليا هناك الكثير من المعاهد العلاجيه فى دول عديده تأخذ بنظريه الموسيقى و العلاج النفسى بواسطه الموسيقى... يقسم شيكوفنسكى أستاذ الأمراض النفسيه و العصبيه فى جامعه صوفيا طرائق هذه المعالجه الطبيه الموسيقيه إلى خمسه أنواع و كالآتى:

١ - المحيط الخلفى العلاجى: و ذلك بوساطه بث برامج موسيقيه غير منتقاه تشيع جوا هادئا أثناء العمل و الطعام و المطالعه فى المستشفى.

٢ - العلاج التأملى الموسيقى: تجرى على شكل جلسات فرديه أو اجتماعيه، و فيه تنتقى الموسيقى انتقاء يتلاءم مع شخص المريض و أسلوب علاجه، فالكآبه لها موسيقاها، و كذلك الجنون و الحزن و غيرها. فآلات النفخ الهوائيه تزيد من حالات التوتر و الاضطراب و عدم الراحه، بينما الوتريه و البيانو تضفى جوا رقيقا هادئا.

٣ - العلاج الجماعى الموسيقى: و يعتمد على الحركات الراقصه المشابهه للتمارين الرياضيه و يشترك فيه الإيقاع مع الموسيقى لإعطاء توافق بين الفعاليات الحسيه و الجسديه. و يتطلب هذا النوع تظافر جهود كل من مصمم الرقصات و المعالج الموسيقى و الطبيب لوضع برنامج علاجى بكل مواصفاته. و هنالك أساليب أخرى لهذا النوع من العلاج يدخل فيه التنويم المتزامن مع الموسيقى، و طرق و تقنيات مختلفه أخرى لتنفيذ العلاج بحسب إمكانات المعهد و مقدره معالجيه على الابتكار.

٤ - العلاج الدوائى: يتم هذا العلاج أما بشكل فردى أو جماعى سواء كان عزفا أو غناء مع تفضيل الشكل الجماعى على الفردى. و هنالك توقيتات لجلسات هذا العلاج حسب ما يراه الطبيب، و تنتقى الموسيقى و الكلمات حسب حاله المريض. و هو مطبق منذ قرن من الزمن فى بريطانيا ثم كندا و بلغاريا و بقيه دول العالم، كما أثبت أنه يفيد الأطفال خصوصا لحالات العوق العقلى و الانحراف السلوكى و الأمراض العقيله و العصبيه.

٥ - العلاج الموسيقى الإبداعى: و قسمها شواب عام ١٩٧٤ م إلى ثلاثه أنماط: لحنى و إيقاعى و ارتجالى، و يتم الأداء فيها من قبل المرضى.

ثم توصل الباحث فى نهايه البحث إلى أن الموسيقى علاج مساعد و ثانوى و ليس أساسى، فهو لا يرقى إلى مستويات العلاجات الطبيه التقليديه، و يمكن درجه ضمن قائمه المؤثرات الثقافيه التى يمكن استخدامها ضمن و سائل العلاج الذى يهدف إلى إزاله

المتسلط النفسی للمریض بعد تشخیصه و تصمیم الطرق العلاجیه الکفیله بتخفیفه و التخلص منه. کما أنها تساعد فی تحریر المریض من المتسلط المرضی النفسی للانحرافات العاطفیه و الهواجس و الأوهام و التخیلات و الانحراف الغریزی(۱).

لقد أوضحنا فی کتابنا (المنظار الهندسی للقرآن الکریم)، الأشکال الذبذبیه لأصوات الآلات الموسیقیه المختلفه، و کیف أن هذه الأصوات درست علمیا بشکل مفصل بما یتعلق بعلم الصوت و هندسته و کیف أنها تحمل شده ضوضاء عالیه، و إذا ما ربطنا هذا مع ما توصل إلیه الأطباء النفسانیون بتأثیر الموسیقی کعلاج و وقایه - و لیس تأثیرها علی الأشخاص الأسویاء - فإن نتائجها لیست أساسیه کما تم توضیح هذا فی البحث السابق، بل إنها أحیانا تؤدی إلی عکس النتائج کالاضطراب النفسی و الانحراف الغریزی و الأوهام و التخیلات خصوصا إذا ما صوحبت بصور مرئیه ملیئه بمحرکات الشهوات و الأمراض و العقد النفسیه التی یتلقاها المتلقی بشکل یؤثر سلبا علی نفسیته و بالتالی علی تصرفاته.

و لعل العود الحمید إلی اللّه تعالی لکثیر من أهل الوسط الفنی فی مصر، و اعتزالهم العمل فیه بوضعه المزری الذی لا یبنی عقلا و لا خلقا من جهه، و انتحار عدد من الفنانات و الفنانین من مختلف الجنسیات أو إصابتهم بأمراض نفسیه أو عقلیه أو جسمانیه من جهه أخری، یوضح دون أدنی شک لکل مراقب مدی اضطراب الحاله النفسیه لأهل هذا الوسط خصوصا من لدیه حس مرهف منهم و هم یرون أمام أعینهم مستنقع الانحطاط و السوقیه و الإسفاف الذی و قعوا فیه، فتراهم إما أن یعودوا و یتوبوا و یعتزلوا، أو یحصل لهم تطرف فی السلوک کرده فعل علی الرفض الداخلی لما هم فیه فینتحروا أو یصابوا بمرض معین، و العیاذ باللّه!... نسأل اللّه تعالی ان یکون هذا العود الحمید لکثیر من هؤلاء الفنانین و الفنانات إلی رشدهم، و ارتداء الکثیرات منهن الحجاب و اعتزالهم الرذیله التی سموها فنا لهو الخیر و الأمل فی أسلمه فننا و تطهیره من الدس اللعین للحاقدین من بعض أهل الغرب.

و إذا ما حولنا نظرنا صوب التأثیر النفسی و الروحی لکتاب اللّه فإننا نجده شفاء۳.

۱- العلاج بالموسیقی، الدکتور فائق السامرائی، مجله علوم العراقیه، العدد ۵۷، ص ۱۲-۱۳.

للمرضی و راحه للمتعبین و هدوءا و سکینه للأسویاء، فهذا ما أثبتته معاهد کبیره فی الولایات المتحده الأمریکیه و دول أخری عدیده إسلامیه و غیر إسلامیه، فمنذ عده سنوات و البحوث مستمره حول هذا الموضوع و وصلت إلی دراسه الموجات الصوتیه للقرآن الکریم الذی أدخل بصوت الحاسوب و تأثیره علی المرضی و الأصحاء، و أثبتت فیه أن تأثیره مهما جدا و أکثر أهمیه من الموسیقی العلاجیه.. علی أن هذا الأمر یجب أن ینتبه إلیه المسلمون بشکل حذر، فإذا کان علی أساس علمی بحت فمرحبا به، أما إذا کان یهدف إلی تحویل أنظار العالم من المعانی الروحیه العظیمه للقرآن الکریم و الأمور التشریعیه و العلمیه الرائعه التی جاءت فیه صوب مقارنته بالموسیقی فإن هذا هو الکید بعینه.

إن الإسلام لا یعارض أی غریزه أعطاها اللّه للإنسان، فغریزه التمتع بالأصوات الشجیه هو شیء جمیل وافقت الشریعه الغراء علیه، فوضعت له الأطر و القوانین المثلی التی تمنعه من الانحراف.. فالإسلام الذی شرعه خالق البشر قد اعطی الأمر بناء علی القمه العلیا للعلم، إذ إن الموسیقی المبنیه علی الآله و لیس الصوت البشری أو الحیوانی سیکون لها تأثیرات سلبیه جانبیه علی السلوک البشری عموما، فضلا عن الأصوات البشریه التی تعمل علی تخریب الأخلاق و إفساد الذمم بالکلام المعسول الذی لا ینفع، و هذا ما نلمسه الیوم فی مجتمعاتنا التی اضحت مدمنه علی سماع المسکرات الصوتیه و المخدرات الموسیقیه.

و حیث إن العلم البشری لم یصل بعد إلی نهایته فإن دراسه التأثیرات الموسیقیه علی السلوک لم تبلغ مواصفاتها النهائیه بسبب عدم معرفه الإنسان و إحاطته بکافه جوانب عقله و استغلاله بشکل صحیح. و علی هذا الأساس کان تعامل الإسلام مع سماع المعازف و الأغانی - بالصوره التی بیناها آنفا - و التی تؤدی إلی الانحراف السلوکی الذی نجده الیوم واضحا أمامنا، فجاء هذا التعامل علی أساس هذا الباب و لیس غیره، فهو تعامل علمی قبل أکثر من ألف و أربعمائه عام بدأ علماء الیوم - و لیس السفهاء - یتعاملون معه و یذهبون إلی صحه مذهبه.

لننظر الآن إلی المسأله من ناحیه علمیه بحثیه بعیدا عن العواطف و الاتجاهات الفکریه:

فقد قام باحثون من جامعات أمریکیه متعدده بدراسه إحصائیه دامت سنین عدیده

حول المتزوجين من علاقه تسبق الزواج من عشق و غيره و نشرت عام ۱۹۹۷ م، و اتضح من هذه الدراسه أن اكثر نسب الطلاق، و الانفصال و عدم التفاهم بعد الزواج، كانت من هؤلاء و هذه النسبه اكبر بكثير من الزواج المتأنى و الناضج و المعتمد على التعارف بعد الزواج عند العوائل المحافظه على تقاليدها، كما و أعطى البحث دراسه إحصائيه حول موضوع الحالات النفسيه للأزواج قبل و بعد الزواج و تبين أن اكثر المشمولين بالدراسه يكذبون على الطرف الآخر قبل الزواج و يبنون حياتهم على كذبه ثم يزول القناع بعد الزواج لتتبين الحقائق التى تصدم الطرف الآخر فيكون رد الفعل عنيفا و يحصل التباعد و التنافر و الطلاق أحيانا كثيره و كذلك الخيانات الزوجيه و غير ذلك من الأمور التى أدت إلى تدمير الأسر و تفككها و بالتالى انحلال المجتمع و أثبت فى نهايه البحث أن موضوع العشق و الهوى هذا ما هو إلا كذبه كبيره تخدع الكثيرين و أن الزواج الناضج المتأنى هو الادوم و الأكثر استقراريه و اتزان، و قد شمل البحث أشخاصا مختلفى الأعمار و الوظائف و الأحوال الاجتماعيه و الاقتصاديه(۱). و من أراد التفصيل فى هذا الأمر فبإمكانه الرجوع إلى أطباء نفسيين متخصصين فى هذا المجال و علماء اجتماع ليعلموا هذه الحقيقه علميا و عمليا و واقعيا.

و لئن كان العلم قد توصل إلى أن القشره الدماغيه لدى البشر متطوره و معقده بشكل عظيم جدا، و أن الجهاز المسئول عن الانفعالات و منها الحب و العواطف الموجود فى الفص الأيمن للدماغ يحفز الهرمونات الجنسيه لأداء وظيفتها، فإن عمليه الخفقان و الاضطراب الذى يحصل للقلب و المرافقه لعمليه النظر إلى الجنس الآخر لم يتوصل العلم لحد الآن لفهم مكنوناتها و أسرارها العجيبه فهى لا تزال قيد البحث و الدراسه، و إن كل ما توصل إليه العلم فى هذا المجال هو أن الاضطراب القلبى مصاحب لكل انفعال عاطفى حزنا كان أم فرحا، غضبا أم خوفا يأتى بسبب إفراز هرمونات و مواد معينه كماده الأدرينالين مثلا فى حاله الخوف. و إن الاضطراب القلبى الناتج عن فعل المحرماتم.

۱- خبر سمعته من إذاعه بغداد و نشر فى صحف محليه عديده، و أكده الدكتور يوسف القرضاوى فى برنامج الشريعه و الحياه الذى تبثه قناه الجزيره القطريه الفضائيه و كانت الحلقه حول موضوع علاقه الجنسين قبل الزواج ۱۹۹۹ م.

کالسرقه و الرشوه و الزنا و النظر إلی الجنس الآخر یأتی من حیث شدته بالمرتبه الثانیه بعد حاله الخوف المباشر. إلا أن الإسلام العظیم قد حسم الأمر بقوله تعالی:

قُلْ لِلْمُؤْمِنِینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ یَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِکَ أَزْکی لَهُمْ إِنَّ اللّهَ خَبِیرٌ بِما یَصْنَعُونَ (۳۰) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ یَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَ یَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لا یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلاّ ما ظَهَرَ مِنْها وَ لْیَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلی جُیُوبِهِنَّ وَ لا یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلاّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِی إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِی أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُنَّ أَوِ التّابِعِینَ غَیْرِ أُولِی الْإِرْبَهِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِینَ لَمْ یَظْهَرُوا عَلی عَوْراتِ النِّساءِ وَ لا یَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِیُعْلَمَ ما یُخْفِینَ مِنْ زِینَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَی اللّهِ جَمِیعاً أَیُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۳۱)، (سوره النور)، فقد ربط بین النظر و الشهوه الجنسیه ربطا سببیا واضحا. و هنا دعوه إلی المتخصصین فی مجال النفس و الجمله العصبیه و الدماغ إلی سبر أغوار هذا اللغز و خصوصا من لدیهم حس دینی و خلقی کی لا ندع الشیطان و حزبه یتمکنوا منا، و صدق اللّه العظیم إذ ینبئنا أن فعل الشیطان و جیشه فی شیاطین الإنس و الجن سیتمکن ممن یتولونه و یتبعونه، فیقول الحق جل و علا وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِکَ وَ أَجْلِبْ عَلَیْهِمْ بِخَیْلِکَ وَ رَجِلِکَ وَ شارِکْهُمْ فِی الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ وَ عِدْهُمْ وَ ما یَعِدُهُمُ الشَّیْطانُ إِلاّ غُرُوراً (۶۴)، (الإسراء: ۶۴).

إن التحلیل المنطقی للحاله هو أن غریزه الجنس تتحرک داخل النفس البشریه عند رؤیه الجنس الآخر إذ یقع منها موقعا یحرک النزوات الشهوانیه و تعتمد هذه الحاله علی التراکم النفسی للشخص و الجو البیئی و التربوی له و تختلف درجتها من شخص إلی آخر، هذه النزوه تتحول إلی رغبه جامحه و خصوصا عند اللذین لهم حالات عاطفیه متهیجه کالمراهقین أو أصحاب التطرف الجنسی و الأمراض النفسیه المرتبطه بالجنس و لکن دور القلب هنا یشبه دور المعارضه فی العمل السیاسی إذ أن له صوت آخر یمتزج مع صوت النفس الراغبه و التی تشتهی دائما کالطفل المدلل الذی لا یمل من الطلبات، و صوت القلب هذا لا یعرف الکذب فهو کالجهاز المبرمج لأداء وظیفه و وظیفته هو إرشاد الإنسان إلی صحه العمل الذی یقوم به فإذا ارتکبت الحواس أی عمل لا یرضاه اللّه تعالی

فإن القلب يضطرب كما هو الحال عند ما يقدم إنسان على سرقه أو رشوه أو قتل أو غش أو كذب أو نظره إلى امرأه أو سماع لكلام يثير الشهوه و كذلك فى حاله الخوف.. و هكذا هنا القلب يضطرب لأنه يرفض هذه الحالات لأن اللّه تعالى فطره على هذا العمل و إذا استمع الإنسان لهذا الصوت سلم أما إذا لم يفهمه أو لم يستمع إليه فإن الصدأ يصيب القلب شيئا فشيئا حتى يصبح الأمر طبيعيا لدى الشخص صاحب هذا القلب و هؤلاء هم أصحاب القلوب الميته.

هذه الحقائق العلميه هى التى يعتمد عليها جهاز الكشف عن الكذب إذ يضطرب القلب عند ما يكذب بذبذبات أسرع من الحاله الطبيعيه بسبب إفراز ماده الأدرينالين، فيسجل الجهاز هذه الذبذبات و يتبين إن كان الرجل يكذب أم لا. و هكذا فإن القلب كأنما ينادى صاحبه، أن احذر يا حاملى فإنك تخالف أمر اللّه و لا يحق لك عمل ذلك، و هذا الأمر بالضبط هو مفتاح اللغز الذى لم يفهم عند الكثيرين فيفسرون خفقان القلب على انه صوت يدعوك لعمل الشىء الذى ترغب النفس له، و لكن الحقيقه هو أن الصوت هذا هو صوت معارض لرغبه النفس لذلك فمن يستمع إليه فإن هذا يقوده إلى تزكيه نفسه و تعويدها على تحمل الضغط النفسى الناتج من الغرائز الزائده عن الحاجه البشريه، و من لا يستمع إليه فإنه سيتبع هواه و غرائزه و ينحدر إلى الحيوانيه حتى و إن كان مثقفا أو متعلما علما ماديا إلا أن ميكانيكيه سيطرته على هواه لا تزال جاهله و أميه.

و الدليل العلمى لهذا إضافه إلى ما سبق يكمن فى حالتين:

الأولى هو أنه فى الحيوانات عند رؤيه الجنس الآخر لها لا يضطرب قلبها و هذا منطقى شرعا إذ أن الحيوانات فطرت على الغريزه. و أما الحاله الثانيه فتخص البشر إذ أن المتزوجين لا يتعرضون لاضطراب قلبى عند ممارسه الجماع مع أزواجهم أو عند رؤيتهم ما يثير الشهوه الجنسيه فيهم بنفس الشده التى تحصل عند ممارسه الزنا و العياذ باللّه، و هذا دليل أن القلب هنا لا يعترض على هذا إذ أن الأمر لا خطأ فيه و لا جريره و لكنه مع الأسف يفسر عند الكثيرون خطأ على أن الحب قد مات بين الزوجين بينما هو فى الحقيقه الحاله الطبيعيه لعمل القلب...

إذن نحن أمام حقيقه علميه و واقعيه تقول إن هذا الأمر كله مبالغ فيه و إن التركيز يجب أن ينصب على كيفيه إرشاد الناس إلى الزواج الصحيح و بناء الأسر بشكل عقلانى

و ملتزم لا كما يطبل و يزمر له جنود إبليس و خدمه الماسونيه و الصهيونيه من الفنانين و المطربين علموا أم لم يعلموا، فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبه و ان كنت لا تدرى فالمصيبه أعظم، و إن الحب الذى زوروه و حرفوه هو الحب الملائكى العظيم الذى ليس فيه استفاده ماديه و لذه شهوانيه بل هو حب روحى لمساته وجدانيه صافيه تسمو بالنفس و تجعلها فى مرحله ملائكيه راقيه سامیه ألا- و هو حب اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم و دينه و قرآنه و حب الوالدين و الأولاد و الأسره و الوطن و الأمه و الإخوان و الأصحاب مصداقا لقوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١)، (آل عمران: ٣١)، بينما الحب غير السامى ربطه اللّه تعالى بالشهوه المحرمه و المقصود بها فى غير أبواب الحلال فى قوله تعالى:

* وَ قالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَهِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنّا لَنَراها فِى ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٠)، (يوسف: ٣٠).

و من يشأ التفصيل فى موضوع الأثر الذى يتركه التلاعب بمشاعر الناس باستخدام موضوع الحب هذا عن طريق التمثيل و الغناء، فهناك كتب صدرت عن الماسونيه فى الوطن العربى و سيجد فيها صور فوتوغرافيه لممثلين و فنانين مصريين من الجيل القديم و هم يؤدون القسم الماسونى، هؤلاء الذين دفعوا المجتمع إلى الانحراف الخلقى و التفسخ و التهتك فعمت الفوضى، و انقلب الابن و البنت على والديهما تحت شعارات باطله، و انتشر الزنا، و ابتعدنا عن كل خلق و سمو و معروف دافعت عنه أجيال و سالت بسببه دماء زكيه و استشهد فى سبيله مئات الألوف و الملايين من أبناء هذه الأمه العظيمه، و نسينا قول اللّه سبحانه و تعالى وَ لا- تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَهً وَ ساءَ سَبِيلًا (٣٢)، (الإسراء: ٣٢) و لم يقل (و لا تزنوا) أى كل المقربات و المؤديات إلى الزنا يجب مقاطعتها، و كذلك قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا ذلك لا محاله فالعينين زناهما النظر و الأذنان زناهما الاستماع و اللسان زناه الكلام و اليد زناها البطش و الرجل زناها الخطا و القلب يهوى و يتمنى و يصدق ذلك الفرج و يكذبه»(١) ، و قوله صلّى اللّه عليه و سلّم «إذا زنيد.

١- أخرجه البخارى (الاستئذان ٦٢٤٣، و القدر ٦٦١٢)، مسلم (القدر ٢٦٥٧)، و أبو داود و أحمد.

العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظله فإن أقلع رجع إليه» رواه أبو داود و الحاكم و الصحيح الجامع ۵۸۶، و الحقيقه أن الإنسان يجب أن يقى نفسه و أولاده و أهله من الأسباب المؤديه إلى الزنا و أخطرها النظر إلى ما فشا من تبرج و سفور و خلاعه تصديقا لقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم «إن من أشراط الساعه أن يرفع العلم و يثبت الجهل و يشرب الخمر و يظهر الزنا»(۱).. و ليعلم أولياء الأمور انهم مسئولون أمام اللّه عن هذا لقوله صلّى اللّه عليه و سلّم «أن اللّه سائل كل راع عمّا استرعاه أحفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته» رواه النسائى فى الكبرى ۹۱۷۴، السلسله الصحيحه ۱۶۳۶، و قد ذكرنا الآثار الصحيه السيئه للزنا فى كتاب الطب من هذه السلسله.

فصدر و صدق قول اللّه تعالى فى حق أدعياء الفن هؤلاء:

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ (۱۰)، (البروج: ۱۰).

وَ اللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (۲۷)، (النساء: ۲۷)... و صدق المثل الأجنبى الذى يقول: (إن الأغبياء فقط يقعون فى الحب).

أسال اللّه أن يهدينا و يهديهم أجمعين و يعيدنا إلى ديننا الحق عوده حميده، إلى دين العزه و الرفعه و المجد و العلم العظيم و الخلق الكريم، الدين الذى وصلت به هذه الأمه إلى منزله لم تصلها أمه عبر التاريخ.

و آخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين و أفضل الصلاه و أتم التسليم على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين. اللهم لك الحمد ملء السماوات و ملء الأرض و ملء ما شئت من شيء بعد.

إلى اللقاء مع الكتاب القادم و السلام عليكم و رحمه اللّه تعالى و بركاته.د.

۱- أخرجه البخارى (العلم ۸۰)، و مسلم (العلم ۲۶۷۱)، الترمذى (الفتن ۲۲۰۵)، و ابن ماجه و أحمد.

الملحق تاريخ التشريع الإسلامی

اشاره

ص: ۸۳

تاريخ التشريع الإسلامى(۱)

التشريع الإسلامى:

التشريع أو الفقه الإسلامى هو مجموعه الأحكام الشرعيه التى أمر اللّه عباده بها، و مصادره أربعه و هى التاليه:

۱. القرآن الكريم.

۲. السّنّه النبويه.

۳. الإجماع.

۴. القياس.

سوف نتناول فى بحثنا فى هذا الملحق مواضيع تتعلق بالشريعه الإسلاميه و تاريخها و كيفيه تكاملها و كيفيه وصولها إلينا، و سنفصّل مصادر التشريع الإسلامى و نشرح كيفيه تدوين القرآن و السنه مع ذكر آراء و مذاهب الصحابه، و نركز على مسأله المذاهب و نشأتها و وجه الحاجه إلى أن يتبع المسلم مذهبا من هذه المذاهب، ذلك لأن الكثيرين لا يعلمون شيئا عن كيفيه نشأتها، و من ثم فهم لا يعلمون لما ذا ينبغى لهم أن يتبعوا واحدا منها. و هذا بحث ينبغى على كل مسلم أن يتعلمه لأنه يتعلق تعلقا وثيقا بأساس الدين.

و سنبدأ إن شاء اللّه تعالى بدراسه تاريخيه للشريعه الإسلاميه منذ فجر ظهورها تقريبا إلى يومنا هذا، سائلين المولى عز و جل أن يتقبل منا عملنا المتواضع جدا بقبول حسن، كما نرجو من الإخوه و الأحبه أن لا يقصروا كما عودونا بأى نصيحه أو اقتراح، جزاكم اللّه تعالى عنا كل خير.

أدوار تاريخ التشريع الإسلامى

ينقسم تاريخ التشريع إلى سته أدوار:

۱. الدور الأول: التشريع فى حياه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

۲. الدور الثانى: التشريع فى عصر كبار الصحابه (من سنه ۱۱ إلى سنه أربعين هجريه).

۳. الدور الثالث: التشريع فى عهد صغار الصحابه و من تلقى عنهم من التابعين.

۱- الموسوعه الإسلاميه المعاصره، قرص مدمج/تاريخ التشريع الإسلامى.

۴. الدور الرابع: تدوین السنه و أصول الفقه و ظهور الفقهاء الأربعه الذین اعترف الجمهور لهم بالإمامه و الاجتهاد المطلق، و أنه من اتبع واحدا منهم کان ناجیا عند اللّه تعالی إن شاء اللّه عز و جل.

۵. الدور الخامس: القیام علی المذاهب و تأییدها و شیوع المناظره و الجدل من أوائل القرن الرابع إلی سقوط الدوله العباسیه.

۶. الدور السادس: من سقوط بغداد علی ید هولاکو إلی الآن و هو دور التقلید المحض... و لا یعنی هذا بأی حال من الأحوال توقف الاجتهاد، فالمسائل المستحثه و المستجده التی تستوجب الفتوی فإن هناک من علماء الأمه من یتصدی لها مخلصا النیه للّه تعال معتمدا علی مصادر التشریع الرئیسیه.

مصادر التشریع الإسلامی:

اشاره

مصادر التشریع الرئیسیه فی الإسلام أربعه، و هی:

۱. القرآن الکریم:

و هو کلام اللّه تعالی و هو المصدر و المرجع لأحکام الفقه الإسلامی، فإذا عرضت لنا مسأله رجعنا قبل کل شیء إلی کتاب اللّه عز و جل لنبحث عن حکمها فیه، فإن وجدنا فیه الحکم أخذنا به، و لم نرجع إلی غیره. و لکن القرآن لم یقصد بآیاته کل جزئیات المسائل و تبیین أحکامها و النص علیها، و إنما نص القرآن الکریم علی العقائد تفصیلا، و العبادات و المعاملات إجمالا و رسم الخطوط العامه لحیاه المسلمین، و جعل تفصیل ذلک للسنه النبویه. فمثلا: أمر القرآن بالصلاه، و لم یبین کیفیاتها، و لا عدد رکعاتها. لذلک کان القرآن مرتبطا بالسنه النبویه لتبیین تلک الخطوط العامه و تفصیل ما فیه من المسائل المجمله.

۲. السنّه النبویه:

و هی کل ما نقل عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم من قول أو فعل أو تقریر. و تعدّ فی المنزله الثانیه بعد القرآن الکریم، شریطه أن تکون ثابته عن الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم بسند صحیح، و العمل بها واجب، و هی ضروریه لفهم القرآن و العمل به.

۳. الإجماع:

هو اتفاق جمیع العلماء المجتهدین من أمه سیدنا محمد صلّی اللّه علیه و سلّم فی عصر من العصور علی حکم شرعی، فإذا اتفق هؤلاء العلماء - سواء کانوا فی عصر الصحابه أو بعدهم - علی حکم من الأحکام الشرعیه کان اتفاقهم هذا إجماعا و کان العمل بما أجمعوا علیه واجبا. و دلیل ذلک أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم أخبر أن علماء المسلمین لا یجتمعون علی

ضلاله، فما اتفقوا علیه کان حقا، فقد روی أحمد فی مسنده عن أبی بصره الغفاری رضی اللّه عنه: أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: "سألت اللّه عز و جل أن لا یجمع أمّتی علی ضلاله فأعطانیها" ...و الإجماع یأتی فی المرتبه الثالثه من حیث الرجوع إلیه، فإذا لم نجد الحکم فی القرآن، و لا فی السنه، نظرنا هل أجمع علماء المسلمین علیه، فإن وجدنا ذلک أخذنا و عملنا به... مثاله، إجماع الصحابه رضی اللّه تعالی عنهم علی أن الجد یأخذ سدسترکه مع الولد الذکر، عند عدم وجود الأب.

۴. القیاس:

و هو إلحاق أمر لیس فیه حکم شرعی بآخر منصوص علی حکمه لاتحاد العله بینهما. و هذا القیاس نرجع إلیه إذا لم نجد نصا علی حکم مسأله من المسائل فی القرآن و لا فی السنه و لا فی الإجماع. فالقیاس إذا فی المرتبه الرابعه من حیث الرجوع إلیه... و أرکان القیاس أربعه: أصل مقیس علیه، و فرع مقیس، و حکم الأصل المنصوص علیه، و عله تجمع بین الأصل و الفرع... و دلیله قوله عز و جل: فَاعْتَبِرُوا یا أُولِی الْأَبْصارِ (۲)، [الحشر: ۲]، أی لا- تجمدوا أمام مسأله ما، بل قیسوا وقائعکم الآتیه علی سنّه اللّه الماضیه. و روی مسلم و غیره عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: "إذا اجتهد الحاکم فأصاب فله أجران، و إذا اجتهد الحاکم فأخطأ فله أجر" .و روی أبو داود و الترمذی عن أبی هریره أن معاذ بن جبل رضی اللّه تعالی عنه أرسله رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم إلی الیمن لیعلّم الناس دینهم، فقال صلّی اللّه علیه و سلّم: (یا معاذ بما تقضی؟)، قال: بکتاب اللّه، قال صلّی اللّه علیه و سلّم: (فإن لم تجد فی کتاب اللّه؟)، قال: فبسنّه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، قال: (فإن لم تجد؟)، قال: أقیس الأمور بمشبهاتها (و هذا هو الاجتهاد)، فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و قد تهلل وجهه سرورا: (الحمد للّه الذی وفق رسول رسول اللّه لما یرضی رسول اللّه)، و فی روایه أخری قال صلّی اللّه علیه و سلّم: (فإن لم تجد فی سنه رسول اللّه؟)، قال: أجتهد رأیی و لا آلو (أی أجتهد و لا أترک)... مثاله: إن اللّه تعالی حرّم الخمر بنص القرآن الکریم، و العله فی تحریمه: هی أنه مسکر یذهب العقل، فإذا وجدنا شرابا آخر له اسم غیر الخمر، و وجدنا هذا الشراب مسکرا حکمنا بتحریمه قیاسا علی الخمر، لأن عله التحریم - و هی الإسکار - موجوده فی هذا الشراب؛ فیکون حراما قیاسا علی الخمر.

و سیأتی فیما یلی معالجه و تعریف و تبیان کل مصدر من هذه المصادر من خلال

الحديث عن الأدوار التى مر بها تاريخ التشريع الإسلامى.

ضروره التزام الفقه الإسلامى، و التمسک بأحکامه:

اشاره

لقد أوجب اللّه تعالى على المسلمين التمسک بأحكام الفقه الإسلامى، و فرض عليهم التزامه فى كل أوجه نشاط حياتهم و علاقاتهم. و أحكام الفقه الإسلامى كلها تستند إلى نصوص القرآن الكريم و السنّه الشريفه. فإذا استباح المسلمون ترک أحكام الفقه الإسلامى، فقد استباحوا ترک القرآن و السنّه، و عطّلوا بذلک مجموع الدين الإسلامى، و لم يعد ينفعهم أن يتسمّوا بالمسلمين أو يدّعوا الإيمان، لأن الإيمان فى حقيقته هو التصديق باللّه تعالى، و بما أنزل فى كتابه، و فى سنّه نبيّه صلّى اللّه عليه و سلّم... و الإسلام الحقيقى يعنى الطاعه و الامتثال لكل ما جاء به الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم عن ربه عز و جل مع الإذعان و الخضوع و الرضا.

و أحكام الفقه الإسلامى ثابته لا تتغير و لا تتبدل مهما تبدّل الزمن و تغيّر، و لا يباح تركها بحال من الأحوال. فشرع اللّه صالح لكل زمان و مكان، و الأدله من القرآن و السنّه كثيره و عديده. أما فى الكتاب، فقد قال اللّه تعالى:

اِتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (۳)، [الأعراف: ۳]... فَلا وَ رَبِّکَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوکَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (۶۵)، [النساء: ۶۵]... وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، [الحشر: ۷]... وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَهٍ إِذا قَضَى اللّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (۳۶)، [الأحزاب: ۳۶]...

و أما فى السنه فالأحاديث كثيره أيضا منها:

- ما رواه البخارى و مسلم عن أبى هريره رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

"من أطاعنى فقد أطاع اللّه، و من عصانى فقد عصى اللّه." - ما رواه أبو داود و الترمذى قوله صلّى اللّه عليه و سلّم: "عليكم بسنّتى".

و بناء على هذه النصوص يعدّ من يختار من الأحكام غير ما اختاره اللّه و رسوله، قد ضلّ ضلالا بعيدا، قال تعالى: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَهٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۶۳)، [النور: ۶۳].

و سنتناول فيما يأتى من هذا الملحق إن شاء اللّه تعالى معالجه أهم النقاط المتعلقه بالأدوار الأربعه الأولى فقط و التى تهمنا.

١ – الدور الأول: التشريع فى حياه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الكتاب و السنه:

اشاره

من المعلوم أنّ أهم مصدرين من مصادر الشريعه الإسلاميه هما كتاب اللّه عز و جل و سنه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فهما المصدران الأساسيان للتشريع الإسلامى و سائر أحكام الإسلام.

و لكن فى الحقيقه هناك مصدر أساسى واحد لا ثانى له للشريعه الإسلاميه ألا و هو القرآن الكريم، و لكن لما أمرنا اللّه عز و جل أن نتّخذ من كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم شارحا و مبيّنا و مفصّلا لكتابه الكريم، كانت السنه النبويه بأمر القرآن المصدر الثانى للتشريع. لقد أمرنا اللّه تعالى أن نطيع الرسول عليه الصلاه و السلام فى ما أخبر و أن نعتمد على شرحه فى غوامض كتاب اللّه، فطاعتنا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إنما هى فرع من طاعه اللّه عز و جل. قال تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللّهَ ، [النساء: ٨٠].. وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۴۴)، [النحل: ۴۴]... وَ أَطِيعُوا اللّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا ، [المائده: ٩٢].. وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، [الحشر: ٧].. وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ ، [النحل: ۶۴]..

إذا فالشريعه الإسلاميه فى عهد النبى عليه الصلاه و السلام، كانت تعتمد اعتمادا فعليا على مصدرين فقط هما القرآن و السنه، أما الإجماع و القياس فلم يكن لهما وجود فى ذاك العصر لأن القياس يلجأ إليه عند وجود مسأله لا نص فيها، و ما دام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حيا فالنص مستمر و لا إشكال و حتى لو أنّ النبى عليه الصلاه و السلام قاس أو اجتهد فلا بد أن يتحول هذا الاجتهاد إلى نص. و تفصيل ذلك أنه إذا اجتهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى مسأله فإما أن يقره اللّه تعالى عليها فتصبح نصا حينئذ أو أن يصوب اللّه تعالى له فيكون نصا أيضا.

١ – القرآن الكريم:

أ – تعريفه:

هو كلام اللّه تعالى القديم، المنزل على سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، المتعبّد بتلاوته، المبتدأ ببسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمد للّه رب العالمين و المختتم بسوره

الناس. و القرآن الكريم هو وحى من اللّه تعالى للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم باللفظ و المعنى.

ب – الفرق بينه و بين الحديث النبوى و الحديث القدسى:

لكى نعرف الفرق بين القرآن و بين الحديث القدسى و الحديث النبوى، نعطى التعريفين الآتيين:

– الحديث النبوى: هو ما أضيف إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من قول أو فعل أو تقرير أو صفه خلقيّه أو خلقيّه. مثال القول: قوله عليه الصلاه و السلام: "إنما الأعمال بالنيات..."، جزء من حديث رواه البخارى و مسلم.

مثال الفعل: قول عائشه رضى اللّه عنها فى صفه صوم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم: "كان يصوم حتى نقول لا يفطر و يفطر حتى نقول لا يصوم" .و كالذى ثبت من تعليمه لأصحابه كيفيه الصلاه ثم قال: "صلوا كما رأيتمونى أصلى" رواه البخارى.

مثال الإقرار: كأن يقر أمرا علمه عن أحد الصحابه من قول أو فعل، سواء أ كان ذلك فى حضرته صلّى اللّه عليه و سلّم، أم فى غيبته ثم بلغه، و من أمثلته: "أكل الضب على مائدته صلّى اللّه عليه و سلّم"، فأقرهم على أكله – و هذا دليل الشافعيه على جواز أكل الضب – و لم ينكر عليهم ذلك إذ يستحيل أن يرى معصيه و لا ينكرها أو يسكت عنها.

فائده: إذا فعل إنسان طاعه و سكت عنها النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، دل ذلك على استحبابها فضلا عن جوازها، لأنه لا يجوز لأحد أن يختلق طاعه ما ليتعبّد اللّه بها، فليس للعبد أن يتعبّد له بأمر لم يأمره به جل و علا، من هنا كان عدم صحه و جواز النذر إلا فيما كان من جنسه طاعه أو واجب، فمن نذر أن يشرب كوب ماء مثلا، لا يصح نذره و بالتالى لا يلزمه الوفاء به.

مثال الصفه: ما روى: من أنه صلّى اللّه عليه و سلّم، "كان دائم البشر، سهل الخلق..." ،رواه البخارى و مسلم.

– الحديث القدسى: هو ما يضيفه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى اللّه تعالى: أى أنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يرويه على أنه من كلام اللّه، فالرسول عليه الصلاه و السلام راو لكلام اللّه بلفظ من عنده.

فالحديث القدسى معناه وحى من عند اللّه عز و جل و لفظه من عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

مثال الحديث القدسى: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيما يرويه عن ربه عز و جل: "إنى حرمت الظلم على نفسى و جعلته بينكم محرما" .

و عن أبی هریره رضی اللّه عنه أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال: یقول اللّه تعالی: "أنا عند ظن عبدی بی، و أنا معه إذا ذکرنی، فإن ذکرنی فی نفسه ذکرته فی نفسی..."، أخرجه البخاری و مسلم.

إذا فالحدیث القدسی هو حدیث تلقی الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم مضمونه من الوحی فبیّنه للناس بکلامه و لفظه أی أوحی اللّه تعالی له بالمعنی و الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم صاغ هذا المعنی بعبارته.

- الفرق بین القرآن و الحدیث النبوی: هناک فروق عده أهمها:

١ - أنّ القرآن الکریم کلام اللّه أوحی به تبارک و تعالی إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بلفظه و معناه، و تحدی به العرب الفصحاء و الجن و الإنس و لو کان بعضهم لبعض ظهیرا، فعجزوا عن أن یأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسوره من مثله، و لا یزال التحدی قائما، فهو معجزه خالده إلی یوم الدین. أما الحدیث لم یقع به التحدی و الإعجاز.

إعجاز السنّه لا یضاهی إعجاز القرآن رغم أنّ السنه تعتبر من أفصح کلام العرب حیث ورد فی الحدیث الشریف أنه صلّی اللّه علیه و سلّم أوتی جوامع الکلم، إلا أنها تأتی بالمرتبه الثانیه بعد القرآن.

٢ - القرآن الکریم جمیعه منقول بالتواتر، فهو قطعی الثبوت، و الأحادیث أکثرها ظنیه الثبوت أما الأحادیث المتواتره فهی قطعیه الثبوت.

فائده: کون الحدیث قدسیا لا یعنی أنه متواتر أو صحیح، إذ لا علاقه بین کونه قدسیا و بین درجته، فقد یکون الحدیث القدسی صحیحا، و قد یکون حسنا، و قد یکون ضعیفا أو حتی موضوعا، ذلک لأن الحکم علی الحدیث من حیث الصحه أو الضعف إنما یکون علی السند الذی وصل به إلینا.

٣ - القرآن من عند اللّه لفظا و معنی، فهو وحی باللفظ و المعنی، أما الحدیث فمعناه من عند اللّه و لفظه من عند الرسول صلّی اللّه علیه و سلّم، فهو و حی بالمعنی دون اللفظ.

۴ - القرآن نتعبّد اللّه بتلاوته، فهو الذی تتعین القراءه به فی الصلاه، أما الحدیث فلا تجزئ قراءته فی الصلاه.

ج – نزول القرآن الکریم :

اشاره

الراجح أنّ القرآن له تنزلان:

الأول: نزوله جمله واحده فی لیله القدر من اللوح المحفوظ فی السماء السابعه إلی بیت العزه فی السماء الدنیا. یقول اللّه تعالی فی کتابه العزیز مبینا هذا المعنی:

شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ هُدیً لِلنّاسِ وَ بَیِّناتٍ مِنَ الْهُدی وَ الْفُرْقانِ ، [البقره: ۱۸۵]... و قال جل و علا: إِنّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَهٍ مُبارَکَهٍ إِنّا کُنّا مُنْذِرِینَ (۳) فِیها یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ (۴)، [الدخان: ۳-۴]، أی فی لیله القدر و لیست لیله النصف من شعبان کما یعتقد کثیر من عامه الناس... و قال تبارک و تعالی: إِنّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَهِ الْقَدْرِ (۱)، [القدر: ۱].

الثانی: نزوله من السماء الدنیا إلی الأرض مفرّقا منجما فی ثلاث و عشرین سنه...

یقول اللّه تعالی: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النّاسِ عَلی مُکْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِیلًا (۱۰۶) [الإسراء: ۱۰۶]... تَنْزِیلُ الْکِتابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ (۲) [الجاثیه: ۲].

هذه الآیات و کثیر غیرها، تفید أنّ جبریل علیه السّلام نزل به علی قلب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و أنّ هذا النزول غیر النزول الأول إلی السماء الدنیا فالمراد به نزوله منجّما أی علی دفعات، و یدل التعبیر بلفظ التنزیل دون الإنزال علی أنّ المقصود النزول علی سبیل التدرج، فالتنزیل لما نزل مفرقا و الإنزال أعم یفید النزول دفعه واحده کما کان حال التوراه و الإنجیل، قال تعالی: الم (۱) اَللّهُ لا إِلهَ إِلّا هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ (۲) نَزَّلَ عَلَیْکَ الْکِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراهَ وَ الْإِنْجِیلَ (۳) مِنْ قَبْلُ هُدیً لِلنّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِآیاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ وَ اللّهُ عَزِیزٌ ذُو انْتِقامٍ (۴)، [آل عمران].

و قد نزل القرآن منجّما فی ثلاث و عشرین سنه منها ثلاث عشره سنه بمکه علی الرأی الراجح، و عشر بالمدینه، و کان ینزل بحسب الوقائع و الأحداث خمس آیات و عشر

۱- لتفاصیل فی هذا العلم انظر کتبنا (القرآن منهل العلوم – طبع الجامعه الإسلامیه ببغداد)، و کتاب (استنباط الحلول من أسباب النزول).

آیات و أکثر أو أقل.

الحکمه من نزوله منجّما:

۱ - تثبیت فؤاد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و تکریمه بإنزال الوحی علیه مرارا و تکرارا. قال تعالی:

کَذلِکَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَکَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِیلًا (۳۲)، [الفرقان: ۳۲].

قال السخاوی: "فی نزوله إلی السماء جمله تکریم بنی آدم و تعظیم شأنهم عند الملائکه و تعریفهم عنایه اللّه بهم، و رحمته لهم، و لهذا المعنی أمر سبعین ألفا من الملائکه أن تشیع سوره الأنعام، و زاد سبحانه فی هذا المعنی بأن أمر جبریل بإملائه علی السفره الکرام، و إنساخهم إیاه، و تلاوتهم له." ۲ - التحدی و الإعجاز.

۳ - تیسیر حفظه و فهمه و تدبر معانیه و الوقوف عند أحکامه.

۴ - مراعاه حال المخاطبین بالوحی و عدم مفاجأتهم بما لا عهد لهم به و مسایره الحوادث و التدرج فی التشریع.. و أوضح مثال علی ذلک، التدرج فی تحریم الخمر: فقد نزل قوله تعالی: وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِیلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَکَراً وَ رِزْقاً حَسَناً ، [النحل: ۶۷] أشارت الآیه إشاره خفیه إلی أن الخمر لیس رزقا أی لا ینتفع به. ثم نزل قوله تعالی: * یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ قُلْ فِیهِما إِثْمٌ کَبِیرٌ وَ مَنافِعُ لِلنّاسِ وَ إِثْمُهُما أَکْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما ، [البقره: ۲۱۹]، ثم نزل قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاهَ وَ أَنْتُمْ سُکاری ، [النساء: ۴۳]، ثم قال تبارک و تعالی مصرّحا بالنهی و التحریم القاطع فی سوره المائده: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَیْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّیْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۹۰)، [المائده: ۹۰].

۵ - الدلاله القاطعه علی أنّ القرآن الکریم تنزیل من حکیم حمید، إذ لو کان من کلام البشر لوقع فیه التفکک و الانفصام و استعصی أن یکون بینه التوافق و الانسجام، یقول تعالی: وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً (۸۲)، [النساء: ۸۲]. فأحادیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم - و هی ذروه الفصاحه و البلاغه بعد القرآن الکریم - لا تنتظم حباتها فی کتاب واحد سلس العباره، دقیق السبک، مترابط المعانی،

رصين الأسلوب و متناسق الآيات و السور.

د – نزول القرآن على سبعه أحرف:

اشاره

لقد كان للعرب لهجات شتى، فكل قبيله لها من اللحن فى كثير من الكلمات ما ليس للآخرين، إلا أنّ قريشا من بين العرب قد تهيّأت لها عوامل جعلت للغتها الصداره بين فروع العربيه الأخرى، فكان طبيعيا أن يتنزّل القرآن بلغه قريش تأليفا للعرب و تحقيقا لإعجاز القرآن... فقد أخرج أبو داود من طريق كعب الأنصارى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كتب إلى ابن مسعود رضى اللّه عنه: "إنّ القرآن نزل بلسان قريش، فأقرئ الناس بلغه قريش..." .و لقد كان واضحا لكبار الصحابه رضوان اللّه عليهم أنّ القرآن إنما نزل بلسان قريش قوم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و فى ذلك حكم جليله أهمها:

١ – أنّ قريشا هم قوم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قد جرت سنّه اللّه فى رسله أن يبعثهم بألسنه أقوامهم، قال تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ... ، [إبراهيم: ۴].

٢ – أنه عليه الصلاه و السلام قد أمر بتبليغهم الرساله أولا، قال تعالى: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١۴)، [الشعراء: ٢١۴]. فلا بد من مخاطبتهم بما يألفون و يعرفون ليستبين لهم أمر دينهم. فأنزل اللّه القرآن بلغتهم و أساليبهم التى يفضلونها فى مستوى رفيع من البلاغه لا يجارى.

٣ – إنّ لغه قريش هى أفصح اللغات العربيه و هى تشمل معظم هذه اللغات لاختلاط قريش بالقبائل و لاحتوائها الجيّد الفصيح من لغاتها.

و إذا كان العرب تتفاوت لهجاتهم فى المعنى الواحد بوجه من وجوه التفاوت، فكان لا بد للقرآن أن يكون مستجمعا و شاملا لهذه اللهجات مما ييسر على العرب القراءه و الحفظ و الفهم. و نصوص السنّه قد تواترت بأحاديث نزول القرآن على سبعه أحرف.

عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سوره الفرقان فى حياه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيره لم يقرئنيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. فكدت أساوره فى الصلاه. فتصبّرت حتى سلّم فلبّبته بردائه فقلت من أقرأك هذه السوره التى سمعتك تقرأ، قال: أقرأنيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. فقلت له

کذبت، أقرأنیها علی غیر ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم. فقلت: إنی سمعت هذا یقرأ سوره الفرقان علی حروف لم تقرئنیها. فقال صلّی اللّه علیه و سلّم: أرسله. اقرأ یا هشام، فقرا القراءه التی سمعته... فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: کذلک أنزلت. ثم قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: اقرأ یا عمر، فقرأت التی أقرأنی فقال صلّی اللّه علیه و سلّم: کذلک أنزلت. إنّ هذا القرآن أنزل علی سبعه أحرف، فاقرءوا ما تیسّر منه" ،رواه البخاری و مسلم و أبو داود و النسائی و الترمذی و أحمد و ابن جریر.

قوله: "فکدت أساوره فی الصلاه" :أی أواثبه و أقاتله، و قال النووی: أی أعاجله و أواثبه... و قوله: "فلبّبته بردائه" :أی جمعت علیه ثوبه عند لبّته و جررته به لئلا یتفلت منی. و اللبه: الهزمه التی فوق الصدر، و فیها تنحر الإبل... و قوله: "کذبت":

أی أخطأت، لأن أهل الحجاز یطلقون الکذب فی موضع الخطأ... و سبب تخطئه عمر کان بسبب رسوخ قدمه فی الإسلام بخلاف هشام فإنه کان قریب العهد بالإسلام فخشی عمر من ذلک أن لا یکون أتقن القراءه، بخلاف نفسه فإنه أتقن ما سمع، و کان سبب اختلاف قراءتهما أن عمر حفظ هذه السوره من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قدیما، ثم لم یسمع ما أنزل فیها بخلاف ما حفظه و شاهده و لأن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم أقرأ هشاما علی ما نزل أخیرا فنشأ اختلافهما من ذلک. و مبادره عمر للإنکار محموله علی أنه لم یکن سمع حدیث أنزل القرآن علی سبعه أحرف إلا فی هذه الحادثه.

یفید هذا الحدیث أنّ النزاع بین الصحابیین الجلیلین راجع إلی کیفیه تلاوه القرآن، لا إلی تفسیره و بیان معانیه و هذا یبرهن علی أنّ القرآن یقرأ بأکثر من وجه.

و هذه الأوجه التی أنزل علیها القرآن لیست من لغه واحده بل هی من عده لغات عربیه کلها توقیفیه أی أوحی بها إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم.

و روی مسلم فی صحیحه عن أبی بن کعب قوله رضی اللّه عنه: "کنت فی المسجد فدخل رجل یصلی فقرأ قراءه أنکرتها علیه. ثم دخل آخر فقرأ سوی قراءه صاحبه، فلما قضینا الصلاه دخلنا جمیعا علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم. فقلت: إن هذا قرأ قراءه أنکرتها علیه.

و دخل آخر فقرأ سوی قراءه صاحبه. فأمرهما رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فقرءا. فحسّن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم شأنهما. فسقط فی نفسی من التکذیب و لا إذ کنت فی الجاهلیه. فلما رأی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم ما قد غشینی ضرب فی صدری ففضت عرقا و کأنی أنظر إلی اللّه عز و جل فرقا، فقال لی

صلّى اللّه عليه و سلّم: (يا أبى أرسل إلىّ أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوّن على أمّتى فردّ إلىّ الثانيه اقرأه على حرفين. فرددت إليه أن هوّن على أمّتى. فردّ إلىّ الثالثه: اقرأه على سبعه أحرف، فلك بكل رده رددتها مسأله تسألنيها فقلت: اللهم اغفر لأمّتى.

اللهم اغفر لأمّتى، و أخّرت الثالثه ليوم يرغب إلىّ الخلق كلهم حتى إبراهيم صلّى اللّه عليه و سلّم).

يتبيّن من ذلك أن كل حرف من الأحرف السبعه تنزيل من حكيم حميد. و قد يتساءل المرء عن كلام اللّه تعالى كيف يقرأ على سبعه أوجه...؟ و قد تعتريه الدهشه و يختلجه الشك بإثاره الشيطان وساوسه فى نفسه ليكدر صفو إيمانها، و يوهن من قوه يقينها باللّه و رسوله و كتابه.

و فى هذا الحديث معالجه عمليه لمثل هذه الحاله النفسيه الدقيقه الحرجه. فالرسول صلوات اللّه و سلامه عليه و على آله يباشر بنفسه القيام بهذه المداواه.

فلقد ضرب فى صدر الصحابى الجليل ضربه نبويّه قطع بها دابر الشك الوافد قبل استقراره و تمكنه، فأخذ على الشيطان سبيله إلى قلب أبىّ، ثم أتبع ذلك ببيان يثلج الصدر ببرد اليقين، و يفعم القلب بنور الإيمان، أعلى مراتب الإيمان" اعبد اللّه كأنك تراه "مما جعل أبيا يرى نفسه كماثل أمام الحضره الإلهيه، فغشيه شعور عظيم بالمهابه و الحياء من اللّه، و يروعه ما كاد ينزلق فيه بعد إذ هداه اللّه من ضلال أشد من ضلال الجاهليه، فانتابه إحساس قوى بالخجل و الوجل فلاذ بالإذعان لمشيئه اللّه و حكمته البالغه التى قضت بإنزال القرآن على سبعه أحرف.

ما المراد بالأحرف السبعه؟: اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعه، و تشعبت أقوالهم، و تعددت، و لكننا سنورد أرجح الأقوال و هو قول محمد بن الجزرى فى بيان المراد بحديث أنزل القرآن على سبعه أحرف.

قال ابن الجزرى: لا زلت أستشكل هذا الحديث و أفكر فيه و أمعن النظر من نيف و ثلاثين سنه، حتى فتح اللّه علىّ بما يمكن أن يكون صوابا إن شاء اللّه.

ذلك أنى تتبعت القراءات صحيحها و شاذها و ضعيفها و منكرها فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعه أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها و ذلك:

أولا: الاختلاف فى الحركات بلا تغير فى المعنى و الصوره:

نحو: (البخل) بأربعه أوجه و (يحسب) بوجهين.

ثانيا: الاختلاف فى الحركات بتغير المعنى فقط:

نحو: فَتَلَقّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ ، [البقره: ۳۷]، و قرئ بنصب" آدم "و رفع " كلمات".

ثالثا: الاختلاف فى الحروف بتغير المعنى لا الصوره:

نحو: (تبلو) و (تتلو) و (ننجيك ببدنك) و (ينجيك ببدنك).

رابعا: الاختلاف فى الحروف بتغير الصوره لا المعنى:

نحو: (بصطه و بسطه) و نحو (الصراط و السراط).

خامسا: الاختلاف فى الحروف بتغير الصوره و المعنى:

نحو: (فامضوا، فاسعوا).

سادسا: الاختلاف فى التقديم و التأخير:

نحو: (فيقتلون و يقتلون)، قرئ (فيقتلون و يقتلون).

سابعا: الاختلاف فى الزياده و النقصان:

نحو: (أوصى، و وصى).

قال ابن الجزرى: فهذه سبعه لا يخرج الاختلاف عنها.

و هنا لا بد من التوضيح بأن كل كلام اللّه المنزل على سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلّم منسجم يؤكد بعضه بعضا، و يفسر بعضه الآخر، لا تصادم بين نصوصه و لا تنافى بين مدلولاته..

قال تعالى: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (۸۲)، [النساء: ۸۲]. و هذه الحقيقه تنطبق على القرآن فى قراءاته على حرف أو على السبعه بمجموعها. فإنها جميعا لا تخرج فى تفاوتها إلى تصادم النصوص أو تنافى المدلولات، بل التوسعه بالأحرف السبعه لا تحلّ حراما و لا تحرم حلالا. قال ابن شهاب الزهرى:" بلغنى أن تلك السبعه الأحرف إنما هى فى الأمر الذى يكون واحدا، لا يختلف فى حلال و لا حرام".

و حكى ابن عطيه انعقاد الإجماع على ذلك:" فالإجماع أن التوسعه لم تقع فى تحريم حلال، و لا فى تحليل حرام، و لا فى تغيير شىء من المعانى المذكوره ".

حکمه نزول القرآن علی سبعه أحرف:

۱ - تیسیر القراءه و الحفظ و التخفیف علی العباد و التسهیل علیهم و مراعاه حال العرب فی اختلاف ألسنتهم.

۲ - مزید الإعجاز اللغوی فی القرآن.

۳ - الإعجاز فی المعانی و الأحکام ذلک أن حکما فقهیا معینا أو معنی جدیدا یفهم من قراءه أخری کقوله تعالی: وَ یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْمَحِیضِ قُلْ هُوَ أَذیً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِی الْمَحِیضِ وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتّی یَطْهُرْنَ ، [البقره: ۲۲۲]، و فی قراءه حَتّی یَطْهُرْنَ ، فأفادت القراءه الثانیه عدم جواز مجامعه الرجل زوجته إذا طهرت من حیضها حتی تغتسل.

۴ - توحید لغات العرب. فلقد نزل القرآن بلسان قریش أولا ثم أنزلت الحروف لتسهّل تلاوته للعرب قاطبه علی اختلاف لغاتهم، لأن الحروف قد راعت تفاوت اللغات فی الألفاظ التی یحرج العرب النطق بها کونها قرشیه.

۵ - الأحرف السبعه خصیصه لأمه محمد صلّی اللّه علیه و سلّم. قال الإمام ابن الجزری مفصلا حکم إنزال القرآن علی سبعه أحرف:" و منها إعظام أجور هذه الأمه من حیث إنهم یفرغون جهدهم لیبلغوا قصدهم فی تتبع معانی ذلک و استنباط الحکم و الأحکام من دلاله کاللفظ... و منها بیان فضل هذه الأمه و شرفها علی سائر الأمم، من حیث تلقیهم کتاب ربهم هذا التلقی و إقبالهم علیه و البحث عنه لفظه لفظه و الکشف عنه صیغه صیغه، فلم یهملوا تحریکا و لا تسکینا و لا تفخیما و لا ترقیقا... مما لم یهتد إلیه فکر أمه من الأمم.

الأحرف السبعه مزیه للقرآن علی الکتب السماویه: قال الطبری فی شرح حدیث الأحرف السبعه: "و معنی ذلک کله، الخبر منه صلّی اللّه علیه و سلّم عما خصه اللّه تعالی به و أمته من الفضیله و الکرامه التی لم یؤتها أحدا فی تنزیله. و ذلک أن کل کتاب تقدم کتابنا نزوله علی نبی من أنبیاء اللّه، صلوات اللّه علیهم، فإنما نزل بلسان واحد، متی حول إلی غیر اللسان الذی نزل به کان ذلک له ترجمه و تفسیرا لا تلاوه له علی ما أنزله اللّه...

و منها ظهور سر اللّه تعالی فی تولیه حفظ کتابه العزیز و صیانه کلامه المنزل بأوفی البیان و التمییز.." .

و نشیر هنا إلی أن الأحرف السبعه لا تعنی القراءات السبعه بل تعنی سبعه أوجه فی الخلاف و قد وصل إلینا عشره قراءات متواتره لکتاب اللّه تعالی. القراءات هی اختلاف ألفاظ الوحی فی کتابه الحروف أو کیفیتها من تخفیف و تثقیل و غیرهما. و قد عرّف ابن الجزری القراءات بقوله: "علم القراءات، علم بکیفیه أداء کلمات القرآن و اختلافها حسب ناقلیها".

۵ – جمع القرآن و ترتیبه:

اشاره

کلمه جمع تأتی بمعنیین:

المعنی الأول: بمعنی حفظه و منه یقال جمّاع القرآن أی حفّاظه، و هذا المعنی هو الذی ورد فی قوله تعالی: إِنَّ عَلَیْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (۱۷)، [القیامه: ۱۷] ذلک أنه کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یجهد نفسه و یردد وراء جبریل حین کان ینزل علیه بالوحی خشیه أن لا یحفظ ما أنزل علیه فأنزل اللّه تعالی هذه الآیه تطمینا للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم و تثبیتا لفؤاده حیث أوضحت الآیه الکریمه أن اللّه سبحانه و تعالی قد تعهد بتحفیظه إیاه و عدم نسیانه و تفهمیه معناه. المعنی الثانی، جمع القرآن بمعنی کتابته کله فی صحیفه واحده بین دفتی کتاب.

۱ – جمع القرآن بمعنی حفظه علی عهد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم:

کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم مولعا بالوحی، یترقّب نزوله بشوق، فما من آیه تنزل إلا و یدعو ثله من أصحابه، اختارهم لکتابه الوحی، فیأمرهم بکتابه ما نزل. و کان کلما نزلت آیه حفظت فی الصدور و وعتها القلوب. و قد اتخذ النبی علیه الصلاه و السلام کتّابا للوحی منهم: الخلفاء الأربعه، و عبد اللّه بن مسعود و معاذ بن جبل و زید بن ثابت و أبی بن کعب و خالد بن الولید و غیرهم رضی اللّه عنهم. و هکذا کان القرآن یکتب آیه فآیه و مقطعا فمقطعا. و لم یکن ترتیبه حسب ترتیب النزول بل کان سیدنا جبریل یقول للمصطفی علیه الصلاه و السلام إنّ اللّه یأمرک أن تضع هذه الآیه علی رأس کذا آیه من سوره کذا، فیأمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم کتّاب الوحی بوضع هذه الآیه فی ذلک المکان. و عند ما نزلت آخر آیه – علی الرأی الذی رجّحه کثیر من علماء الحدیث – و هی قول اللّه تعالی:

وَ اتَّقُوا یَوْماً تُرْجَعُونَ فِیهِ إِلَی اللّهِ ثُمَّ تُوَفّی کُلُّ نَفْسٍ ما کَسَبَتْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۲۸۱)، [البقره: ۲۸۱]، قال جبریل لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، ضع هذه الآیه علی رأس مائتین و واحد و ثمانین آیه من سوره البقره بین آیتی الربا و الدّین. و هکذا تکامل نزول القرآن کله، و توفی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بعد ذلک بتسع لیال. و کان صلّی اللّه علیه و سلّم یعرض علی جبریل کل سنه ما کان یجتمع عنده من کتاب اللّه، و قد عرضه کله مرتین علیه فی نفس السنه التی توفی فیها صلّی اللّه علیه و سلّم.

وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۲۸۱)، [البقره: ۲۸۱]، قال جبريل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، ضع هذه الآيه على رأس مائتين و واحد و ثمانين آيه من سوره البقره بين آيتى الربا و الدّين. و هكذا تكامل نزول القرآن كله، و توفى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ذلك بتسع ليال. و كان صلّى اللّه عليه و سلّم يعرض على جبريل كل سنه ما كان يجتمع عنده من كتاب اللّه، و قد عرضه كله مرتين عليه فى نفس السنه التى توفى فيها صلّى اللّه عليه و سلّم.

إذا القرآن كان يكتب من فم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و كان الصحابه يخطّونه على جريد النخل و صفائح الحجاره و رقاع الجلد... و هذا يدل على مدى المشقه التى كانوا يتحملوها فى الكتابه حيث لم تتيسر لهم أدوات الكتابه إلا بهذه الوسائل. و لم تكن هذه الكتابه فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مجتمعه فى مصحف عام، و لم يجمع الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم القرآن بين دفتى كتاب فى حياته لأن إمكان نزول الوحى كان مستمرا كما أنّ إمكان نسخ بعض الآيات كان مستمرا. و قبض النبى عليه الصلاه و السلام و القرآن محفوظ فى الصدور و مكتوب على نحو ما سبق، بالأحرف السبعه التى أنزل عليها، و هذا ما يسمى بالجمع الأول (حفظا و كتابه).

۲ – ترتيب الآيات و السور:

إنّ ترتيب الآيات و السور فى القرآن الكريم توقيفى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن جبريل عليه السّلام عن رب العزه سبحانه و تعالى و هذا بإجماع العلماء، فقد كان جبريل عليه السّلام يتنزل بالآيات و يرشد إلى موضعها من السوره أو الآيات التى نزلت قبل، فيأمر الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم كتبه الوحى بكتابتها فى موضعها. أخرج الحاكم فى المستدرك بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت أنه قال: "كنا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نؤلف القرآن من الرقاع"، (أى كنا نرتب الآيات و السور وفق إشاره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم).

۲ – تاريخ الحديث النبوى:

كتابه الحديث فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

من المتفق عليه أنّ النبى عليه الصلاه و السلام منع أصحابه من كتابه غير القرآن فى أول عهد النبوه خلال ثلاث سنوات أو تزيد قليلا، و قد صح عنه عليه الصلاه و السلام أنه قال لأصحابه: "لا تكتبوا عنى غير القرآن و من كتب عنى فليمحه". و لكن الأمر اختلف فيما بعد حيث سمح لهم بعد ذلك بالكتابه. لكن ترى ما الحكمه فى ذلك؟.

السبب أنّ النبی صلّی اللّه علیه و سلّم خشی فی أول الأمر أن یلتبس علی الناس أسلوب القرآن بأسلوب الحدیث فیختلط علیهم هذا بذاک فیکتبون حدیثا و هم یظنونه قرآنا أو یکتبون آیه و هم یظنونها حدیثا و هذا احتمال وارد جدا، لأن الصحابه لم یتعرفوا بعد علی القرآن تعرفا تاما و لم یتذوقوه تذوقا یجعلهم یفرّقون بینه و بین غیره من أحادیث النبی علیه الصلاه و السلام... فلما نزل قسط کبیر من القرآن، و تعرفوا إلی أصوله و خصائصه، أذن لهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أن یکتبوا الحدیث. و لقد صح عن النبی علیه الصلاه و السلام أنّ بعضا من الصحابه نهی عبد اللّه بن عمر رضی اللّه عنهما أن یکتب عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم الحدیث و قال إنّ رسول اللّه بشر و هو ینطق بالغضب و الرضی فلا تکتب إلا القرآن، فذهب و سأل النبی صلّی اللّه علیه و سلّم عن ذلک فقال له: "اکتب، فو اللّه لا یخرج منه - و أشار إلی فمه - إلا الحق". کما ورد أیضا عن أبی هریره رضی اللّه عنه أنه قال: "لم یکن أحد من الصحابه أکثر منی حدیثا عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم إلا ما کان من شأن عبد اللّه بن عمر فإنه کان یکتب و لم أکن أکتب". إذا قسط یسیر من حیاه النبی علیه الصلاه و السلام بعد البعثه، الحدیث لم یکن یکتب فیه و القسط الأکبر کان یکتب علی قطع متفرقه من الصحف و الأوراق و نحو ذلک و لم یدوّن - أی لم یجمع بین دفتی کتاب - لا فی حیاته و لا بعد وفاته علیه الصلاه و السلام إلا فی ما بعد أواخر عصر التابعین - کما سوف نری - علی ید أبی بکر بن حزم رضی اللّه عنه و من ثم باقی العلماء من بعده بأمر من عمر بن عبد العزیز ثم باقی العلماء من بعده کالإمام مالک و أحمد و غیرهم.

فائده: الفرق بین الکتابه و التدوین: الکتابه هی أن یکتب الإنسان ما یرید کتابته فی أوراق متفرقه دون ضم بین دفّتی کتاب، و هذا ما یسمی بالکتابه المطلقه. أما التدوین فهو جمع ما یراد کتابته مرتبا بین غلافین فی کتاب واحد... من هنا کان خلط المستشرقین بین الکتابه و التدوین، لجهلهم باللغه العربیه - إن حسنّا الظن بهم - فقالوا إنّ الحدیث لم یکتب إلا بعد وفاه النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و انقراض عصر الصحابه و الحقیقه أنّ الحدیث کتب و لکنه لم یدوّن أی لم یجمع بین دفتی کتاب. و لقد کان عند سیدنا علی رضی اللّه عنه صحیفه تسمی "الصحیفه الصادقه" و لکنها لیست صحیفه واحده فقد کان مکتوب فیها مجموعه أحادیث متفرقه، و کثیرون آخرون من الصحابه کانوا یکتبون أیضا.

۲ – الدور الثانی: التشریع فی عصر کبار الصحابه

الکتاب و السنه فی الدور الثانی:

اشاره

توفی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و قد تکامل القرآن نزولا و لکنه لم یجمع فی مصحف واحد بین دفتی کتاب، بل کان محفوظا فی صدور الحفّاظ و صحف کتّاب الوحی، و کان عدد الحفاظ فی العهد النبوی کثیرا جدا. و کان قد وعی کثیر من الصحابه حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، بعضهم فی الصدور کأبی هریره، و بعضهم فی الکتابه فی السطور لا تدوینا. و تولی أبو بکر رضی اللّه عنه الخلافه و لا یزال التشریع یعتمد علی مصدرین أساسیین هما القرآن و السنه، و سنتکلم أولا عن القرآن و ما طرأ علیه من جدید.

أ – القرآن الکریم فی عهد أبی بکر رضی اللّه عنه

حصل فی أول عهد أبی بکر رضی اللّه عنه ما دفعه إلی وجوب جمع القرآن کله فی مصحف ذلک أنه واجهته أحداث جسام فی ارتداد جمهره العرب، فجهز الجیوش لحروب المرتدین، و کانت غزوه أهل الیمامه سنه ۱۲ للهجره تضم عددا کبیرا من الصحابه القرّاء، فاستشهد فی هذه الغزوه سبعون قارئا (أی حافظا) من الصحابه، فهال ذلک عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه، فدخل علی أبی بکر و أشار علیه بجمع القرآن و کتابته بین دفتی کتاب خشیه الضیاع بسبب وفاه الحفاظ فی المعارک. و لکن أبا بکر نفر من هذه الفکره و کبر علیه أن یفعل ما لم یفعله رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و ظل عمر یراوده حتی شرح اللّه تعالی صدر أبی بکر لهذا الأمر، فأرسل إلی زید بن ثابت لمکانته فی القراءه و الکتابه و الفهم و العقل، و لأنه کان صاحب العرضه الأخیره علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أی کان آخر الصحابه الذین قرءوا علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم کاملا و قال صلّی اللّه علیه و سلّم: "خذوا عنه القرآن" أو بما معناه، و قصّ علیه قول عمر رضی اللّه عنه. نفر زید من ذلک کما نفر أبو بکر الذی ظل یراجعه حتی شرح اللّه تعالی صدره لذلک. و یروی زید بن ثابت فیقول: "قال أبو بکر: إنک شاب عاقل لا نتهمک، و قد کنت تکتب الوحی لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، فتتبع القرآن فاجمعه. یقول زید:" فو اللّه لو کلفونی نقل جبل من الجبال ما کان أثقل مما أمرنی به من جمع القرآن "،و قال لأبی بکر: کیف تفعلان شیئا لم یفعله رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم؟.

قال: هو و اللّه خیر، فلم یزل أبو بکر یراجعنی حتی شرح اللّه صدری للذی شرح

اللّه له صدر أبی بکر و عمر، فتتبّعت القرآن أجمعه من العسب و اللخاف و صدور الرجال، و وجدت آخر سوره التوبه مع أبی خزیمه الأنصاری. لم أجدها مع غیره لَقَدْ جاءَکُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِکُمْ ، [التوبه: ۱۲۸] حتی خاتمه براءه فکانت الصحف عند أبی بکر حتی توفاه اللّه، ثم عند عمر حیاته، ثم عند حفصه بنت عمر".

و کان زید بن ثابت لا یکتفی بالحفظ دون الکتابه، و قوله أنه لم یجد آخر سوره التوبه إلا عند أبی خزیمه الأنصاری لا یعنی أنها لیست متواتره، و إنما المراد أنه لم یجدها مکتوبه عند غیره، و کان زید یحفظها، و کان کثیر من الصحابه یحفظونها کذلک، و لکنّ زیدا کان یعتمد علی الحفظ و الکتابه معا، فکان لا یکتب الآیه حتی یأتیه اثنان من الصحابه حفظا هذه الآیه من فم النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، و اثنان آخران کتباها بین یدی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و لا یکتفی بمن کتب و لکن لیس بین یدی المصطفی صلّی اللّه علیه و سلّم، و هذا شرط لا بد منه حیث إن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم مع أنه کان أمّیا و بقی أمّیا حتی توفی و لکنه کان یصوّب و یصحح لکتبه الوحی الذین یکتبون بین یدیه إذا أخطئوا و هذا من معجزاته صلّی اللّه علیه و سلّم. و هنا یظهر لنا شده حرص زید بن ثابت رضی اللّه عنه و مبالغته فی الاحتیاط. أخرج ابن أبی داود من طریق هشام ابن عروه عن أبیه أنّ أبا بکر قال لعمر و لزید: "اقعدا علی باب المسجد فمن جاءکما بشاهدین علی شیء من کتاب اللّه فاکتباه" .و فسر الجمهور أنّ المقصود شاهدین عدلین فی الکتابه و شاهدین عدلین فی الحفظ.

قال السخاوی: "المراد أنهما یشهدان علی أنّ ذلک المکتوب کتب بین یدی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم" ...و قال أبو شامه: "و کان غرضهم أن لا یکتب إلا من عین ما کتب بین یدی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، لا من مجرد الحفظ..." .و الذی یظهر أنّ أبو خزیمه الأنصاری شهادته بشهاده رجلین و لذلک أخذ منه زید بن ثابت. و لعله جاء بعد أبی خزیمه من عنده هذه الآیه مکتوبه بین یدی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و لکن زیدا کان قد اکتفی بأبی خزیمه لأن شهادته بشهادتین کما ذکرنا و ذلک لأنه کان لأحد من الیهود دین علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أدّاه له، فجاءه الیهودی یوما و أخذ یوبخ رسول اللّه علیه الصلاه و السلام و یعیّره و یتهمه بأنه أخّر سداد دینه، فأخبره علیه الصلاه و السلام أنه أدّی له الدّین، و لکن الیهودی أنکر، فقال صلّی اللّه علیه و سلّم (من یشهد لی؟)، فقام أبو خزیمه فشهد له. فقال له صلّی اللّه علیه و سلّم: (کیف تشهد لی علی شیء لم تره؟)، (أی إنک ما رأیتنی حین سددت دین ذلک الیهودی)، فقال أبو

خزیمه: یا رسول اللّه أصدقک بخبر السماء أ فلا أشهد لک علی هذا!... فقال صلّی اللّه علیه و سلّم:

(شهاده أبی خزیمه بشهادتین)، فکان أحد من الصحابه إذا أراد نکاحا أو معامله أتی بأبی خزیمه الذی کان یکفی عن شاهدین.

و قد تم جمع القرآن کله بین دفتی کتاب خلال سنه واحده تقریبا أی بعد سنه من وفاه النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، فکان أبو بکر رضی اللّه عنه أول من جمعه بهذه الصفه فی مصحف واحد مرتب الآیات و السور مشتملا علی الأحرف السبعه التی نزل بها، و یری بعض العلماء أنّ تسمیه القرآن بالمصحف نشأت منذ ذلک الحین، و هذا الجمع هو المسمی "بالجمع الثانی" .و قد ظفر مصحف أبی بکر بإجماع الأمه علیه و تواتر ما فیه. و بعد وفاه أبی بکر رضی اللّه عنه، انتقلت هذه الصحف أو الأوراق المجمّعه إلی بیت سیدنا عمر طوال فتره خلافته، و لما توفی أصبحت هذه الأوراق عند ابنته حفصه رضی اللّه عنها.

سؤال: لما ذا کانت هذه الصحف عند حفصه بعد عمر لا عند عثمان بن عفان؟.

الجواب: حفصه هی زوجه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و أم المؤمنین، و کانت حافظه للقرآن کله فضلا عن کونها تجید القراءه و الکتابه، هذه المیزات جعلتها أهلا لحفظ الصحف عندها، و کذلک لأن عمر رضی اللّه تعالی عنه توفی دون أن یعیّن خلیفه، بل جعل الأمر شوری بین سته توفی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و هو عنهم راض، فبایع المسلمون عثمان، فکیف یوصی بالمصحف إلی عثمان و هو لم یعیّنه خلیفه من بعده؟، لذلک بقی المصحف عند ابنته حفصه رضی اللّه عنها.

ب – جمع القرآن فی عهد عثمان بن عفان رضی اللّه عنه

اشاره

روی البخاری عن أنس أنّ حذیفه بن الیمان قدم علی عثمان و کان یغازی أهل الشام فی فتح أرمینیه و أذربیجان مع أهل العراق فأفزع حذیفه اختلافهم فی القراءه – ذلک لأنهم أعاجم یخطئون بقراءه القرآن – فقال لعثمان أدرک الأمّه قبل أن یختلفوا اختلاف الیهود و النصاری، فأرسل عثمان إلی حفصه أن أرسلی إلینا الصحف ننسخها فی المصاحف ثم نردها إلیک، فأرسلت بها حفصه إلی عثمان فأمر زید بن ثابت، و عبد اللّه بن الزبیر و سعید بن العاص، و عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فی المصاحف، و قال عثمان للرهط القرشیین الثلاثه: إذا اختلفتم أنتم و زید بن ثابت فی شیء من القرآن فاکتبوه بلسان قریش فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا حتی إذا نسخوا الصحف

فی المصاحف رد عثمان الصحف إلی حفصه و أرسل إلی کل أفق بمصحف مما نسخوا و أمر بما سواه من القرآن فی کل صحیفه و مصحف أن یحرق.

و قد شرعت اللجنه الرباعیه فی تنفیذ قرار عثمان سنه خمس و عشرین أی بعد وفاه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بحوالی أربعه عشر سنه. کتبت هذه المصاحف علی ما یحتمله رسمها من الأحرف السبعه التی نزل بها القرآن. لقد تعمد الصحابه کتابه هذه المصاحف بالخط الذی یکون أکثر احتمالا للأحرف، و قد وفّقوا لذلک لعدم وجود النقط و الشکل...

و هکذا فإن الأصل فی عمل عثمان أن یکون مستجمعا کافه الأحرف السبعه فی مصاحفه و أن عثمان و من معه لا یفرطون فی شیء أوحی به اللّه إلی رسوله صلّی اللّه علیه و سلّم.

روی ابن أبی داود أن سوید بن غفله الجعفی قال: "سمعت علی بن أبی طالب رضی اللّه عنه یقول: یا أیها الناس لا تغلوا فی عثمان، و لا تقولوا له إلا خیرا (أو قولوا له خیرا) فی المصاحف و إحراق المصاحف، فو اللّه ما فعل الذی فعل فی المصاحف إلا عن ملأ منا جمیعا، فقال ما تقولون فی هذه القراءه، فقد بلغنی أن بعضهم یقول إن قراءتی خیر من قراءتک و هذا یکاد یکون کفرا، قلنا فما تری؟ قال نری أن نجمع الناس علی مصحف واحد، فلا تکون فرقه و لا یکون اختلاف، قلنا فنعم ما رأیت". و استنسخت اللجنه سبعه مصاحف، فأرسل عثمان بسته منها إلی الآفاق و احتفظ لنفسه بواحد منها هو مصحفه الذی یسمی "الإمام"، و لقد تلقّت الأمّه ذلک بالطاعه و أجمعت الصحابه علی هذه المصاحف. و لقد جرّدت المصاحف العثمانیه مما لیس من القرآن کالشروح و التفاسیر، فمن الصحابه من کان یکتب فی مصحفه ما سمع تفسیره و إیضاحه من النبی صلّی اللّه علیه و سلّم مثال ذلک: قوله تعالی: لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّکُمْ... ، (البقره: من الآیه ۱۹۸)... فقد قرأ ابن مسعود و أثبت فی مصحفه: لیس علیکم جناح أن تبتغوا فضلا من ربکم فی مواسم الحج، فهذه الزیاده للتفسیر و الإیضاح. و بهذا قطع عثمان رضی اللّه عنه دابر الفتنه و حصّن القرآن من أن یتطرّق إلیه شیء من الزیاده و التحریف علی مر العصور. و جمع عثمان للقرآن هو المسمی "ب:" الجمع الثالث ".و اتّبع زید بن ثابت و الثلاثه القرشیون معه طریقه خاصه فی الکتابه ارتضاها لهم عثمان، و قد سمی العلماء هذه الطریقه ب:" الرسم العثمانی للمصحف "نسبه إلیه، و هو رسم لا بد من کتابه القرآن به لأنه الرسم الاصطلاحی الذی توارثته الأمه منذ عهد عثمان رضی اللّه

عنه. و لهذا الرسم أحكام و قواعد حيث كتب على نحو يتوافق و القراءات العشر.

و لما أعيدت صحف حفصه إليها ظلّت عندها حتى توفيت و قد حاول مروان بن الحكم أن يأخذها منها ليحرقها فرفضت، حتى إذا توفيت أخذ مروان الصحف و أحرقها و قال مدافعا عن وجهه نظره:" إنما فعلت هذا لأنّ ما فيها قد كتب و حفظ بالمصحف الإمام، فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب ".و قد وافقه علماء عصره على هذا و كان فعله صوابا و حكمته عظيمه.

و من المعروف أنّ ابن كثير و هو من علماء القرن الثامن هجرى، قد رأى مصحف الشام أى المصحف الذى أرسله عثمان رضى اللّه تعالى عنه إلى الشام و قال فى كتابه" فضائل القرآن: "أمّا المصاحف العثمانيه الأئمه فأشهرها اليوم الذى فى الشام بجامع دمشق عند الركن شرقى المقصوره المعموره بذكر اللّه، و قد كان قديما بمدينه طبريه ثم نقل منها إلى دمشق فى حدود سنه ٥١٨ ه. و قد رأيته كتابا عزيزا جليلا عظيما ضخما بخط حسن مبين قوى، بحبر محكم، فى رق أظنه من جلود الإبل".

رسم القرآن:

مما لا شك فيه أنّ الصحف التى كتبت على عهد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و المصاحف العثمانيه التى وزّعت على الأمصار، كانت خاليه من الشكل و النقط أى من التشكيل بالفتحه و الضمه و الكسره. و مما لا ريب فيه أيضا أنّ رسم المصاحف العثمانيه التى نسخت على هدى المصحف الأول، يقوم على إملاء خاص به فى ذلك العصر و فيما بعده أيضا و هو يتفق فى جملته مع الرسم القرشى فى ذلك الوقت، و من هنا قال عثمان رضى اللّه عنه للكاتبين كما ورد فى صحيح البخارى: "إذا اختلفتم أنتم و زيد فى كلمه من كلمات القرآن (أى فى كيفيه كتابتها أى إملائها) فاكتبوها بلسان قريش فإنّ القرآن أنزل بلسانهم" .إذا كان للقرآن إملاء خاصا من حيث كتابه الهمزه مثلا أو الأحرف اليائيه و الواويه و من حيث الزياده و النقص و ما شابه ذلك. أما ظاهره كتابته و هجائه الخاص فلم يطرأ عليها تغيير أو تحوير يذكر. فقد أخذ الناس يعتبرون الرسم القرآنى رسما معيّنا خاصا به و لم يجدوا ما يدعو إلى مدّ يد التغيير إليه، بعد أن وصل إليهم بهذا الشكل صوره طبق الأصل للكتابه المعتمده الأولى. لقد رأى العلماء أنّ الحيطه فى حفظ القرآن تدعو إلى وجوب إبقائه على شكله الأول، و تحريم أو تكريه أى تطوير كتابى فيه تطبيقا للقاعده الشرعيه الكبرى (سد الذرائع). فنهى مالك عن تغيير هذه الكتابه الخاصه

بالقرآن كما حرّم أحمد بن حنبل ذلك أيضا.

تحسين الرسم العثمانى:

كانت المصاحف العثمانيه خاليه من النقط و الشكل لأنّ العرب كانوا يعتمدون على السليقه العربيه السليمه التى لا تحتاج إلى الشكل بالحركات. و ظل الناس يقرءون القرآن فى تلك المصاحف بضعا و أربعين سنه حتى خلافه عبد الملك، فلما تطرّق إلى اللسان العربى الفساد بكثره الاختلاط بالأعاجم و ذلك بسبب الفتوحات الإسلاميه الواسعه، أحسّ أولو الأمر بضروره تحسين كتابه المصحف بالشكل و النقط و غيرهما مما يساعد على القراءه الصحيحه. و يرجّح أنّ أول من وضع ضوابط للعربيه و تشكيل القرآن، هو أبو الأسود الدّؤلى من التابعين، و ذلك بأمر من على ابن أبى طالب كرّم اللّه وجهه و كان قد أمره بذلك زياد والى البصره و لكنه تباطأ فى بادئ الأمر إلى أن سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ ، [التوبه: ٣]، فقرأها بجر اللام من كلمه "رسوله" فغير بذلك المعنى كله و أصبح معنى هذه القراءه الخاطئه أن اللّه تعالى برىء من كل المشركين و من النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و العياذ باللّه تعالى، بينما المعنى الصحيح للآيه هو أن اللّه تعالى و كذلك رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم كلّ برىء من المشركين. أفزع هذا اللحن (الخطأ) أبا الأسود فذهب إلى الوالى زياد و قال له: "قد أجبتك إلى ما سألت" .و انتهى فى اجتهاده أن جعل علامه الفتحه نقطه فوق الحرف و جعل علامه الكسره نقطه أسفله و جعل علامه الضمه نقطه بين أجزاء الحرف و جعل علامه السكون نقطتين. و أعانه فى ذلك عدد من العلماء و تبعه آخرون منهم: يحيى بن يعمر، و نصر بن عاصم الليثى و غيرهما... فلم ينفرد أبو الأسود الدؤلى وحده فى تشكيل القرآن و لكنه كان أول من بدأ بذلك. و كلما امتد الزمان بالناس، ازدادت عنايتهم بتيسير الرسم العثمانى، فكان الخليل بن أحمد الفراهيدى أول من صنّف النقط و رسمه فى كتاب و أول من وضع الهمزه و التشديد و الرّوم و الإشمام. و من المعلوم إنّ علم النحو لم يقعّد و يدوّن إلا خدمه لضبط القرآن، حتى إنّ معظم علوم العربيه الأخرى إنما قامت لخدمه القرآن أو نبعت من مضمونه. ثم تدرج الناس بعد ذلك فقاموا بكتابه العناوين فى رأس كل سوره و وضع رموز فاصله عند رءوس الآى و تقسيم القرآن إلى أجزاء و أحزاب و أرباع و الإشاره إلى ذلك برسوم خاصه، و ذكر المكى و المدنى من السور. حتى إذا كانت نهايه القرن الهجرى الثالث، بلغ الرسم ذروته من الجوده و الحسن.

ضوابط القراءه الصحيحه:

من شروط كون القراءه مقبوله و صحيحه:

١ – أن تكون موافقه للرسم العثمانى فى أحد مصاحفه السبعه.

٢ – أن تكون متواتره عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

٣ – أن تكون صحيحه فى لغه العرب.

إن القراءه الصحيحه التى وصلت إلينا عشره، و من المعلوم أنه من فروض الكفايه أن يكون فى كل بلده (كبيروت مثلا) حافظا لكتاب اللّه تعالى على القراءات العشر بالسند المتصل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و مجازا بذلك.

عنايه العلماء بالمكى و المدنى:

قام أعلام الهدى من الصحابه و التابعين بضبط منازل القرآن ضبطا يحدد الزمان و المكان، فكانوا يؤرخون كل آيه بوقت و مكان نزولها.

روى البخارى عن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه قال: "و اللّه الذى لا إله غيره ما نزلت سوره من كتاب اللّه إلا و أنا أعلم أين نزلت؟ و لا نزلت آيه من كتاب اللّه إلا و أنا أعلم فيم نزلت؟ و لو أعلم أنّ أحدا أعلم منى بكتاب اللّه تبلغه الإبل لركبت إليه" .و قد عنى العلماء بتحقيق المكى و المدنى بدقه و عنايه فائقه، فتتبعوا القرآن آيه آيه و سوره سوره، لترتيبها وفق نزولها، مراعين فى ذلك الزمان و المكان و الخطاب حتى اكتمل بذلك علم سمى "ب:" علم المكى و المدنى".

الفرق بين المكى و المدنى:

أصح الأقوال أن:

المكى: ما نزل قبل الهجره و إن كان بغير مكه.

المدنى: ما نزل بعد الهجره و إن كان بغير المدينه، بأن نزلت آيه ما فى مكه بعد الهجره مثلا عند ما فتح النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مكه، فتسمّى مدنيه و لا تسمّى مكيه.

أهميه معرفه المكى و المدنى:

١ – الاستعانه بها فى تفسير القرآن:

فإنّ معرفه مواقع النزول تساعد على فهم الآيه و تفسيرها تفسيرا دقيقا.

مثال ذلك: من قرأ سوره" الكافرون "و لم يعلم زمن نزولها و هل هى مكيه أم مـدنيه، فإنه يحار فى معناها، و قـد يسـتخرج منها أنّ المسلمين غير مكلفين بالجهاد فى أى الأحوال و إنما عليهم أن يقولوا للآخرين لكم دينكم ولى دين.

فإذا علم أنّ هذه السوره إنما نزلت فى مكه عند ما قال بعض صناديد الشّرك لرسول

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:" تعال يا محمد نعبد إلهك يوما و تعبد إلهنا يوما "،إذا علم هذا، أدرك أنّ هذه السوره إنما هى علاج لتلك المرحله ذاتها و ليست دليلا على عدم مشروعيه الجهاد الذى نزلت فيه آيات كثيره أخرى فى المدينه.

۲ – معرفه الناسخ و المنسوخ من الآيات:

سؤال: من المعلوم أن سورتى المعوذتين نزلتا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى المدينه المنوره بعد أن سحره ذلك اليهودى لبيد بن الأعصم، فلما ذا يكتب عنهما فى المصاحف أنهما مكّيتان؟.

الجواب: قد تكون هاتين السورتين نزلتا على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أكثر من مره. فقد ورد أن سوره الفاتحه نزلت على قلب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مرات عديده تثبيتا لفؤاده، فقد تكون هاتين السورتين نزلتا لما سحر لبيد بن الأعصم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى المدينه بعد الهجره، و أوحى اللّه تعالى إلى نبيه صلّى اللّه عليه و سلّم مره أخرى بهاتين السورتين تثبيتا لفؤاده و تعليما له و لأمته من بعده أن قراءتهما تبطل سحر الساحر و هما رقيه من سحر الساحر أو الحاسد.

۲ –

الحديث فى عهد الصحابه رضى اللّه عنهم:

اشاره

بعد وفاه النبى عليه الصلاه و السلام، قام الصحابه من بعده بحمل لواء الإسلام و تبليغ ما علموه منه صلّى اللّه عليه و سلّم. و لقد تميّز الصحابه بخصائص و مميزات أهّلتهم لحفظ الحديث فى الصدور، و فيما يلى نورد أهم العوامل التى ساعدتهم لحفظ الحديث الشريف:

عوامل حفظ الصحابه للحديث:

۱ – صفاء أذهانهم و قوه قرائحهم و ذلك أنّ العرب أمه أمّيه لا تقرأ و لا تكتب، و الأمّى يعتمد على ذاكرته فتنمو و تقوى لتسعفه حين الحاجه، كما أنّ بساطه عيشهم بعيدا عن تعقيد الحضاره جعلتهم ذوى أذهان نقيه، لذلك عرفوا بالحفظ النادر و الذكاء العجيب حيث اشتهروا بحفظ القصائد من المره الأولى و حفظ الأنساب...

۲ – قوه الدافع الدينى لأنهم أيقنوا أن لا سعاده لهم فى الدنيا و لا فوز فى الآخره إلا بهذا الإسلام، فتلقّفوا الحديث النبوى بغايه الاهتمام و نهايه الحرص.

۳ – تحريض النبى صلّى اللّه عليه و سلّم على حفظ حديثه، قال زيد بن ثابت:" سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يقول: (نضّر اللّه امرأ سمع مقالتى فبلّغها، فربّ حامل فقه غير فقيه و ربّ حامل

فقه إلى من هو أفقه منه) أخرجه أبو داود و الترمذى و ابن ماجه، و فى روايه: (نضّر اللّه امرأ سمع منا شيئا فبلّغه كما سمعه، فربّ مبلّغ أوعى من سامع)، قال الترمذى حديث حسن صحيح. قال العلاّمه القسطلانى: "المعنى أنّ اللّه تعالى خصّه (أى ناقل حديث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم) بالبهجه و السرور لأنه سعى فى نضاره العلم و تجديد السنّه، فجازاه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى دعائه له بما يناسب حاله من المعامله" .و بالفعل هذا ما نجده فى وجوه المحدثين من نضاره و نور يعلو محياهم و حسن سمت يضفى عليهم هيبه و وقارا.

۴ - اتباع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الوسائل التربويه فى إلقاء الحديث على الصحابه و سلوكه سبيل الحكمه كى يجعلهم أهلا لحمل الأمانه و تبليغ الرساله من بعده، فكان من شمائله فى توجيه الكلام:

أ - أنه لم يكن يسرد الحديث سردا متتابعا بل يتأنّى فى إلقاء الكلام ليتمكّن من الذهن، قالت عائشه رضى اللّه عنها فيما أخرجه الترمذى: "ما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يسرد كسردكم هذا و لكنه كان يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه".

ب - لم يكن يطيل الحديث بل كان كلامه قصدا، قالت عائشه فيما هو متفق عليه: "كان يحدّث حديثا لو عدّه العادّ لأحصاه".

ج - أنه كثيرا ما يعيد الحديث لتعيه الصدور، روى البخارى و غيره عن أنس فقال: "كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يعيد الكلمه ثلاثا لتعقل عنه".

۵ - مواظبه الصحابه على حضور مجالس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم التى كان يخصصها للتعليم و اجتهادهم فى التوفيق بين مطالب حياتهم اليوميه و بين التفرغ للعلم، فها هو عمر بن الخطاب يتناوب الحضور مع جار له من الأنصار على تلك المجالس، فقال عمر: "كان ينزل صاحبى يوما و أنزل يوما فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى و غيره و إذا نزل فعل مثل ذلك" ،رواه البخارى.

۶ - مذاكره الصحابه فيما بينهم، قال أنس: "كنا نكون عند النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فنسمع منه الحديث فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه".

۷ - أسلوب الحديث النبوى، فقد أوتى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بلاغه نادره شغفت بها قلوب العرب و قوه بيان يندر مثلها فى البشر و من هنا سمى القرآن الكريم الحديث "حكمه".

۸ - كتابه الحديث و هى من أهم وسائل حفظ المعلومات و نقلها للأجيال. ورد فى

سنن أبی داود عن عبد اللّه بن عمرو أنه قال: "کنت أکتب کل شیء أسمعه من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أرید حفظه..." .و قد تناولت الکتابه فی عهد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قسما کبیرا من أهم الأحادیث و أدقها لاشتمالها علی أمهات الأمور و علی أحکام دقیقه.

قوانین الروایه فی عهد الصحابه:

اعتمد أئمه المفتین فی هذا الدور و جلّ الصحابه قوانین محدده فیما یتعلق بروایه الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و أهم هذه القوانین هی التالیه:

التقلیل من الروایه: خشیه أن ینتشر الکذب و الخطأ علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم...

روی الحافظ الذهبی فی تذکره الحفاظ عن سیدنا أبی بکر أنه جمع الناس بعد وفاه نبیهم علیه الصلاه و السلام فقال: "إنکم تحدّثون عن رسول اللّه أحادیث تختلفون فیها و الناس بعدکم أشد اختلافا، فلا تحدّثوا عن رسول اللّه شیئا، فمن سألکم فقولوا بیننا و بینکم کتاب اللّه فاستحلّوا حلاله و حرّموا حرامه".

التّثبت فی الروایه: کان الصحابه یتثبّتون فیما یروی لهم، فلم یکن أبو بکر و لا عمر یقبلان من الأحادیث إلا ما شهد اثنان أنهما سمعاه من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و ذلک للأسباب التالیه:

أ - قوله تعالی: إِنَّما یَفْتَرِی الْکَذِبَ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِآیاتِ اللّهِ وَ أُولئِکَ هُمُ الْکاذِبُونَ (۱۰۵)، [النحل: ۱۰۵].

ب - قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جاءَکُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا... ، [الحجرات: ۶].

ج - لما سئل الزبیر بن العوّام لما ذا لا تحدّث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم کما یحدّث فلان و فلان؟ قال: "أما إنی لم أفارق رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و لکنی سمعته یقول:" من کذب علیّ متعمدا فلیتبوأ مقعده من النار".

د - ورد فی الحدیث الصحیح أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم قال:" من حدّث عنی بحدیث یری أنه کذب فهو أحد الکاذبین".

إذا فقد کان من طبع الصحابه الحرص الشدید و الخوف من الکذب علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم کیف لا و قد مدحهم النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فیما یرویه البخاری:" اللّه اللّه فی أصحابی لا تسبوهم

و لا تؤذوهم فمن آذاهم فقد آذانی و من آذانی فقد آذی اللّه، و الذی نفسی بیده لو أنّ أحدکم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم و لا نصیفه "...روی ابن شهاب عن قبیصه بن ذؤیب أنّ جده جاءت إلی أبی بکر تلتمس أن تورّث فقال:" ما أجد لک فی کتاب اللّه شیئا و ما علمت أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم ذکر لک شیئا "،ثم سأل الناس فقام المغیره فقال:" سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یعطیها السدس "فقال:" هل معک أحد "؟،فشهد محمد ابن مسلمه بمثل ذلک، فأنفذه لها أبو بکر رضی اللّه عنه (أی أعطاها السدس)... و عن سعید أنّ أبا موسی رضی اللّه عنه سلّم علی عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه من وراء الباب ثلاث مرات فلم یؤذن له فرجع فأرسل عمر فی أثره فقال: لم رجعت؟ قال:" سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول (إذا سلّم أحدکم ثلاثا فلم یجب فلیرجع)، قال: "لتأتینی علی ذلک ببیّنه أو لأفعلنّ بک" ،فجاءنا أبو موسی منتقعا لونه و نحن جلوس فقلنا: "ما شأنک" ؟فأخبرنا و قال: "فهل سمع أحد منکم" ؟فقلنا: "نعم کلنا سمعه" ،فأرسلوا معه رجلا منهم حتی أتی عمر فأخبره. و قد قال عمر لغیر واحد من الصحابه: "أما إنی لم أتهمک و لکننی أحببت أن أتثبّت".

نقد الروایات: و ذلک بعرضها علی نصوص و قواعد الدین، فإن وجد مخالفا لشیء منها ردوه و ترکوا العمل به. هذا هو الخلیفه عمر فیما أخرج مسلم عنه: أفتی عمر ابن الخطاب بأنّ المبتوته (التی طلقها زوجها ثلاثا) لها النفقه و لها السکنی و لمّا بلغه حدیث فاطمه بنت قیس أنّ زوجها طلقها ثلاثا فلم یجعل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لها سکنی و لا نفقه، قال: "لا نترک کتاب اللّه و سنّه نبینا لقول امرأه لعلها حفظت أو نسیت، قال اللّه عز و جل: لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُیُوتِهِنَّ وَ لا یَخْرُجْنَ إِلاّ أَنْ یَأْتِینَ بِفاحِشَهٍ مُبَیِّنَهٍ ، [الطلاق: ۱].

و لا بد من الإشاره إلی أنه لم یکن هناک حاجه إلی جرح و تعدیل أی البحث و التدقیق عن عداله و صدق الراوی لأنّ الصحابه کلهم عدول و ذلک بنص القرآن، قال تعالی: وَ السّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِینَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِینَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِیَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ، [التوبه: ۱۰۰]. أما المنافقون فکانوا کما قال عنهم العلماء أحقر من أن یحملوا علما أو یؤخذ عنهم العلم!!!.

فقه الصحابه:

كان علماء الصحابه إذا سئلوا فی مسأله ما، نظروا فی کتاب اللّه تعالی فإن لم یجدوا نظروا فی سنه النبی صلّی اللّه علیه و سلّم، فإن لم یجدوا نصا لا من الکتاب و لا من السنه، سألوا باقی الصحابه هل قضی أحد قبلنا فی هذا الأمر بقضاء؟ فإن سمعوا أنّ أحدا قضی بقضاء و نفذ و وجدوا أنّ الأمر قریب قضوا. و لقد کان الصحابه یتحفظون تحفظا شدیدا فی الاجتهاد، فکان الواحد منهم إذا اضطر إلی الاجتهاد فی حال عدم وجود نص، جمع مجلس الشوری و طرح القضیه التی هو بصددها و استشار الصحابه العلماء و تجاذب معهم أطراف البحث و النقاش و لم ینفرد فی إعطاء حکم، فإن انتهی إلی شیء - سواء کان أبو بکر أو عمر أو عثمان أو أی ممن جاء بعدهم - کان یقول:" هذا رأیی فإن کان صوابا فمن اللّه تعالی و إن کان خطأ فمنی و أستغفر اللّه تعالی "...و ورد أنّ رجلا ممن أرسلهم سیدنا عمر والیا علی جهه من الجهات قال للناس: هذا ما قضی به اللّه و قضی به عمر، فسمع عمر ذلک و أرسل إلیه یقول:" بئس ما قلت، بل هذا ما قضاه عمر، لا تجعلوا الرأی سنّه اللّه فی الناس فتحمّلوها خطأ الناس".

و کان الصحابه یقولون إذا کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم المؤیّد بالوحی، قال اللّه تعالی له:

وَ شاوِرْهُمْ فِی الْأَمْرِ [آل عمران: ۱۵۹] فما بالک بمن جاء بعده! فإذا استشاروا و أجمعوا علی رأی واحد، فذاک هو الإجماع، أما إذا اختلفوا فکل یقضی بما یری. و من مظاهر الشوری أنّ سیدنا أبا بکر رضی اللّه عنه لمّا جهّز جیش أسامه بعد وفاه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم - و کان هذا أول ما قام به أبو بکر - قال لأسامه و قد رأی أنّ عمرا رضی اللّه عنه قد انخرط بین أفراد الجیش:" إن رأیت أن تعطینی عمر و تبقیه عندی فعلت".

انظروا کیف یقول خلیفه المسلمین، - ذاک الشیخ الکبیر لأسامه الذی لم یبلغ من العمر التاسعه عشر بعد، هذا الکلام بأدب متناهی! لما ذا؟ لأنّ أبا بکر کان یری أنه قد تعرض له الفتوی و المشکلات و هو بحاجه إلی أمثال سیدنا عمر رضی اللّه عنه لیستشیره و لیأخذ رأیه. و طبعا أجابه أسامه لذلک و بقی عمر عند أبی بکر الذی لا یتأخر فی استشاره من حوله من الصحابه کعثمان و علیّ و غیرهم رضی اللّه عنهم أجمعین. و ما أکثر ما کان یقول عمر:" لو لا علی لهلک عمر ".و کذلک علی کان إذا عرض علیه رأی لم یبتّ بهذا الرأی حتی یستشیر کبار الصحابه و فی مقدمه هؤلاء أبو بکر و عمر.

فلنلاحظ صوره الأخوّه الواقعیه فی حیاه الصحابه و آل البیت و محبتهم لبعضهم

البعض، لا شک أنّ جیلا ربّاه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لا بد أن یکون هذا حاله. مستحیل أن یکون النبی علیه الصلاه و السلام أعظم مربّی أوجده اللّه تعالی لینجد به الإنسانیه ثم یخفق فی تربیه أصحابه. فإن تصوّرنا أنه بعد وفاته صلّی اللّه علیه و سلّم کان أصحابه أعداء لآل البیت و العکس لکان ذلک علامه علی أنه أخفق فی تربیه هذا الجیل و هذا یعدّ عیبا شدیدا فی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم - و حاشاه من ذلک - الذی لم یستطع أن یربی جیلا واحدا فهو أعجز من أن یربّی أمّه!!! و الرسول صلوات اللّه و سلامه علیه منزّه عن مثل هذا... و قد سئل علیّ لما ذا کثرت الفتن فی عصره و لم تکثر فی عصر أبی بکر و عمر فقال رضی اللّه عنه:" لما کانوا هم الخلفاء کنت أنا الرعیه فأطعنا و لمّا صرت أنا الخلیفه کنتم أنتم الرعیه فعصیتم".

إذا کان الصحابه یتواصون بالتدقیق فی مسأله الاجتهاد بعد الشروط التی ذکرناها کلها، کما کانوا یتواصون فیما بینهم بالتریّث و الفهم الشدید و عدم العجله فی الإفتاء، فها هو عمر لمّا أرسل کتابه لأبی موسی قال له بعد أن أمره أن یتتبع نصوص القرآن و السنّه فإن لم یجد، قال له:" الفهم، الفهم فیما تلجلج فی صدرک مما لیس فی کتاب اللّه و سنّه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، أی لا تستعجل، تریّث و فکّر و تأمّل.

و لا بد من الإشاره إلی أنّ سیدنا عمر رضی اللّه عنه هو أول من فصل سلطه القضاء عن رئاسه الدوله، ففی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و عهد أبی بکر کان کل منهما رئیس الدوله و القاضی فی آن واحد. و فی عصر عمر، عند ما اتسعت الفتوحات و لم یعد یجد الوقت کافیا لأن یجلس مجلس القضاء و مجلس إداره أمور المسلمین، عندئذ فصل سلطه القضاء عن سلطه رئاسه الدوله و عیّن أول قاض أثناء خلافته و هو جریج رضی اللّه عنه... و کان الصحابه لا یجیبون علی سؤال فرض لم یقع بعد، فإذا سألهم سائل عن مسأله ما، کان أحدهم یجیب: "هل وقعت هذه المشکله التی تسأل عنها؟ فإن قال لا ما وقعت بعد و لکننا نحب أن نعلم إن وقعت هذه المشکله ما ذا نصنع! کان الصحابی یجیب:" إذا وقعت فاسألوا عنها أمّا الآن فقد کفانا اللّه مهمه البحث فی أمر لم یقع ".فهم لا یریدون توسیع نطاق الاجتهاد إلی أکثر من الحد الضروری، و هذه سیاسه کانت متّبعه من قبل جمیع علماء ذاک العصر.

سؤال: هل وقع الخلاف فى الاجتهاد فى أحكام الشريعه الإسلاميه و متى وقع و لما ذا؟ الجواب: أمّا فى عصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فالخلاف لم يقع و لا سبيل أصلا للخلاف ما دام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حى يمكن الرجوع إليه فى أى أمر. و بعد وفاته عليه الصلاه و السلام، بدأ الخلاف الاجتهادى يظهر فى بعض المسائل الفرعيه التى لا تتعارض مع أصول الدين للأسباب التاليه:

أولا: تفاوت الصحابه فى روايه الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كل حسب وضعه و مقدار تفرغه و ملازمته له. و نتيجه لذلك كان إذا وقعت مشكله، تساءل الصحابه عن حكمها، و الذى لم يسمع من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذا الأمر شيئا، يفتى بظاهر القرآن. أما الذى حفظ و روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قدرا أكبرا فهو يذكر أنّ هذا الموضوع قد أوضح النبى عليه الصلاه و السلام حكمه، فهو يختلف فى فتواه عن الأول الذى لم يسمع و القاعده تقول: من حفظ حجه على من لم يحفظ. من هنا كان لا بد أن يقع الاختلاف فى الفتاوى بين أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم. فكانت إذا عرضت على أبى بكر أو عمر حادثه جديده و لم يسمع من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فيها شيئا، جمع الصحابه و قال:" أنشدكم اللّه رجلا سمع من فم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فتوى فى هذه القضيه ".و كان من عاده عمر رضى اللّه عنه إذا سئل فى موضوع أن يبحث عنه فى كتاب اللّه ثم السنّه فإن لم يكن قد سمع فى المسأله شيئا نادى فى الناس:" من سمع عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذه المسأله شيئا "؟،فإن لم يجبه أحد قال:" هل قضى أبو بكر فى هذا الموضوع من قبلى شيئا "؟فإن قال له قائل إنّ أبا بكر قد سئل و قضى فى هذا الأمر بكذا، قضى عمر بمثل ما قضى به أبو بكر رضى اللّه عنهما و إلا اجتهد عمر.

مثال: ديه الأصابع، رجل قطعت إصبعه، الخنصر أو البنصر أو السبابه أو الوسطى، ما هو القدر الذى ينبغى أن يؤخذ من الجانى كديه لهذا الإنسان؟ فكر عمر ابن الخطاب رضى اللّه عنه فى الموضوع و هو لا يذكر فى هذا حديثا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فأراد أن يجتهد فى الأمر، و أراد أن يجعل ديه كل إصبع على حسب فائده تلك الإصبع، و لكنه تريّث و أخذ يسأل أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فجاء من أخبره أنّ النبى عليه الصلاه و السلام قضى بأنّ فى كل إصبع عشرا من الإبل متساويه يعنى فى قطع

الأصابع العشره دیه کامله. فرجع عمر رضی اللّه عنه و قال:" إن کدنا لنقضی فی هذا برأینا".

مثال آخر دیه الجنین: سئل سیدنا عمر رضی اللّه عنه عن دیه الجنین، اعتدی إنسان علی امرأه حامل فأسقطت جنینا، ما الجزاء؟ وقف عمر یناشد المسلمین أن یکون فیهم رجلا سمع عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أمرا فی الدیه. معلوم فی القرآن أنّ عقاب من اعتدی علی إنسان و مات، هو القصاص فإن عفا ولیّه تصبح عقوبته دفع الدیه، هذا هو الحکم العام و الجنین یعتبر إنسانا و مات، و علی هذا یأخذ الجانی الحکم نفسه، إما القصاص و إما الدیه... و لکن عمر تریّث، لعل فی سنه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم شیئا خاصا. فقام أحد الصحابه و قال إنّ جمل بن مالک جاء یشکو إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أنه کانت له زوجتان فتخاصمتا فضربت إحداهما الأخری فألقت جنینا میتا، فقضی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم للجنین بغرّه یعنی بنصف عشر الدیه (خمسه من الإبل) فتهلل وجه عمر باسما و قال:" إن کدنا أن نقضی فی هذا برأینا".

ثانیا: عدم الاتفاق علی صحه نسبه حدیث ما إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم.

ثالثا: عدم الاتفاق علی معنی کلمه أو جمله فی کتاب اللّه تعالی أو حدیث المصطفی علیه الصلاه و السلام و ذلک بسبب ورود لفظ یحتمل معنیین.

رابعا: اختلاف الفتوی بسبب الرأی: کانت ترد علی الصحابه أقضیه لا یرون فیها نصا من کتاب أو سنّه و إذ ذاک کانوا یلجئون إلی القیاس و کانوا یعبّرون عنه بالرأی.

خامسا: قیاس الفرع علی الأصل: البعض یری إنّ هذا الفرع یشبه ما نص اللّه تعالی علیه فی آیه کذا.

نعرض لطائفه من أمثله الخلاف بین الصحابه فی بعض الفتاوی:

- عرضت مشکله علی ابن مسعود رضی اللّه عنه: رجل عقد نکاحه علی امرأه و لم ینص فی هذا العقد علی مهر و مات قبل الدخول بها، فما الذی تستحقه هذه المرأه؟ أفتی ابن مسعود بأنّ لها کامل مهرها أی صداق مثلها من النساء. بینما سیدنا علی کرّم اللّه وجهه عند ما سمع بهذه القضیه قال:" أنا أختلف معه فی هذه المسأله، هذه المرأه إذا مات زوجها لیس لها إلا المیراث، تأخذه و لیس لها ما وراء ذلک شیء و علیها العده و لا

صداق لها ".سبب هذا الخلاف أنّ هذه المسأله ليس فيها نص واضح صريح من كتاب اللّه تعالى، كل ما فى الأمر قوله تعالى: لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ، [البقره: ۲۳۶].

يقول سيدنا على رضى اللّه عنه:" أ رأيت لو أنّ زوجها لم يمت و لكن طلق، ليس لها شىء بنص كلام اللّه عز و جل ".فسيدنا على قاس وفاه الزوج على طلاقه لها. قال ابن مسعود:" الرجل الذى يطلق، يطلق بقصد الاختيار و يترتب على ذلك أشياء كثيره، لكن مات الزوج و حبل الزوجيه موجود، و لا يسبب الموت انقطاع الزوجيه عند جمهور العلماء، فالموت لا يقاس على الطلاق لأن الطلاق عمل اختيارى و الموت أمر قصرى".

مسأله أخرى: المرأه التى توفى عنها زوجها و هى حامل، ما عدتها؟ سيدنا عمر رضى اللّه عنه قال: عدتها وضع حملها. و قال سيدنا على و ابن عباس رضى اللّه عنهم: عدتها بأبعد الأجلين، أى أيهما كان أبعد وضع حملها أم مضى أربعه أشهر و عشرا تأخذ به. قال جمهور الفقهاء أنّ عده المرأه تنتهى بوضع حملها و القول بأبعد الأجلين مرجوح، و دليل ذلك ما أخرجه البخارى و مسلم عن سبيعه بنت الحارث الأسلميه أنها كانت تحت سعد بن خوله و هو ممن شهد بدرا فتوفى عنها فى حجه الوداع و هى حامل، فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاه زوجها، فلما طهرت من دم النفاس تجمّلت للخطّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها:" ما لى أراك متجمّله، لعلك ترجين النكاح؟ و اللّه ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعه أشهر و عشرا "!قالت سبيعه:" فلما قال لى ذلك جمعت علىّ ثيابى حين أمسيت، فأتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسألته عن ذلك، فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى و أمرنى بالتزوج إن بدا لى ".و قد روى أنّ ابن عباس رجع إلى حديث سبيعه لما احتجّ به عليه.

أبرز من كانت إليهم الفتيا فى عصر الصحابه: الخلفاء الراشدون و سيدنا عبد اللّه بن مسعود و زيد بن ثابت و عبد اللّه بن عباس و عبد اللّه بن عوف و عبد اللّه بن عمر و هؤلاء التسعه كانوا فى ذلك العصر بمثابه الأئمه الأربعه فى عصرنا.

أسئله و أجوبه:

سؤال: لما ذا انحصرت الفتيا ببعض الصحابه و لم يفتوا كلهم؟.

الجواب: لأن عامه الصحابه لا وقت و لا قدره لهم على الاجتهاد، فمنهم من كان يشتغل بالزراعه و منهم من كان يشتغل بالتجاره و منهم من كان يشتغل بالجهاد و هكذا و حتى يصل الإنسان لرتبه يستطيع معها الاجتهاد لا بد له من علم غزير و ذلك يحتاج عاده إلى وقت و تفرّغ. فكان عامه الصحابه يأخذون بفتاوى واحد من هؤلاء التسعه غالبا كما نأخذ نحن اليوم بفتاوى واحد من الأئمه الأربعه.

سؤال: لما ذا لم يمد اللّه تعالى بحياه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ليجيب على هذه الأسئله التى حدثت و استجدت فى عصر الصحابه؟.

الجواب: لكى يعلّم اللّه سبحانه و تعالى هذه الأمه الاجتهاد و كيفيه استنباط الأحكام من النصوص و حتى يخفف عنها لأن فى اختلاف الفقهاء سعه.

سؤال: الحكم فى شرع اللّه تعالى أ ليس واحدا؟ فكيف لنا أن نأخذ بقول أكثر من إمام؟.

الجواب: إنّ اللّه تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، فإذا عمّيت علينا دلائل حكم شرعى و تشابهت الأدله و لم نستطع أن نصل إلى الحكم بيقين، فإنّ من رحمه اللّه تعالى بعباده أنه لا يطالبهم إلا ببذل الجهد فى معرفه حكمه تعالى. مثال ذلك: الاجتهاد فى القبله فى الصلاه، هى حقيقه واحده و لكن فى حال لم تتبيّن و لم يتمكن لأربعه أشخاص من تحديدها جاز لكل واحد منهم أن يصلى إلى جهه ما، حسب اجتهاده الشخصى و صلاتهم صحيحه بالاتفاق حتى و لو صلى كل واحد منهم إلى جهه مختلفه عن جهه الآخر.

سؤال: يدّعى أحمد أمين فى كتابه فجر الإسلام: كان بعض من هؤلاء الصحابه عندهم روح واسعه لفهم النص و كانوا يتجاوزون النص إلى ما يسميه علماء القانون اليوم بروح النص. و يقول أحمد أمين إنّ فى مقدمه هؤلاء عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه. فعمر كان عبقريا و كان لا يقف عند حرفيّه النص بل كان يتجاوزه إلى المصالح و إلى العلل و إلى روح التشريع الإسلامى. ها هو فى أكثر من حاله خالف النص و عمل بالمصلحه، مثال ذلك كما يدّعى أحمد أمين:

١ - قال اللّه تعالى: * إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ وَ فِى الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَهً مِنَ اللّهِ وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)، (التوبه: ٦٠).. عطّل عمر سهم المؤلفه قلوبهم لما فى ذلك من فهم و مراعاه لواقع المسلمين و مصلحتهم.

۱ - قال اللّه تعالى: * إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللّهِ وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶۰)، (التوبه: ۶۰).. عطّل عمر سهم المؤلفه قلوبهم لما فى ذلك من فهم و مراعاه لواقع المسلمين و مصلحتهم.

۲ - يقول اللّه تعالى: وَ السّارِقُ وَ السّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما ، [المائده: ۳۸]، سرق بعض الناس فى عام المجاعه متاعا فلم يقم عليهم عمر الحد.

۳ - قضى عمر بأنّ الرجل الذى قال لزوجته أنت طالق ثلاثا بكلمه واحده، تطلق ثلاثا، و هذا مخالف لقوله تعالى: اَلطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ... ، (البقره: من الآيه ۲۲۹)، و مخالف لحديث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم الصحيح الذى رواه مسلم عن ابن عباس رضى اللّه عنهما:" كان الطلاق على عهد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، طلاق الثلاث واحدا، و كان ذلك فى خلافه أبى بكر و صدرا من خلافه عمر، فقال عمر لقد استعجل الناس فى أمر كانت لهم فيه أناه فمن استعجل أناه اللّه ألزمناه به. فطلاق الثلاثه بكلمه واحده يعتبر ثلاث طلقات. و يضيف أحمد أمين فيقول، إنّ عمر فى كل ذلك إنما كان عبقريا و ذكيا لأنه لم يتمسك بحرفيه النص و إنما رأى المصلحه و جرى وراءها و إن خالفت النص و هذا هو المطلوب كما يزعم أحمد أمين. فهل كان من بين الصحابه من كان يتجاوز حرفيّه النصوص و يأخذ بروح النص كما يقول بعض الناس اليوم، و يأخذ بالمصالح التى تعتمد عليها النصوص، بمعنى آخر هل كان الصحابه أصحاب نزعه تحرريه؟.

الجواب: كلام أحمد أمين المضلل قد يدفعنا بناء لما تقدم إلى القول بأنّ الربا حلال و المتاجره بالخمر و السّلم مع اليهود كذلك!، و أما القول أن المصلحه قد تكون فى مخالفه النص من كتاب اللّه تعالى، فهذا كفر و العياذ باللّه تعالى، لأنه من أعلم بمصلحه الناس من رب الناس، من خالق الناس الذى يعلم سرهم و نجواهم و يعلم ما كان و ما سيكون و ما لم يكن و لو كان كيف يكون. و الحقيقه أنه ما وجد قط إنسان أكثر حيطه فى التمسك بالنص و حرفيته من عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه. فقد مر معنا من خلال الأمثله التى ذكرناها سابقا فى هذا البحث كيف كان ينادى بالناس هل منكم من سمع من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم شيئا فى هذا؟!!.. لكن من الذى يستطيع أن يطبق النص؟ إنّ أقدر الناس على

تطبیق النص، أفهمهم للنص و أعرفهم و أعلمهم للقواعد العربیه و أصول الدلالات فی منطوق النص و مفهومه الموافق و مفهومه المخالف و دلاله الخطاب و فحواه. و عمر کان من أعلم الناس بقواعد تفسیر النصوص، و تعالوا ننظر معا ما ذا فعل عمر؟.

بالنسبه لقوله تعالی: * إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَهِ قُلُوبُهُمْ وَ فِی الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِی سَبِيلِ اللّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَهً مِنَ اللّهِ وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶۰)، (التوبه: ۶۰).. هناک فی اللغه العربیه اسم موصول للفقراء أی للذین یتصفون بالفقر، للمساکین أی للذین یتصفون بالمسکنه، للعاملین علیها أی للذین یقومون بجبایه الزکاه، للمؤلفه قلوبهم أی للذین تشعرون بالحاجه إلی أن تؤلفوا قلوبهم... الفقراء، إن زال الفقر عنهم لن یعودوا أهلا لأخذ الزکاه، و مناط وجوب إعطاء الزکاه للمؤلفه قلوبهم أن یشعر المسلمون أنهم بحاجه إلی تألیف قلوب من وفدوا إلی الإسلام من جدید. إذا مناط الحکم أن ننظر إلی واقعنا، فإذا کان هذا الواقع عزیز قوی و کان من دخل فی الإسلام، وحده یعزه و یغنیه و یحمیه، إذا وجدنا أنّ الأمر کذلک فإنّ مناط دفع الزکاه إلیهم ارتفع. أما إن کان الإسلام فی ضعف فیکون حکم إعطاء الزکاه للمؤلفه قلوبهم عندئذ ساریا، و قد کان الإسلام فی عهد عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه عزیزا لا بل فی أعزّ أحواله.

بالنسبه للمسأله الثانیه، و هی أنّ رجلا سرق فی عام المجاعه و کان أجیرا و علم عمر أنّهم کانوا یبخسون حقه فقال لهم: "و اللّه لو لا أنی أعلم أنکم تظلمونه و لا تعطونه حقه لقطعت یده" ،و الآن عام مجاعه، فجمعا بین النصوص التالیه: قوله تعالی: وَ السّارِقُ وَ السّارِقَهُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما... ، (المائده: من الآیه ۳۸)، و قوله صلّی اللّه علیه و سلّم: (ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم فإنّ الحاکم لأن یخطئ فی العفو خیرا من أن یخطئ فی العقوبه)، و هذا قانون عام فی القضاء و بدلا من العقوبه یعزّر القاضی المذنب و یعاقبه و لکن لا یقطع یده. إذا عمر عمل بالنص و لکنه علم بالحدیث الذی خصص الآیه و قضی بموجبه و لیس کما زعم الجاهل بأنه ترک النص و تبع المصلحه التی رآها مناسبه و فی ذلک دلیل علی أنّ الحدیث یبین و یشرح کلام اللّه تعالی الذی قال فی کتابه العزیز:

وَ أَنْزَلْنا إِلَيْکَ الذِّکْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، [النحل: ۴۴]. هذا من جهه و من

جهه أخرى، فإنّ للسرقه نصابا حتى تقطع يد السارق فإن سرق شيئا قيمته دون النصاب يعزّر و لا تقطع يده. و المبلغ الذى سرقه الرجل ربما ليس بذاك المبلغ الكبير أو احتمال أن يكون سرقه ليسد ضروره و الضرورات تبيح المحظورات.

و ينبغى قبل أن نطبق هذه القاعده أن نعلم ما معنى الضروره و ما الفارق بين الضرورات و الحاجيات و التحسينيات؟. و قد بيناها فى بدايه الفصل الأول من الكتاب.

و أما المسأله الثالثه، فقوله تعالى: اَلطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ... ، (البقره: من الآيه ٢٢٩)، لا علاقه له بالموضوع الذى أفتى به عمر، و إنما هى بيان للطلاق و أنه ينبغى أن يفرق بين الطلقه و الأخرى و إلا كان آثما، أى من طلق زوجته ثلاثا فى مجلس واحد كان آثما. أما من لم يتق اللّه تعالى و ارتكب المحرّم فقال لزوجته أنت طالق بالثلاث فهذا لن يجعل اللّه تعالى له مخرجا لأن اللّه تعالى قال:

وَ مَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢)، و هذا لم يتق اللّه تعالى، و ارتكب الحرام و طلق زوجته ثلاثا بمجلس واحد، لم يجعل اللّه له مخرجا. فإذا القرآن يقضى بأن من طلق زوجته ثلاثا فى مجلس واحد فهو ثلاث و هناك أحاديث صحيحه كثيره نصّت على أنّ الرجل إن طلق ثلاثا فى مجلس واحد فهو ثلاث و لكنه طلاق بدعى مكروه، و من ذلك حديث رواه الشيخان عن عويمر العجلانى رضى اللّه عنه و قد اتهم زوجته بالزنا، و جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، فدله على الملاعنه التى أنزلها اللّه تعالى فى محكم كتابه. و لكنه لم يكن يعرف أنّ نتيجه الملاعنه التفريق الأبدى، و عند ما علم ذلك جلس أمام ركبتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و قال: "يا رسول اللّه كذبت عليها إن أمسكتها هى طالق ثلاثا" .فإذا عويمر العجلانى طلق زوجته فى مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ثلاثا بكلمه واحده، و لو لا أنّ هذا كان جاريا فى عصر النبوه لما قال ذلك.

و حديث فاطمه التى قالت لسيدنا عمر طلقنى زوجى البته فلم يجعل لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نفقه و لا سكنى، كلمه البته كنايه عن ثلاث طلقات و فى ذلك دليل أنّ النبى عليه الصلاه و السلام أفتى أنه طلقها ثلاثا.

أيضا ما رواه الشافعى و الترمذى و النسائى و كثيرون عن ركانه رضى اللّه عنه أنه طلق زوجته قائلا أنت طالق البته، و جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم نادما فقال له رسول اللّه

صلّى اللّه عليه و سلّم: "آللّه (أى أقسم عليك باللّه) ما أردت (بكلمه البته) إلا واحده؟، فقال ركانه:

" و اللّه ما أردت بها إلا واحده ".فأعادها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم له، فلو لم تكن كلمه البته تعنى ثلاثا لما سأل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم ركانه ما ذا أراد من قوله البته، و لو لم يكن طلاق الثلاثه فى المجلس الواحد يقع لما سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ركانه عن قصده بكلمه البته. أما حديث مسلم الذى يرويه عن طاوس و عن ابن عباس:" كان طلاق الثلاث على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم واحده فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و فى عهد أبى بكر و فى صدر من خلافه عمر ثم قال عمر إنّ الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناه، فمن استعجل أناه اللّه ألزمناه بها"، قال ابن جرير الطبرى فى شرح هذا الحديث و أبو وليد الباجى و النووى فى شرحه على صحيح مسلم، معناه أى كان الرجل فى صدر الإسلام إذا أراد أن يطلّق زوجته ثلاث تطليقات لا يستعمل إلا نفس اللفظه أى لفظه البته فيقول:" أنت طالق البته "،و إذا أراد أن يطلق طلقه واحده قال:" أنت طالق البته ".فالبته كنايه عن طلقه واحده أو ثلاث حسب النيه، و كان الشائع الأغلب فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و فى عهد أبى بكر و شطر من عهد عمر أنه يقصد بذلك طلقه واحده. هذا هو الغالب و العام لأنه نادر جدا من الصحابه من طلق ثلاث مرات دفعه واحده لأنّ ذلك محرّم. فكان الرجل إذا جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أو أبى بكر و قال له إنى طلقت زوجتى البته، صحيح أنّ البته كنايه عن طلاق الثلاث و لكن الشائع الأغلب أنه يقصد بها واحده، لذلك كان يسأل عن نيته، فإذا قال واحده حكم له بواحده. و لمّا كانت خلافه عمر تغيّر حال الناس و أخذ كثير من الناس يطلق ثلاث طلقات بكلمه واحده، و شاع بينهم استعمال لفظ البته على الثلاث، لذلك حكم عمر على من قال له إنى طلقت زوجتى البته أنه طلقها ثلاثا إلا أن يقسم أنه ما قصد إلا واحده ذلك لأننا نحكم على الألفاظ حسب العرف فإذا كان عرف الناس أن يطلّقوا طلاق البته و يقصدون به ثلاثا وقع ثلاثا كما أصبح العرف فى عصرنا لمن قال لزوجته أنت علىّ حرام وقع طلاقا و هذا اللفظ فى أصله كنايه و لكن لما شاع استعمال الناس له على أنه طلاق أصبح يفتى لمن قال هذا اللفظ لزوجته أنه طلقها. و هذا الذى قال به عمر من أن من طلق زوجته ثلاثا فى مجلس واحد وقعت ثلاث تطليقات و بانت منه بينونه كبرى و هو ما قاله جمهور علماء الحديث و أجمعت عليه الأمه. إذا هذا الحديث فى واد و ما استدلّ عليه و فهمه أحمد أمين فى واد آخر!

شبهه أخرى: عند ما انتصر جيش عمر فى القادسيه بقياده سعد بن أبى و قاص و فتح المسلمون العراق، غنم المسلمون غنائم كثيره و أموال منقوله و غير منقوله. أمّا الأموال غير المنقوله فقد اعتبرت أنها سواد العراق و هى مثل غوطه دمشق أراض واسعه شاسعه كلها مزروعه. سيدنا عمر قسم الأموال المنقوله على الجيش و لكنه لم يقسم السواد و ذلك بعد أن شاور الصحابه مثل سيدنا معاذ و على و عثمان و جمهور الصحابه كانوا معه فى ذلك... و يقول بعض المستشرقين: تعاطى عمر مع روح النص حين فعل ذلك لأنه خلاف الآيه القائله: * وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْ ءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ ، [الأنفال: ۴۱].

الجواب على هذه الشبهه ما يلى: قال عمر و وافقه على ذلك جمهور الصحابه، لو قسمنا هذه الأراضى الشاسعه سيمتلكها المسلمون فى هذا العصر و تأتى الأجيال الأخرى و ليس لهم شىء، فرأى أنه من الخير أن تكون هذه الأراضى ملكا لبيت مال المسلمين حتى تستغنى الأجيال به إلى ما شاء اللّه. و لكن يا ترى هل تجاوز عمر بذلك النص؟..

قال تعالى: ما أَفاءَ اللّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ ، [الحشر: ۷]... وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ ، [الحشر: ۱۰]. إذا استنادا على قول اللّه تعالى هذا تعطى هذه الأموال غير المنقوله للّه أى للمصالح العامه و للرسول (و من بعده لبنى هاشم) و لذى القربى و اليتامى و المساكين و الفقراء و الأجيال الآتيه من بعدهم، لقوله تعالى:

وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ... ،. لذلك قال عمر إذا وزعت هذه الأراضى الآن و امتلك كل واحد منكم قسما منها، كيف يمكن أن أنفذ أمر اللّه فى أن أجعل فى هذه الأراضى حصصا للأجيال القادمه؟!!! أما ما جاء فى سوره الأنفال، فالمقصود به الغنائم المنقوله. و الآن بعد هذا التوضيح أ ليس هذا تمسّكا بالنص من سيدنا عمر؟ و لكن من يفقه؟ و من يعلم كيف يستخرج الأحكام من النصوص؟ و هذا لا يعنى أنّ الإنسان لا يبحث عن المصلحه و لكن المصلحه تكون مع النص لأنّ اللّه تعالى أعلم أين تكون مصلحه العباد. أمّا ما ليس فيه نص كالمصالح المرسله، فها هو عمر الذى خطط لبناء الكوفه و البصره حيث أرسل مهندسه و أمر أن تكون الشوارع الأساسيه عرض ۳۰ ذراع و الشوارع الفرعيه عرض

۲۰ ذراعا، و البیوت التی تبنی علی الشوارع الأساسیه لا مانع من أن یکون ارتفاعها عالیا و البیوت التی من ورائها أخفض.

عند ما فتحت العراق و الشام جمع عمر مجلس شوراه و قال لهم رأیت التجاره بأیدی الأقباط و إنی آمرکم أن تتجروا فقال له بعض الحاضرین یا أمیر المؤمنین أمر کفیناه أی الأقباط کفونا العمل، کأنه یقول أنّ اللّه تعالی جعلهم خدّاما لنا، فلما ذا نتاجر؟ قال عمر:" لأن قلتم هذا و اللّه لیکوننّ رجالکم تبعا لرجالهم و لیکوننّ نساؤکم تبعا لنسائهم ".فإذا کان عمر کغیره من الصحابه الکرام یهتم بمصلحه المسلمین، و هذه الأمثله التی ذکرناها من المصالح المرسله. أما إذا کان هناک نص، فکان عمر و باقی الصحابه أکثر من یتمسک به لأنهم یعلمون حقا أن المصلحه مع النص أَ لا یَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِیفُ الْخَبِیرُ (۱۴)، [الملک: ۱۴].

۳ – الدور الثالث: التشریع فی عهد صغار الصحابه و التابعین

اشاره

یبتدئ هذا الدور من ولایه معاویه بن أبی سفیان رضی اللّه تعالی عنه، أی فی بدایه العهد الأموی سنه ۴۱ هجریه إلی أوائل القرن الثانی من الهجره.

مییزات و خصائص هذا الدور:

۱ – تفرّق المسلمین سیاسیا و اتساع نطاق الخلاف لظهور نزعتین سیاسیتین بعد مقتل عثمان رضی اللّه تعالی عنه و هما: الخوارج و شیعه علی (و هی فئه سیاسیه، أی لها بعض الآراء السیاسیه المعینه لا أنها کانت تخالف المسلمین فی بعض أمور الدّین کحال الشیعه فی عصرنا، أما الشیعه کمذهب دینی کما هو فی عصرنا لم یکن له وجود فی ذلک العصر و لم یظهر هذا المذهب إلا فی القرن الثالث الهجری).

۲ – انتشار الصحابه فی البلاد بعد أن کانوا محصورین بین مکه و المدینه و ذلک لاتساع رقعه الإسلام و الاحتیاج إلی فتاوی جدیده و بالتالی إلی سماع الأحادیث.

۳ – ظهور الکذب فی الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و ذلک للأسباب التالیه:

أ – وجود الزنادقه و أعداء الدین من الیهود (کعبد اللّه بن سبأ) و الروم و المزدکیه و غیرهم الذین کانوا یکیدون للإسلام باطلا، و هؤلاء لبسوا مسوح الإسلام و کانوا یظهرون التّدین و یجلسون مجلس الروایه عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم لیستمعوا الأحادیث ثم یجلسون

مجالس أخرى يعلّمون الناس فيها أحاديث مكذوبه. و قد تلبّس كثير من هؤلاء المجرمين بالجرم المشهود فعوقبوا و أنزلت بهم الخلافه الإسلاميه آنذاک أشد العقوبات فكان أحدهم يقول قبل أن يقتل لينفّس عن غيظه: أين أنتم من الأحاديث التى وضعتها فيكم أحرّم الحلال و أحلّ الحرام.

ب - انتصار المتعصبين لمذاهبهم كدعاه المبتدعه: يروى عبد اللّه بن ذريعه يقول:

قال لى شيخ من الخوارج تاب:" إنّ هذا الحديث دين، فانظروا عمّن تأخذون الحديث، فإنّا كنا إذا رأينا رأيا جعلناه حديثا "...و كذا من فئه الشيعه، ورد أنّ جابر الجم و هو ممن غالى من التشيع قال أنا عندى خمسون ألف حديث، يرويها ابتداعا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

ج - العاطفه الإسلاميه الفجه التى لا تضبطها قواعد العلم، كالتى نجدها عند جهله المتعبدين الذين وضعوا الأحاديث فى الفضائل و غيرها. أراد بعض الجهله أن يرغّبوا العامه فى الجنه و يخوّفوهم من النار، فأخذوا يضعون (أى يختلقون) الأحاديث و هم يقولون إذا وقعوا بيد العلماء:" نحن نكذب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لا نكذب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم"!.

د - رغبه بعض الفسقه من المحدثين فى جمع عدد كبير من الناس حولهم فى المساجد و تنافسهم فيما بينهم لجعل حلقه الواحد منهم أكبر من حلقه غيره، و هذه الظاهره نجدها حتى فى عصرنا اليوم فتجد واحدا ممن ادعى العلم يروى الأحاديث الموضوعه و المكذوبه فى دروسه و عامه الناس لا يعرفون لا بل يظنونه من كبار العلماء! و كان العلماء يحذّرون من مجالسه هؤلاء القصاصين.

فائده: من علامات الحديث الموضوع ما يلى:

١ - ذكر أعداد كثيره (سبعون ألفا مع كل ألف...).

٢ - الأجر الكثير على العمل القليل.

٣ - قصص عن سيدنا موسى و سيدنا داود عليهما السلام.

۴ - الأحاديث المتعلقه بفضائل بعض السّور المذكوره فى بعض كتب التفاسير، أما الأحاديث الوارده فى فضل سوره البقره و آل عمران و الكهف و يس و تبارک و الإخلاص و ما شابه فيحتج بها.

من هنا كان لا بـد من صـحوه المسـلمين لمجابهه هـذا الخطر، فمنعوا روايه الحـديث و حصـروها فيمن كانوا أهلا لـذلك. و بدأ تدوين السنّه بأمر من عمر بن عبد العزيز، ففى عام ۹۹ هجريه كان أبو بكر بن حزم أول من دوّن أحاديث النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم و جمعها بين دفتى كتاب و من ثم تبعه الكثيرون كسـفيان بن عيينه و غيره. و باشر العلماء أيضا بتدوين العلوم الكفيله بحفظ الروايه كعلم الجرح و التعديل، و وضع شروط الروايه و شروط الحديث الصحيح و الحسن و الضعيف و المرسل و الموقوف... و فى ما يلى نورد بعض التعاريف المهمه المتعلقه بعلم مصطلح الحديث:

نبذه عامه بمصطلح الحديث:

اشاره

لقد تواترت الأحاديث عن النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم كما نعلم، فى وجوب الأخذ بهديه فى كل شـىء من الأمور، و من ذلك قوله صـلّى اللّه عليه و سـلّم:" عليكم بسـنتى و سـنه الخلفاء المهـديين الراشـدين، تمسـكوا بها و عضوا عليها بالنواجذ، و إياكم و محدثات الأمور فإن كل محدثه بدعه، و كل بدعه ضـلاله "...و النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم قد حض على اتباع سنته لما فيها من مضاعفه الأجر:

قال صـلّى اللّه عليه و سـلّم:" من أحيى سـنه من سـنتى قـد أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا "،أخرجه الترمذى. و عنه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:

" المتمسك بسنتى عند فساد أمتى له أجر مائه شهيد "،أخرجه الطبرانى فى الأوسط و البيهقى فى الزهد.

لـذلك عنيت الأمه الإسـلاميه بالحـديث النبوى، و بـذلت من أجله أعظم الجهـد. فقد نقل لنا الرواه أقوال الرسول عليه الصـلاه و السـلام فى الشـئون كلهـا العظيمه و اليسـيره، بل الجزئيات التى قـد يتوهم أنها ليست موضع اهتمام، حتى يـدرك من يتتبع كتب السـنه أنها ما تركت شـيئا صدر عنه صلّى اللّه عليه و سلّم إلا روته و نقلته. و لقد علم الصحابه بقياده الخلفاء أنهم خرجوا هداه لا جباه، فأقام الكثير من الصحابه الفاتحين فى أصقاع متفرقه ينشرون العلم و يبلّغون الحديث.

و نجـد هـذا الحرص، يسـرى من الصـحابه إلى التـابعين فمن بعـدهم... من هنا تقرر للناظر حقيقه لها أهميتها، و هى أن الصـحابه رضوان اللّه عليهم أجمعين يرجع إليهم الفضل فى بدء علم الروايه للحديث، ذلك لأن الحديث النبوى فى حياه المصطفى كان

علما يسمع و يتلقّف منه صلّى اللّه عليه و سلّم - كما مر معنا - فلما لحق صلّى اللّه عليه و سلّم بالرفيق الأعلى، حدّث عنه الصحابه بما وعته صدورهم الحافظه و رووه للناس بغايه الحرص و العنايه، فصار علما يروى و ينقل، و وجد بذلك علم الحديث روايه حيث وضع الصحابه له قوانين تحقق ضبط الحديث، و تميز المقبول من غير المقبول و من هنا نشأ علم مصطلح الحديث.

تعريف الحديث:

هو" ما أضيف إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقى أو خلقى... و معنى علم الحديث كتعبير لغوى إدراك الحديث، و لكنه استعمل عند العلماء كاصطلاح يطلقونه بإطلاقين:

أحدهما: علم الحديث روايه أو روايه الحديث.

و الثانى: علم الحديث درايه أو علم درايه الحديث.

علم الحديث روايه: "هو علم يشتمل على أقوال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أفعاله و تقريراته و صفاته و روايتها و ضبطها و تحرير ألفاظها" .فهو علم موضوعه ما أضيف إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و يبحث عن روايتها و ضبطها و دراسه أسانيدها و معرفه حال كل حديث، من حيث القوه و الضعف. كما يبحث فى هذا العلم عن معنى الحديث و ما يستنبط منه من الفوائد.

باختصار، فعلم الحديث روايه يحقق بذلك غايه عظيمه جدا تقوم على "الصون عن الخلل فى نقل الحديث".

علم الحديث درايه: و يطلق عليه "مصطلح الحديث" ،و هو: "علم بقوانين يعرف بها أحوال السند و المتن".

و السند هو حكايه رجال الحديث الذين رووه واحدا عن واحد إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

و أحوال السند: هى ما يطرأ عليه من اتصال، أو انقطاع، أو تساهل بعض رجاله فى السماع، أو سوء الحفظ، أو اتهامه بالفسق أو الكذب أو غير ذلك.

و أما المتن: فهو ما ينتهى إليه السند من الكلام. و أحوال المتن، هى ما يطرأ عليه من رفع، أو وقف، أو شذوذ أو عله، أو غير ذلك. فعلم المصطلح يضبط روايه الحديث و يحفظ الحديث النبوى من الخلط فيه أو الافتراء عليه، و لو لا هذا العلم لاختلط الحديث الصحيح بالضعيف و الموضوع و لاختلط كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بكلام غيره!. و يعتبر القرن الثالث الهجرى عصر التدوين الذهبى للسنّه، و فيه أصبح كل نوع من أنواع الحديث علما خاصا، فأفرد العلماء كل نوع منها بتأليف خاص. و لقد توالت سلسله الجهود

العلميه متواتره متضافره لحمل الحديث النبوى و تبليغه علما و عملا، فنا و دراسه و شرحا، منذ عهد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى عصرنا الحاضر، و إنها حقا لمكرمه عظيمه أكرم اللّه بها هذه الأمه، بل هى معجزه تحقق صدق التنزيل: إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ (٩)، [الحجر: ٩]. قال الحافظ أبو على الجيانى: "خص اللّه تعالى هذه الأمه بثلاثه أشياء لم يعطها من قبلها: الإسناد، و الأنساب، و الإعراب".

أهم مراتب الحديث من حيث القوه و الضعف:

١ - الحديث الصحيح: هو الحديث الذى اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط من أوله إلى منتهاه، دون شذوذ أو عله.

فالعداله و الضبط يحققان أداء الحديث كما سمع من قائله، و اتصال السند على هذا الوصف من الرواه يمنع اختلال ذلك فى أثناء السند، و عدم الشذوذ يحقق و يؤكد ضبط هذا الحديث الذى نبحثه و أنه لم يدخله و هم، و عدم الإعلال يدل على سلامته من القوادح الخفيه، فكان الحديث بذلك صحيحا لتوفر النقل الصحيح، فيحكم له بالصحه إجماعا.

٢ - الحديث الحسن: هو الحديث الذى اتصل إسناده بنقل عدل خفّ ضبطه فهو كالحديث الصحيح إلا أنّه فى إسناده من خفّ ضبطه.

بالمقارنه بين هذا التعريف، و بين تعريف الحديث الصحيح، نجد أن راوى الحديث الصحيح تام الضبط، أما راوى الحديث الحسن فهو خف ضبطه.

فالمقصود أنه درجه أدنى من الصحيح، من غير اختلال فى ضبطه و ما كان كذلك يحسن الظن بسلامته فيكون مقبولا.

٣ - الحديث الضعيف: هو الحديث الذى فقد شرطا من شروط الحديث المقبول من عداله أو ضبط أو اتصال أو سلامه من الشذوذ و العله.

٤ - الحديث الموضوع: هو المختلق المصنوع. أى الذى ينسب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كذبا، و ليس له صله حقيقيه بالنبى صلّى اللّه عليه و سلّم، و هو ليس بحديث.

٥ - الحديث الموقوف: هو ما أضيف إلى الصحابه رضوان اللّه تعالى عليهم. سمّى موقوفا لأنه وقف به عند الصحابى، و لم يرفعه إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. و بعض العلماء يطلقون على الموقوف اسم الأثر.

۶ – الحديث المقطوع: هو ما أضيف إلى التابعى.

۷ – الحديث المرسل: هو ما أضافه التابعى إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، بأن يقول: "قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم" سواء كان التابعى كبيرا أو صغيرا.

علم الجرح و التعديل:

الجرح عند المحدثين هو الحكم على راوى الحديث بالضعف لثبوت ما يسلب أو يخل بعدالته أو ضبطه. و التعديل هو عكسه، و هو تزكيه الراوى و الحكم عليه بأنه عدل ضابط.

فعلم الجرح و التعديل هو ميزان رجال الروايه، به نعرف الراوى الذى يقبل حديثه و نميزه عمن لا يقبل حديثه. و من هنا اعتنى به علماء الحديث كل العنايه، و بذلوا فيه أقصى جهد، و تكبدوا المشاق، ثم قاموا فى الناس بالتحذير من الكذابين و الضعفاء المخلطين و لقد انعقد إجماع العلماء على مشروعيته، بل على وجوبه للحاجه الملجئه إليه.

و لقد اشترطت شروط لا بد من أن تتوفر فى الجارح و المعدل لكى تجعل حكمه منصفا كاشفا عن حال الراوى، كالعلم، و التقوى، و الورع، و الصدق، و اليقظه التى تحمله على التحرى و الضبط و أن يكون عالما بأسباب الجرح و التعديل و بتصاريف كلام العرب فلا يضع اللفظ لغير معناه.

و لقد تعجب علماء الغرب و قالوا نحن لا نتصور أنّ أى حضاره ينشأ فيها علم كهذا، لأنه علم يحتاج إلى جهد كبير و إنفاق الأموال و السفر... و لكن لو علموا كيف كان حب المسلمين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و كيف كان الواحد منهم يفديه بروحه كما فعل ذاك الصحابى فى معركه أحد و هو سيد الأنصار، حيث جعل من نفسه و صدره و وجهه درعا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، و عند ما انتهت المعركه أرسل النبى عليه الصلاه و السلام يتفقده، جاءه الصحابه فوجدوه ملقيا على الأرض على شفير الموت، سألوه عن حاله فقال لهم: "كيف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؟ قالوا: بخير، قال: إذا أنا بخير و الحمد للّه، بلّغوا عنى الأنصار، لأن متم جميعا فداء للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم خير لكم من أن يجرح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بجرح".

لذلك شعر علماء المسلمين أنهم بعملهم هذا (و هو تدوين السنه) إنما يدافعون عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و عن حديثه، فكان الواحد منهم يشقى نفسه و يفنى عمره بالسهر و التعب و السفر و إنفاق الأموال فى سبيل المحافظه على سنّه الحبيب محمد صلّى اللّه عليه و سلّم، جزاهم اللّه تعالى

عن أمه الإسلام كل خير.

أهم كتب الروايه فى القرنين الثانى و الثالث هجرى:

١ – موطأ مالک:

و يعود تدوين هذا الكتاب إلى منتصف القرن الثانى هجرى، و قد استغرق تصنيفه و جمعه و تحريره أربعين عاما. أما عن تسميته، فقد روى عن الإمام مالك أنه قال: "عرضت كتابى هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينه، كلهم وطّأنى عليه فسمّيته الموطأ، (وطّأ أى وافق)... و قد جمع فى الموطأ ١٧٢٠ حديثا مرفوعا و ۶۰۰ مرسلا و ٢٢٢ موقوفا و أقوال التابعين و فتاويهم. و الموطأ له مكانه عاليه جدا و أغلب ما فيه صحيح. قال الشافعى:" ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب اللّه أصح من موطأ مالك".

و لم يكن كتاب البخارى قد ظهر بعد.

٢ – مسند الإمام أحمد:

دوّنه فى أول القرن الثالث هجرى و يعتبر من أشهر دواوين السنه المشهوره و أجمعها للأحاديث، فقد وضع فيه الإمام أحمد قرابه ثلاثين ألف حديث، انتقاها من نحو سبعمائه و خمسين ألف حديث. و لقد راعى فيه تسلسل نظام الطبقات بالنسبه للصحابه الذين أسند إليهم الحديث، حيث قدّم أولا أحاديث العشره المبشّرين بالجنه و أولهم الخلفاء الأربعه ثم بعدهم أحاديث أهل البيت و أقدم الصحابه إسلاما... أكثر أحاديث المسند صحيحه بل و فيه من الأحاديث الصحيحه زياده على ما فى الصحيحين بل و السنن الأربعه، و فيه الحديث الحسن و الضعيف، و يقال إنّ فيه بعض الأحاديث الموضوعه و لكن ما وجد فيه لا يزيد عن أربعه أحاديث و قد اعتذر عنها بأن تركها الإمام أحمد سهوا، و قد عاجلته منيّته قبل إتمام تنقيح المسند منها، و قيل هى من زياده ابنه عبد اللّه بن أحمد.

٣ – صحيح البخارى:

و يسمى الجامع الصحيح و يعتبر صحيح البخارى عند أهل السنه و جمهور الفقهاء و الأصوليين أصح كتب السنه و الأحاديث على الإطلاق، بل هو عندهم أصح كتاب بعد القرآن الكريم... و يعتبر صحيح البخارى أول كتاب دوّن فى بدايه النصف الثانى من القرن الثالث هجرى، و قد بذل الإمام البخارى فى تصنيف كتابه" الجامع الصحيح "جهدا كبيرا و وقتا طويلا بلغ سته عشر عاما حتى جمعه... و قد اختار أحاديثه من ستمائه ألف حديث، و اقتصر على إخراج الصحيح منها و لم يستوعب كل الصحيح بل اختار منه ما وافق شرطه، و قد ترك من الصحيح أكثر مما أثبته لئلا يطول الكتاب. جمع الإمام البخارى فى كتابه هذا نبذه من أحاديث الأحكام و الفضائل

و الأخبار و الأمور الماضیه و المستقبلیه بالإضافه إلی الآداب و الرقائق و الدعوات و المغازی و السّیر لذلک سمی کتابه بالجامع الصحیح. و ما کان من الأحادیث غیر المسنده مما لم یتصل سنده من المعلقات، مما حذف من أول سنده راو أو أکثر فهذا خارج عن نمط الکتاب و منهجه و موضوعه و مقاصده، و إنما أورده البخاری للاستشهاد فقط فی تراجم أبواب الکتاب و لا یوجد شیء منها فی صلب الکتاب. و مما ینبغی أن یعلم أنّ ما أورده البخاری منها بصیغه الجزم مثل "قال" و "ذکر" و روی "فهذا یفید الصحه إلی من علّق عنه، و أما ما علّقه عن شیوخه بصیغه الجزم فلیس من المعلّق و إنما هو من المتصل و قد یعلّق البخاری الحدیث فی بعض المواضع من الجامع الصحیح و هو بسند متصل فی مکان آخر فی نفس الصحیح و قد یکون الحدیث معلقا عنده فی الصحیح و هو صحیح متصل عند مسلم أو عند غیره من أصحاب کتب السنه المشهوره. أما إذا کان المعلق بصیغه لا تدل علی الجزم و یقال لها صیغه التمریض مثل" قیل "و" یروی "و" یذکر"، فهذا لا یستفاد منه الصحه و لا عدمها بل یحتمل.

أحادیث الجامع الصحیح علی ما حققه ابن حجر بلغت ۲۶۰۲ حدیثا غیر مکررا، و إنّ جمله ما فیه من الأحادیث المکرره سوی المعلقات و المتابعات ۷۳۹۸ حدیثا و جمله ما فیه من المعلقات ۳۴۱ و جمع ما فیه بالمکرر ۹۰۸۲.

أجمع شروحه:

أ - فتح الباری شرح صحیح البخاری للحافظ ابن حجر العسقلانی الشافعی.

ب - عمده القاری بشرح البخاری للعینی الحنفی.

۴ - صحیح مسلم:

یسمی الجامع الصحیح و یعتبر ثانی کتب الصحاح. استغرق جمعه ۱۲ عاما، و قد انتقاه من ثلاثمائه ألف حدیث. جمله ما فی صحیح مسلم دون المکرر أربعه آلاف حدیث و هو بالمکرر یزید علی صحیح البخاری لکثره طرقه. لم یستوعب البخاری و مسلم فی صحیحیهما کل الأحادیث الصحیحه و لا التزما إخراج کل الصحیح و إنما أخرجا من الصحیح ما هو علی شرطهما. فقد روی عن البخاری أنه قال:

" ما وضعت فی کتابی الجامع إلا ما صح و ترکت من الصحاح مخافه الطول ".و قال مسلم:" لیس کل شیء عندی صحیح وضعته هنا و إنما وضعت ما أجمعوا علیه ".إذا فإنّ کثیرا من الأحادیث الصحیحه توجد عند غیرهما من الکتب المعتمده، ممن التزم أصحابها إخراج الصحیح فیها کمستدرک الحاکم و صحیح ابن حبّان و صحیح ابن

خزیمه. و الصحیح أن یقال إنه لم یفت الأمهات الست - الصحیحین و السنن الأربعه (سنن أبی داود و سنن الترمذی و سنن ابن ماجه و سنن النّسائی) - إلا الیسیر من الأحادیث الصحیحه و توجد هذه الزوائد من الأحادیث الصحیحه فی مسند أبی یعلی و البزّار و بقیه السنن الأخری.

۵ - سنن أبی داود:

اعتنی أبو داود بأحادیث الأحکام خاصه و انتقی صحیحه من خمسمائه ألف حدیث و اشتمل علی أربعه آلاف حدیث من أحادیث الأحکام خاصه، لذلک فهو مرجع للفقهاء فی أحادیث الأحکام. و هذا الکتاب هو أول السنن الأربعه و أقدمها منزله بعد الصحیحین. قال أبو داود:" قد ذکرت فیه الصحیح و ما یقاربه و ما کان فیه و هن شدید بیّنته و لیس فی کتابی هذا الذی صنّفته عن رجل متروک الحدیث شیء ".و لکن مع هذا مع فهو لا ینص علی صحه الحدیث و لا ضعفه، فیسکت عنه. و ما سکت عنه فی منهجه صالح للاحتجاج به و لکن العلماء تتبعوا أحادیث السنن و دققوا فیها و حکموا علیها.

۶ - جامع الترمذی:

و یسمی سنن الترمذی، و یعتبر فی المرتبه الثانیه بعد سنن أبی داود. التزم فیه الترمذی بأن لا یخرّج إلا حدیثا عمل به فقیه أو احتج به مجتهد. و لم یلتزم الترمذی بإخراج الصحیح فقط و لکنه أخرج الصحیح و نصّ علی صحته و أخرج الحسن و بیّنه و نوّه به و أکثر من ذکره و هو الذی شهره، و أخرج الحسن الصحیح. یعتبر کتاب الترمذی من مظان الحدیث الحسن. و أخرج أیضا الضعیف و نصّ علی ضعفه و أبان علته و أخرج بعض الأحادیث المنکره فی باب الفضائل و نبّه علیها غالبا. تمیّز کتابه بالاستدلالات الفقهیه و استنباط الأحکام من الأحادیث و بیّن من أخذ بها أو عمل بها من الصحابه و التابعین و الأئمه المجتهدین من فقهاء الأمصار. و قد تضمّن کتابه أیضا کتابا آخر سماه" العلل "،کشف فیه علل بعض الأحادیث و بذلک یکون جامع الترمذی قد تضمّن فوائد کثیره.

۷ - سنن النّسائی:

صنّف النسائی" سننه الکبری "التی تعتبر أقل الکتب - بعد الصحیحین - حدیثا ضعیفا و رجلا مجروحا، ثم استخلص منه" السنن الصغری" و تسمی" المجتبی "و هذا الکتاب هو أقل السنن حدیثا ضعیفا و عدد أحادیثه ۵۷۶۱ حدیثا.

۸ - سنن ابن ماجه:

یعتبر هذا الکتاب أدنی الکتب السته فی الرتبه. رتب ابن

ماجه الأحاديث فيه على أبواب الفقه شأنها شأن السنن الأخرى. جمع فيه ۴۳۴۱ حديثا منها ۳۰۰۲ حديثا أخرجها أصحاب الكتب الخمسه و ۱۳۳۹ حديثا زائدا عن الكتب الخمسه، منها ۴۲۸ حديثا صحيح الإسناد و ۶۱۳ حديثا ضعيفا و الباقى ۹۹ حديثا ما بين واه أو منكر أو موضوع.

خلاصه: إنّ أصحاب السنن الأربعه لم يلتزموا إخراج الصحيح فقط كما فعل صاحبا الصحيحين البخارى و مسلم، بل أخرجوا الصحيح و الحسن و الضعيف، و تتفاوت كتبهم فى المنزله بحسب تفاوتهم فى العلم و المعرفه، و لقد كان منهجهم فى التأليف هو ترتيب الأحاديث على أبواب الفقه و الاقتصار على أحاديث الأحكام. أما أصحاب الجوامع فقد تناولوا مع أحاديث الأحكام أحاديث العلم و الوحى و التفسير و المغازى و السّير و القصص و الفتن و أشراط الساعه و غير ذلك من المواضيع العامه الجامعه لكثير من الأبواب... و نخلص إلى القول أن كل ما فى صحيح البخارى و مسلم صحيح و أغلب ما فى السنن الأربعه صحيح.

فوائد:

- إذا قيل رواه الشيخان أو متّفق عليه أو أخرجه صاحبا الصحيحين، فمعناه أنه رواه البخارى و مسلم فى صحيحيهما، و قد يرمز له بعض المحدّثين ب" ق "أى متفق عليه.

- إذا قيل رواه الجماعه، يقصد به أصحاب الكتب السبعه: الصحيحان و السنن الأربعه و مسند أحمد.

- إذا قيل رواه السته، فهم البخارى و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجه ما عدا مسند الإمام أحمد.

- إذا قيل رواه أصحاب السنن أو الأربعه فيعنى أصحاب السنن عدا البخارى و مسلم.

- إذا قيل رواه الخمسه فهم أصحاب السنن الأربعه و أحمد فقط.

- إذا قيل رواه الثلاثه فهم أصحاب السنن ما عدا ابن ماجه.

ملاحظه: للبخارى كتب أخرى غير الجامع الصحيح مثل الأدب المفرد و غيره و لم يلتزم البخارى بهذه الكتب الصحه كما التزمها فى الجامع الصحيح.

۴ – الدور الرابع من تاريخ التشريع الإسلامى: عصر الأئمه

اشاره

و يمتد من أوائل القرن الثانى إلى منتصف القرن الرابع و هو دور تدوين السنه و الفقه و ظهور كبار الأئمه الذين اعترف لهم الجمهور بالزعامه و سيأتى فيما يلى ترجمه كل واحد منهم:

أولا: ترجمه الإمام الأكبر أبى حنيفه النعمان رضى اللّه تعالى عنه و أرضاه:

بشاره النبى صلّى اللّه عليه و سلّم به:

قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم مبشرا بأبى حنيفه:" لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجل من فارس ".و فى لفظ لمسلم:" لو كان الإيمان عند الثريا لذهب به رجل من أبناء فارس حتى يتناوله".

نزل ثابت والد الإمام الكوفه و كان من وجوه بلاد فارس، و عمل بالتجاره و كان ماهرا فيها و حافظ على نفس المستوى الاجتماعى الذى عاشته الأسره من قبل، فى رخاء و بحبوحه. التقى ثابت الإمام علىّ كرّم اللّه وجهه الذى دعا له بالبركه فيه و فى ذريته.

و الإمام أبو حنيفه هو النعمان بن ثابت بن زوطى، ولد سنه ۸۰ من الهجره بالكوفه. بدأ أبو حنيفه و منذ نعومه أظافره يذهب مع أبيه إلى متجره حيث كان يلازمه و يتعلم منه أصول و أسس التعامل مع البائعين و المشترين، و تابع خطى أبيه و عاش فى رخاء و يسر و كان بزّازا أى تاجر أقمشه و ثياب و كان له شريك فى متجره يساعده.

حرصه على الكسب الحلال:

كان يقول:" أفضل المال الكسب من الحلال و أطيب ما يأكله المرء من عمل يده".

جاءته امرأه بثوب من الحرير تبيعه له فقال كم ثمنه، قالت مائه، فقال هو خير من مائه، فقالت مائتين، فقال هو خير من ذلك، حتى وصلت إلى أربع مائه فقال هو خير من ذلك، قالت أ تهزأ بى؟ فجاء برجل فاشتراه بخمسمائه.

و ذات يوم أعطى شريكه متاعا و أعلمه أنّ فى ثوب منه عيب و أوجب عليه أن يبين العيب عند بيعه. باع شريكه المتاع و نسى أن يبين و لم يعلم من الذى اشتراه، فلما علم أبو حنيفه تصدّق بثمن المتاع كله.

و كان أبو حنيفه يجمع الأرباح عنده من سنه إلى سنه فيشترى بها حوائج الأشياخ و المحدثين و أقواتهم و كسوتهم و جميع لوازمهم ثم يدفع باقى الدنانير من الأرباح إليهم و يقول: أنفقوا فى حوائجكم و لا تحمدوا إلا اللّه فإنى ما أعطيتكم من مالى شيئا و لكن من

فضل اللّه علىّ فيكم.

كان الخليفه أبو منصور يرفع من شأن أبى حنيفه و يكرمه و يرسل له العطايا و الأموال و لكن أبا حنيفه كان لا يقبل عطاء. و لقد عاتبه المنصور على ذلك قائلا: لم لا تقبل صلتى؟. فقال أبو حنيفه: ما وصلنى أمير المؤمنين من ماله بشىء فرددته و لو وصلنى بذلك لقبلته إنما وصلنى من بيت مال المسلمين و لا حق لى به.

وقع يوما بين الخليفه المنصور و زوجته شقاق و خلاف بسبب ميله عنها، فطلبت منه العدل فقال لها من ترضين فى الحكومه بينى و بينك؟ قالت أبا حنيفه، فرضى هو به فجاءه فقال له: يا أبا حنيفه زوجتى تخاصمنى فانصفنى منها، فقال له أبو حنيفه:

ليتكلّم أمير المؤمنين. فقال المنصور: كم يحلّ للرجال أن يتزوج من النساء؟ قال: أربع.

قال المنصور لزوجته: أسمعت. فقال أبو حنيفه: يا أمير المؤمنين إنما أحلّ اللّه هذا لأهل العدل فمن لم يعدل أو خاف أن لا يعدل فواحده لقوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً ، [النساء: ٣]، فينبغى لنا أن نتأدّب مع اللّه و نتّعظ بمواعظه. فسكت المنصور و طال سكوته، فقام أبو حنيفه و خرج فلما بلغ منزله أرسلت إليه زوجه المنصور خادما و معه مال و ثياب، فردها و قال: أقرئها السلام و قل لها إنما ناضلت عن دينى و قمت بذلك المقام للّه و لم أرد بذلك تقربا إلى أحد و لا التمست به دنيا.

حرصه على مظهره:

كان حريصا على أن يكون مظهره حسنا تماما لذا كان كثير العنايه بثيابه.

رأى مره على بعض جلسائه ثيابا رثه فأمره أن ينتظر حتى تفرّق المجلس و بقى وحده فقال له: ارفع المصلى و خذ ما تحته، فرفع الرجل المصلى و كان تحته ألف درهم، و قال له خذ هذه الدراهم و غيّر بها حالك، فقال له الرجل إنى موسر و أنا فى نعمه و لست أحتاج إليه، فقال له أبو حنيفه: أما بلغك الحديث:" إنّ اللّه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"؟.

طلبه للعلم:

لزم أبو حنيفه عالم عصره حمّاد بن أبى سليمان و تخرّج عليه فى الفقه و استمر معه إلى أن مات. بدأ بالتعلم عنه و هو ابن ٢٢ سنه و لازمه ١٨ سنه من غير انقطاع و لا نزاع. يقول أبو حنيفه:" بعد أن صحبت حمّادا عشر سنين نازعتنى نفسى لطلب الرئاسه، فأردت أن أعتزله و أجلس فى حلقه لنفسى. فخرجت يوما بالعشىّ

و عزمی أن أفعل، فلمّا دخلت المسجد رأیته و لم تطب نفسی أن أعتزله فجئت فجلست معه، فجاء فی تلک اللیله نعی قرابه له قد مات بالبصره، و ترک مالا- و لیس له وارث غیره، فأمرنی أن أجلس مکانه. فما هو إلا- أن خرج حتی وردت علیّ مسائل لم أسمعها منه، فکنت أجیب و أکتب جوابی. ثم قدم، فعرضت علیه المسائل و کانت نحوا من ستین مسأله، فوافقنی بأربعین و خالفنی فی عشرین، فآلیت علی نفسی ألا أفارقه حتی یموت و هکذا کان".

و کان أبو حنیفه شدید الأدب مع شیوخه حتی أنه کان لا یتخلی باتّجاه بیت شیخه حمّاد کان إذا نام یحرص أن لا تتوجه قدماه باتجاه بیت شیخه حمّاد. و قیل إن أبا حنیفه لم یکثر من الشیوخ مخافه أن تکثر حقوقهم علیه فلا یستطیع أداءها، فتأملوا فی أدبه الرائع!.

ولعه بالفقه الفرضی:

أولع أبو حنیفه بالفقه الفرضی بخلاف معظم علماء عصره الذین کانوا یقولون نحن مضطرون أن نعلّم حکم اللّه فی أمر حصل أمّا إذا لم یقع لا نحمّل أنفسنا هذه المئونه. و معظم شیوخ أبی حنیفه کانوا علی هذا المنوال و إن وجد فیهم من استجاز لنفسه أن یتوسع قلیلا فإلی حد محدود جدا. و أبو حنیفه کان علی النقیض إذ کان یفرض الوقائع و إن لم تقع و کان یتأمل فی حکمها و یعطی کلا منها فتوی. هذا الأمر أعطی فقهه غزاره و غنی و مدعاه لأن یتبع الناس الفقه الأوسع و الأکثر استجابه لواقع الحال، فما لم یقع الیوم سیقع غدا لا سیما عند ما یکون هذا الإمام عالما بعلم الاجتماع و خبیرا بالمشکلات التی ستنجم، مثال ذلک: لقی أبو حنیفه قتاده رضی اللّه عنه و هو عالم من أجلّ علماء الحدیث فسأله ما تقول فی رجل غاب عن أهله أمدا طویلا و لم یعرف مصیره، فتزوجت امرأته من زوج آخر و بعد حین جاء زوجها، ما تقول فی هذا؟ قال قتاده: أوقعت هذه المسأله؟ قال لا، فقال له و قد ظهر الغضب علی وجهه:

فلما ذا تسألنی عنها؟ قال له هذا الکلام المهم:" إننا نستعد للبلاء قبل نزوله فإذا ما وقع عرفنا الدخول فیه و الخروج منه".

فتنته مع أبی هبیره:

کان أبو هبیره والیا بالکوفه فی زمان بنی أمیّه، فظهرت الفتن بالعراق، فجمع فقهاءها ببابه و فیهم ابن أبی لیلی و ابن شبرمه و داود بن أبی هند، فولّی کل واحد منهم صدرا من عمله، و أرسل إلی أبی حنیفه فأراد أن یجعل الخاتم فی یده و لا ینفذ کتاب إلا من تحت یده و لا یخرج من بیت المال شیء إلا من

تحت يد أبى حنيفه. و كان المقصود حمل أبى حنيفه على الولاء له قسرا و قهرا أو إغراء بالإكثار من المسئوليات و المهمات، فامتنع أبو حنيفه و قال لو أرادنى أن أعد له أبواب مساجد واسط لما فعلت!... و قد سجن أبو حنيفه و ضرب ضربا مبرحا مؤلما أياما متتاليه حتى سقط فاقد الوعى.

منهج أبى حنيفه العلمى:

كان يقول: آخذ ما فى كتاب اللّه و بما صحّ عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و ربما اشترط زياده عن الصحه الشهره فيما تقتضيه الشهره فى الأحكام و المسائل، فإن لم أجد آخذ بقول الصحابه، آخذ بقول من شئت منهم و أدع قول من شئت منهم عند ما يختلفون و لكنى ألزم نفسى بالأخذ من الصحابه و إذا لم أجد و آل الأمر إلى إبراهيم النخعى و إلى التابعين كالأوزاعى، فإنى أجتهد كما اجتهدوا و لا ألزم نفسى باتّباع رأى واحد منهم ما دام الأمر اجتهاديا. و كان يأخذ بحديث الآحاد و يعمل بها ما أمكن.

مثال: قوله تعالى: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ، [المزمل: ٢٠] و حديث النبى عليه الصلاه و السلام يقول:" لا صلاه لمن لم يقرأ بفاتحه الكتاب "،متفق عليه، فحكم أنّ أصل قراءه القرآن فى الصلاه ركن، أمّا تقسيم القراءه للقرآن الكريم إلى الفاتحه و بعض ما تيسر من القرآن فواجب و بذلك عمل بالقرآن و السنه معا.

و كذلك الطمأنينه فى الركوع ليست فرضا عند أبى حنيفه لإطلاق قوله تعالى:

اِرْكَعُوا ، أمّا الطمأنينه فثابته بخبر الآحاد لذلك هى عنده واجبه.

و من منهجه أنه يقدّم السنّه القوليه على الفعليه لجواز أن يكون الفعل خصوصيه للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

و يقدّم السنّه المتواتره على خبر الآحاد عند التعارض و عدم إمكان الجمع بينهما، كالجمع فى السفر حيث قال أنه جمع صورى و هكذا كان يفعل عبد اللّه بن عمر. أبو حنيفه لا يجيز للمسافر أن يجمع بين الصلوات و لكن القصر عنده واجب.

و يقدّم السنّه و لو حديثا مرسلا أو ضعيفا على القياس، لذلك قال بنقض الوضوء من الدم السائل معتمدا على حديث مرسل، و كذلك نقض وضوء و بطلان الصلاه بالقهقهه أيضا بحديث مرسل.

و من منهجه أيضا الاستحسان: و الاستحسان لغه هو وجود الشىء حسنا و معناه

طلب الأحسن للإتباع الذى هو مأمور به كما قال تعالى:... فَبَشِّرْ عِبادِ (۱۷) اَلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، [الزمر: ۱۷- ۱۸]. و هو عند الفقهاء نوعان:

۱ - العمل بالاجتهاد و غالب الرأى فى تقدير ما جعله الشرع مدلولا إلى آرائنا نحو قوله تعالى: مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (۲۳۶)، [البقره: ۲۳۶]، أوجب ذلك بحسب اليسار و العسره و شرط أن يكون بالمعروف، فعرفنا أنّ المراد ما يعرف استحسانه بغالب الرأى و لا خلاف فى هذا النوع.

۲ - هو الدليل الذى يكون معارضا للقياس الظاهر الذى تسبق إليه الأوهام قبل إمعان التأمّل فيه، و بعد إمعان التأمل فى حكم الحادثه و أشباهها من الأصول يظهر أنّ الذى عارضه فوقه فى القوه، فإنّ العمل به هو الواجب، فسمّوه بذلك استحسانا للتمييز بين هذا النوع من الدليل و بين الظاهر الذى تسبق إليه الأوهام. مثاله: لو قال لامرأته:

إذا حضت فأنت طالق، فقالت: قد حضت، فكذّبها الزوج، فإنها لا تصدّق فى القياس باعتبار الظاهر و هو أنّ الحيض شرط للطلاق كدخولها الدار و كلامها زيدا. و فى الاستحسان تطلّق لأن الحيض شىء فى باطنها لا يقف عليه غيرها، فلا بد من قبول قولها فيه.

العرف و العاده: هو ما استقر فى النفوس من جهه العقول و تلقته الطباع السليمه بالقبول. و إنما يكون العرف دليلا حيث لا دليل شرعى من كتاب و سنه. قال ابن مسعود: ما رآه المسلمون حسنا فهو عند اللّه حسن... و ألّف ابن عابدين رساله" العرف" تضمنت مسأله تضمين الخياط و الكواء (و مثالهما إذا أحرقا القماش أو أضاعاه).

و أبو حنيفه هو أساس من جمع بين مذهبى أهل الحجاز أهل الحديث و أهل العراق أهل الرأى. كان أبو حنيفه من علماء الرأى و لكنه ذهب إلى الحجاز و أقام فى مكه ست سنوات يأخذ العلم من علماء الحجاز أمثال عبد اللّه بن عمر... يذكر أن أبا حنيفه دخل يوما على المنصور فقال له أحد الجالسين: هذا عالم الدنيا اليوم... فقال له المنصور: يا نعمان من أين أخذت علمك؟ قال: من أصحاب عبد اللّه بن عمر عن عبد اللّه بن عمر (أهل الحديث) و من أصحاب عبد اللّه بن عباس عن عبد اللّه بن عباس و من أصحاب عبد اللّه بن مسعود عن عبد اللّه بن مسعود (أهل الرأى)... إذا لأول مره خرق أبو حنيفه الحدود الفاصله بين المذهبين. عند ما ذهب إلى أهل الحجاز تعلم منهم

الحديث و تعلموا منه كيفيه استخراج الأحكام فاستفاد و أفاد. و انعكس هذا الأمر على تلامذته مثل أبو يوسف و محمد بن الحسن الشيبانى و غيرهم... و كان لإخلاصه فى طلب العلم يرجع عن رأيه إذا اطلع على حديث أو فتوى صحابى.

تأديبه لتلميذه أبى يوسف:

لمّا مرض أبو يوسف قال أبو حنيفه: لئن مات هذا الغلام لم يخلفه أحد على وجه الأرض. فلمّا عوفى أعجب بنفسه و عقد له مجلسا فى الفقه فانصرفت وجوه الناس إليه، فلمّا بلغ ذلك أبا حنيفه قال لبعض من عنده: اذهب إلى مجلس يعقوب (يعنى أبو يوسف) و قل له: ما تقول فى قصّار دفع إليه رجل ثوبا ليقصّره بدرهمين ثم طلب ثوبه فأنكره القصّار ثم عاد له و طلبه فدفعه له مقصورا، له أجره؟ فإن قال نعم قل له أخطأت و إن قال لا قل أخطأت. فسار إليه الرجل فسأله فقال نعم له أجره فقال له أخطأت، فنظر ساعه فقال لا، فقال أخطأت، فقام من ساعته لأبى حنيفه فلما رآه قال: ما جاء بك إلا مسأله القصّار. قال: أجل. قال: سبحان اللّه من قعد يفتى الناس و عقد لنفسه مجلسا يتكلم فى دين اللّه تعالى و هذا قدره لا يحسن أن يجيب فى مسأله من الإجارات، فقال: علّمنى، قال: إن كان قصّره بعد ما غصبه فلا أجره له لأنه قصّره لنفسه، فإن قصّره قبل غصبه فله الأجره لأنه قصّره لصاحبه، فعاد أبو يوسف و لم يترك بعدها مجلس أبى حنيفه قط.

موقفه من آل بيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

موقفه من آل بيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى عصره كموقف الأئمه الأربعه و موقفنا جميعا و هو حب آل البيت و الانتصار لهم كما قال الإمام الشافعى عند ما اتّهم بالتشيع: إن كان رفضنا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافض.

و من المعلوم أنّ أبا حنيفه كان متشيّعا إن صح التعبير لآل البيت (أى كان يحبهم و يقف معهم إذا تعارضوا مع الخليفه فى عصره)، لكنه كان دائما يعلن أنّ أبا بكر أفضل من عمر و عمر أفضل من عثمان و يرى أنّ كلا من عثمان و على بمستوى واحد. و معنى ذلك أنّ حبه لآل البيت كان حبا شعوريا تفرّع عن حبه للمصطفى صلّى اللّه عليه و سلّم و لم يكن حبا مذهبيا ينحاز عن أهل السنّه و الجماعه. و ذكر أبو حنيفه أنه التقى بالإمام محمد الباقر و هو من أئمه الإماميه و هو والد جعفر الصادق، فسأله أبو حنيفه: ما تقول أصلحك اللّه فى أبى بكر و عمر؟ فأثنى محمد الباقر عليهما خيرا و قال يرحمهما اللّه تعالى و أخذ يفيض بالحديث عن آثارهما فقال له بعضا من أهل العراق يقولون إنك تتبرأ منهما، قال معاذ اللّه، كذبوا و رب الكعبه! أتعلم من هو عمر لا أبا لك؟ إنه ذاك الذى زوجه علىّ من

ابنته أم كلثوم، و هل تدرى من هى أم كلثوم لا أبا لك؟ إنّ جدها رسول اللّه و إن جدتها السيده خديجه سيده نساء الجنه و إنّ أمها فاطمه الزهراء و إنّ أباها علىّ فلو لم يكن عمر أهلا لها لما أعطاه علىّ ابنته!.

و قد اشتهرت كلمه لأبى حنيفه جاء فيها:" ما قاتل علىّ أحدا إلا و علىّ أولى بالحق منه أى فى عصره بعد أبى بكر و عمر ".لم يكن حبه لآل البيت يدفعه إلى الانتقاص من صحابه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بل على العكس، لأن أصحاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم كلهم يحبون و يوقرون آل بيته صلّى اللّه عليه و سلّم و آل البيت كلهم يحبون و يجلّون و يوقرون كل صحابه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم. هذا الخط يجسّد الصراط العريض الذى أشار إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فى أحاديث بلغت فى مجموعها مبلغ التواتر المعنوى مثاله:" عليكم بالجماعه "،" عليكم بالسواد الأعظم و من شذّ شذّ فى النار "،" إنّ الشيطان مع الواحد و هو من الاثنين أبعد "،" سألت ربى أن لا تجتمع أمتى على ضلاله "،" من أراد أن يلزم بحبوحه الجنه فليلزم الجماعه"...

و كان أبو حنيفه على علاقه طيبه مع المنصور و لكن لما قتل أبو جعفر المنصور محمد بن عبد اللّه بن حسن الملقّب بالنفس الزكيه من الطالبيين بدأ أبو حنيفه يغير موقفه من الخليفه و أخذ ينتقد مواقفه و أخطاءه عند ما تطرح عليه الأسئله و كان ذلك يغيظ الخليفه كثيرا. انتفض أهل الموصل على المنصور و كان المنصور قد اشترط عليهم أنهم إن انتفضوا حلّت دماؤهم، فجمع المنصور العلماء و الفقهاء و القضاه و كان بينهم أبا حنيفه و قال لهم: أ ليس صح أنّ رسول اللّه قال المؤمنون عند شروطهم يلتزمون بها و أهل الموصل قد اشترطوا ألا يخرجوا علىّ و ها هم قد خرجوا و انتفضوا و لقد حلّت دماؤهم فما ذا ترون؟ قال أحد الحاضرين: يا أمير المؤمنين، يدك مبسوطه عليهم و قولك مقبول فيهم فإن عفوت فأنت أهل العفو و إن عاقبت فبما يستحقون. التفت المنصور إلى أبى حنيفه يسأله و يستنطقه ليوقع به فقال أبو حنيفه: إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه و شرطت عليهم ما ليس لك لأنّ دم المسلم لا يحلّ إلا بإحدى ثلاث فإن أخذتهم أخذت بما لا يحلّ و شرط اللّه أحق أن يوفى به. عندئذ أمر المنصور الجميع أن ينصرفوا ما عدا أبى حنيفه و قال له: إنّ الحق ما قلت، انصرف إلى بلادك... و يروى أنه كان لأبى حنيفه جار رافضى كان عنده بغلان سمى واحدا أبا بكر و الآخر عمر، و فى أحد الأيام رفسته بغله فوقع ميتا، فقال أبو حنيفه: انظروا البغله التى رفسته هى التى سماها عمر، و هكذا كان!.

أما سبب انتشار مذهب أبی حنیفه و اتّباع الناس له بخلاف مذهب معاصریه أمثال الأوزاعی و عطاء بن أبی رباح و إبراهیم النخعی و هم شیوخ أبی حنیفه و ذلک لعده عوامل نذکر منها ما یلی:

۱ - أخذ أبو حنیفه عن أربعه آلاف شیخ من التابعین و أفتی فی زمن التابعین.

۲ - قیّض اللّه تعالی لأبی حنیفه تلامیذ کانوا فی الوقت نفسه فطاحل من العلماء و قد دوّنوا آراءه و فتاویه و اجتهاداته بخلاف باقی الأئمه فی عصره. فأبو یوسف دوّن فقه أبی حنیفه فی الکتب و کذا فعل محمد بن الحسن الذی دوّن کل فقهه و الاجتهادات الأخری حتی التی تراجع عنها، و هناک کتب تسمّی کتب "ظاهر الروایه" کلها للإمام محمد. و قام کلّ من أبی یوسف و محمد بجمع الأحادیث التی یرویها الإمام فی فتاویه کمستندات لفقهه مثل کتاب الآثار و کتب أخری و أحادیث کثیره موزّعه فی هذه المدونات. و لقد کانت طریقه أبی حنیفه بالتعلیم مبنیه علی السؤال و الإقناع برأی ثم قوله و لکنی أری غیر هذا و یعلم أصحابه الفتوی و طریقه التفکیر.

و أبو حنیفه هو أول من من رتب مسائل الفقه حسب أبوابها من طهاره و صلاه...

دوّنها الإمام أبو یوسف - فی غالب الأحیان - فی سجلات حتی بلغت مسائله المدونه خمسمائه ألف مساله. انتقل تلامذته الفحول البالغون ۷۳۰ شیخا إلی بلادهم خاصه بلاد الأفغان و بخاری و الهند... فشرّق فقه الإمام أبی حنیفه و غرّب و شمأل و جنّب حتی لیعد علی بن سلطان القاری المتوفی سنه ۱۰۱۴ هجری ثلثی المسلمین فی العالم علی مذهب الإمام أبی حنیفه.

۳ - إنّ اللّه تعالی شاء أن یکون أبو یوسف قاضیا و أن یتولی القضاء لثلاث من الخلفاء المهدی و الهادی و هارون الرشید و سمّی بعد ذلک قاضی القضاه و کان و هو حنفی یقضی بمذهب أبی حنیفه و کذلک کان أغلب القضاه الذین کان ینصّبهم و المدونات التی کانت تدوّن فی دار الخلافه کانت تدوّن علی مذهب أبی حنیفه، کل هذا و غیره جعل فقه الإمام أبی حنیفه ینتشر أکثر من فقه من سبقه أمثال الأوزاعی و جعفر الصادق و غیرهم....

أهم مؤلفاته:

تمیّز عصر أبی حنیفه بوجود الفرق المبتدعه المختلفه مثل: الشیعه و المعتزله و المرجئه و القدریه و الجهمیه أو المعطله... هذه الفرق کلها کانت أشبه ما تکون بالحاشیه علی الجسم الکبیر کحاشیه فی أطراف جسم المجتمع الإسلامی، فکانت هذه

الفرق مع قله أتباعها يبثّون الشّبه و تسمّت كل فرقه باسم، فقام علماء المسلمين يردون على هؤلاء المبتدعه. و كان لا بد من أن يسمّوا أنفسهم باسم حتى يتبين قول هؤلاء المبتدعه من قول عامه المسلمين، فسمّوا عامه المسلمين أهل السنّه و الجماعه و هى ما كان عليه صلّى اللّه عليه و سلّم و الصحابه و التابعين و هم السواد الأعظم من الأمّه. و بظهور الأئمه الأربعه، اشرأبّت أعناق الناس إليهم يأخذون من فقههم و ينهلون من علومهم و كانت لهم عبقريه نادره فى الاستنباط مما دعا الناس إلى الإقبال عليهم و الأخذ منهم، فجمع هؤلاء الأئمه الناس على منهج أهل السنّه و الجماعه فيما يتعلق بالعقيده و حذّروا الناس من البدع و دافعوا عن الإسلام دفاعا قويا. و ألّف أبو حنيفه كتاب "الفقه الأكبر" بيّن فيه عقيده المسلمين ورد فيه على المبتدعه... و نقل أنّ له مسندا و لكن المحقق أنّ هذا المسند من جمع أبى يوسف عن أبى حنيفه سماه: "الآثار"..

أقوال معاصريه فيه:

- الفضيل بن عياض قال فيه: كان أبو حنيفه رجلا فقيها معروفا بالفقه، واسع المال معروفا بالإفضال على كل من يطوف به، صبورا على تعلّم العلم بالليل و النهار، حسن الليل، يقوم الليل (و هذا شىء معروف عنه)، كثير الصمت، قليل الكلام حتى يرد مسأله فى حلال أو حرام.

- عبد اللّه بن المبارك العالم الكبير و التابعى الجليل يقول: كان أبو حنيفه مخ علم أو مخ العلم أى كنت تأخذ منه لباب العلم.

- مالك بن أنس قال عنه: لو جاء إلى أساطينكم فقايسكم على أنها خشب لظننتم إنها خشب.

- الإمام زفر قال: جالست أبا حنيفه أكثر من عشرين سنه فلم أر أحدا أنصح للناس منه و لا أشفق عليهم منه، كان بذل نفسه للّه تعالى، أمّا عامه النهار فهو مشتغل فى العلم و فى المسائل و تعليمها و فيما يسأل من النوازل و جواباتها و إذا قام من المجلس عاد مريضا (أى زار) أو شيّع جنازه أو واسى فقيرا أو وصل أخا أو سعى فى حاجه، فإذا كان الليل خلى للعباده و الصلاه و قراءه القرآن، فكان هذا سبيله حتى توفى رضى اللّه تعالى عنه.

- أجمع علماء عصره على أنه لم يجتمع لأحد غيره فى ذلك العصر ذكاء و قوه بادره و علم و قوه استنتاج.

- كـان أبو حنيفه فى زيـاره شـيخه الأعمش يوما (و الأعمش من كبار المحـدثين)، فجاء إلى الأعمش رجل يسأله عن مسأله فى العلم فقال لأبى حنيفه: أجبه. فأجابه، فقال له: و من أين لك هذا؟ قال: من حديث حدثتنيه هو كذا و كذا. فقال الأعمش:

حسبك ما حدّثتك به فى سنه تحدّث به فى ساعه، أنتم الأطباء و نحن الصيادله.

سؤال: لما ذا نتبع أبا حنيفه و لا نتبع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم؟ الجواب: بعد أن أوضحنا الأدوار الثلاثه و بدأنا الكلام عن الـدور الرابع لم يبق لهذا السؤال أى معنى فأبو حنيفه لم يخترع شـيئا بل اتّباعنا له هو عين اتّباع لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سـلّم لأـن الـذى فعله أبو حنيفه هو أن شـرح لنـا آيـات كتـاب اللّه عز و جـل و أحـاديث النبى صـلّى اللّه عليه و سـلّم و اسـتخرج منها الأحكـام و بوّبهـا على أبواب الفقه. فمن المعلوم أن للقرآن الكريم تفاسـير عديـده، كل تفسـير عنى بناحيه من النواحى، فتفسـير يعنى بالعقيـده كتفسـير الرازى و تفسـير يعنى بالمـأثور كتفسـير ابن كثير و تفسـير يعنى بـاللغه كتفسـير الآلوسـى و ابن عـاشور و غيرهم، كـذلك هؤلاء الأئمه الأربعه، كل ما فعلوه أنهم عمـدوا إلى الكتاب و السّـنه و أقوال الصـحابه فجمعوها و اسـتنبطوا منها الأحكام و بوّبوها بأبوابها: باب الطهاره باب الصلاه... إلخ و دوّنوها لنا، فإذا أخذنا عنهم نكون حقيقه قد أخذنا عن اللّه عز و جل و عن رسوله صـلّى اللّه عليه و سـلّم، ذلـك لأـن عامه الناس لا يفقهون آيات كتاب اللّه تعالى و لا أحاديث النبى عليه الصـلاه و السلام و لا يعلمون الناسخ و المنسوخ و العام و الخاص و ما إلى ذلك...

سؤال: إنّ أبا حنيفه بشـر غير معصوم يصـيب و يخطئ فكيف نتبعه؟ الجواب: كونه بشر لا ينقص من مكانته و لا يمنع من جوازه، لا بل ضـروره اتباعه أو أحد الأئمه الأربعه لكل من لم يبلغ درجه الاجتهاد ثم من الذى يسـتطيع أصلا أن يكشف خطأ الإمام فى الاجتهـاد خاصه إذا كان من العوام؟ و إن كان مجتهـدا وصل إلى درجه الاجتهاد المطلق فهـذا المجتهـد نفسه غير معصوم أيضا، فمن نتبع إذا!!!؟ إنّ اللّه تعالى أمرنا باتباع العلماء و المجتهـدين المخلصـين فى قوله تعالى: فَسْـئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۴۳)، أَطِيعُـوا اللّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُـولَ وَ أُولِى الْأَمْرِ ، و أهـل الـذكر هـم أمثـال أبى حنيفه و مالـك... و من المعلـوم أنه ليس من الضـروره أن يكون قول الإمـام هو القول المفـتى به فى المـذهب، فالإمـام لم يكن لوحـده يمثّـل مـذهبه، هنـاك فقهـاء كثيرون محققون ينتسـبون للمـذهب نفسه يصوّبون الإمام إن أخطأ. و الـذى يريـد أن يحقق فى مسأله مس المرأه الأجنبيه عنـد الحنفيه و الشافعيه ليرجّح قول أحدهما، إن كان هذا

الإنسان وصل بدرجه اجتهاده إلى مرتبه هؤلاء الأئمه فلا بأس و على كل الأحوال هو بعد بحثه سيخرج بقول ما، و قوله أيضا سيكون اجتهاديا و هو غير معصوم فما ذا فعل إذا؟ و إذا أراد أحد العلماء فى درس عام مثلا أن يرجّح قولا على قول فإنما يكون الهدف من ورائه أن يقول الناس إنّ فلانا عالما جليلا بلغ من العلم درجه يستطيع أن يحكم فيها على الأئمه و لن يفيد الناس شيئا إلا حملهم من تقليد أبى حنيفه أو الشافعى و غيرهما من الذين اتفقت الأمّه على وجوب تقليد واحد منهم، إلى تقليده هو فى هذه القضيه، فبما ذا يكون قد نفع المسلمين؟!!!. يقول المثل: من جهل شيئا عاداه. و بالفعل فالرجل الذى يسمع بإنسان عالم و يسمع آراءه و اجتهاداته لكن ما جالسه و ما سمع منه حججه، لن يستطيع أن يحكم عليه. عند ما لمع اسم أبى حنيفه و انتشر صيته فى العراق و قبل أن يراه علماء الحجاز أو علماء الشام ربما كان هنالك كثير من علماء الحجاز من يضيق ذرعا باجتهاداته و ربما نعتوه بأنه مبتدع و لكن بعد أن رأوه و جاء هو إلى الحجاز و جالسوه و سمعوا منه و سمعوا حججه اختلف الأمر تماما! مثال ذلك: يقول عبد اللّه بن المبارك إنّ الإمام الأوزاعى سأله من هو هذا المبتدع الذى ظهر فى العراق (و يقصد أبا حنيفه)، فقال ابن المبارك: لم أجب، ثم أخذت أعرض له مسائل عويصه فى الفقه و أحدثه عن فتاوى يمكن أن تكون جوابا، فقال لى: و اللّه إنّ هذه الأجوبه لأجوبه سديده، من هو صاحبها؟ قلت له: فقيه فى العراق. قال: من هو؟ قلت: هو أبو حنيفه.

قال: إنّ هذا الإنسان نبيل و ذو علم غزير فالزمه. ثم إنّ الأوزاعى التقى بعد ذلك بأبى حنيفه و تناقشا فى كثير من المسائل العلميه فتحولت نظره الأوزاعى و أخذ يوصى الناس بمجالس أبى حنيفه و الاستكثار من علمه و فضله.

كثيرون اليوم هم الذين ينتقصون من مكانه أبى حنيفه و ينتقدون فتاويه و اجتهاداته و هذا سهل لأنهم يزنون تلك الاجتهادات بميزانهم هم، فتبين من خلال ميزانهم هذا أنّ أبا حنيفه جاهل مع العلم أنهم لن يكونوا أعلم من الأوزاعى أو عبد اللّه بن المبارك. و مما يذكر أيضا أنّ الشافعى عند ما رحل إلى بغداد، التقى بمحمد بن الحسن ليتتلمذ على يده و لو وسعه أن يتتلمذ على أبى حنيفه لفعل و لكنه لم يستطع بسبب وفاه أبى حنيفه فى العام الذى ولد فيه الشافعى و كان يقول: أخذت من محمد وقر بعير من علم. و كثيره هى المسائل التى أخذ فيها الشافعى برأى محمد و كثيره هى المسائل التى اخذ فيها محمد برأى الشافعى و تراجع عن رأيه. فهناك مثلا من يتهم أبا حنيفه بأنه لم يكن يحفظ إلا

بضعه عشر حديثا و لم تكن له بضاعه فی روايه الأحاديث... إذا رجعت إلی ترجمه الإمام لوجدت الإجماع علی أنّ هذا كذب، فقد صح عنه أنه:

- تفرّد بروايه و تخريج أكثر من مائتی حديث فضلا عن الأحاديث التی اشترك مع المحدثين الآخرين فی روايتها.

- لو أردت أن تجمع الأحاديث من مصنفات محمد بن الحسن و أبی يوسف و غيرهما من مرويّات أبی حنيفه فلسوف تجد الشیء الكثير.

- لو وقفت علی مناقشه بسيطه فی مسأله من مسائل الفقه بينه و بين أحد الأئمه لرأيته يروی عددا كبيرا من الأحاديث.

مروياته فی باب الصلاه تزيد عن مائه حديث.

ورعه و تقواه و عبادته للّه تعالی:

قال ابن المبارك: قلت لسفيان الثوری: ما أبعد أبا حنيفه عن الغيبه، ما سمعته يغتاب عدوا له. قال: و اللّه هو أعقل من أن يسلّط علی حسناته ما يذهب بها... كان أبو حنيفه يختم القرآن فی كل يوم ثم حين اشتغل بالأصول و الاستنباط و اجتمع حوله الأصحاب أخذ يختمه فی ثلاث فی الوتر... صلی أبو حنيفه ثلاثين سنه صلاه الفجر بوضوء العتمه و حج خمسا و خمسين حجه.

قال مسعر بن كدام: رأيت الإمام يصلی الغداه ثم يجلس للعلم إلی أن يصلی الظهر ثم يجلس إلی العصر ثم إلی قريب المغرب ثم إلی العشاء، فقلت فی نفسی متی يتفرغ للعباده؟ فلما هدأ الناس خرج إلی المسجد و كان بيته بجوار المسجد الذی يؤم فيه حسبه للّه تعالی. فانتصب للصلاه إلی الفجر ثم دخل فلبس ثيابه. و كانت له ثياب خاصه يلبسها لقيام الليل و خرج إلی صلاه الصبح ففعل كما فعل، ثم تعاهدته علی هذه الحاله فما رأيته مفطرا و لا بالليل نائما. و كان يغفو قبل الظهر إغفاءه خفيفه، و قرأ ليله حتی وصل إلی قوله تعالی: فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ (۲۷)، [الطور: ۲۷] فما زال يرددها حتی أذّن الفجر. و ردد قوله تعالی: بَلِ السّاعَهُ مَوْعِدُهُمْ وَ السّاعَهُ أَدْهی وَ أَمَرُّ (۴۶)، [القمر: ۴۶]، ليله كامله فی الصلاه. و قالت أم ولده: ما توسّد فراشا بليل منذ عرفته و إنما كان نومه بين الظهر و العصر فی الصيف و أول الليل بمسجده فی الشتاء.

عرض القضاء عليه و وفاته:

عرض عليه الخليفه القضاء مرارا و ضرب عليه و قال إنى لا أصلح، قال الخليفه بل أنت تكذب أنت تصلح، فقال: أ رأيت، أنت تقول عنى كذاب، فإنى لا أصلح للقضاء. و كان أبو حنيفه ينقد قضاء القضاه بشده و يبين أخطاءهم، فاتخذ المنصور هذا الموقف ذريعه للتخلص منه فعرض عليه من جديد تولى منصب القضاء فأبى و رفض فحبسه و جرى بينهما حوار قال فيه: اتق اللّه و لا ترع أمانتك إلا من يخاف اللّه و اللّه ما أنا بمأمون الرضى فكيف أكون مأمون الغضب، لك حاشيه يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك. ثم حبسه و ضربه على مشهد من العامه ثم أخرج من السجن و منع من الفتوى و الجلوس إلى الناس حتى توفى. و قبل أبو حنيفه أن يعمل كأحد العمال فى بناء سور بغداد تفاديا للنقمه، و لمّا أحسّ بالموت سجد فخرجت نفسه و هو ساجد عام ١٥٠ هجرى و كان يردد المنصور بعد وفاه الإمام: من يعذرنى من أبى حنيفه حيا و ميتا.

٢ – ترجمه الإمام مالك بن أنس رضى اللّه عنه:

بشاره النبى صلّى اللّه عليه و سلّم به:

عن أبى هريره رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:

"يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينه"، أخرجه الترمذى و هو حديث حسن صحيح. قال العلماء: و عالم المدينه هو مالك بن أنس و هو الذى بشر به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

ميلاده و نسبه و نشأته و طلبه للعلم:

ولد مالك بن أنس عام ٩٣ هجرى و توفى عام ١٧٩ للهجره. ولد فى المدينه المنوره من أسره أصلها من اليمن و كانت أسرته هذه أسره علم، والده أنس كان عالما و اسم جده مالك أبو عامر الأصبحى و كان محدّثا و راويا سمع الحديث من أبى بكر و عمر و عثمان و كثير من الصحابه رضى اللّه عنهم. و لقد روى مالك الحديث عن أبيه وجده. و يروى أنه ذات ليله و قد اجتمع أفراد أسره مالك على عادتهم متحلقين حول الأب يسرد عليهم بعض وقائع أيامه و أحداثه، سأل الوالد أبناءه سؤالا فى الدين فأجابوه جميعا إجابات سليمه صحيحه عدا مالك الذى عجز و تلجلج و كان فى العاشره من عمره قد حفظ القرآن الكريم و شيئا من حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلا أنّ عقله فى مثل سنه لم يكن ليسمح له بالفهم و العلم فعجز عن الجواب فعنّفه أبوه أنس و وبخه

و نهره لانشغاله باللعب عن طلب العلم. و انفجر مالك بالبكاء و هو يأوى إلى صدر أمه، فضمّته إليها و عانقته و لاطفته و خففت عنه ما به من حزن و ألم و فى اليوم التالى شدّت على رأسه عمامه جديده و ضمّخته بأطيب العطر و أشارت عليه بإتيان مسجد الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و سلّم و الجلوس إلى حلقات العلم المنتشره هناك و دعت له بالخير و بالتفقه و الفهم و الحفظ. و منذ ذلك اليوم لازمته عاده الاستحمام و التطيب كلما أتى مجلس العلم سواء كان متعلما أو معلما فيكون فى أحسن سمت و أكمل مظهر و أرقى صوره، و دخل مالك بوابه العلم الكبرى و لم يغادرها حتى توفاه اللّه تعالى. و كان يجد نفسه بحاجه إلى مزيد علم، فقد كان يهمه أحيانا أمر علمى أو مسأله فبعد أن تنفضّ الحلقات و يأوى الشيوخ إلى دورهم فلا يجد مالك صبرا إلى الغد كى يسأل و يفهم لذا راح يسعى إلى الشيوخ فى بيوتهم و مساكنهم و قد ينتظر أحدهم فى الطريق الساعات الطوال ما يجد فيها ظل شجره تقيه حراره الشمس حتى إذا ما رآه يدخل داره ينتظر لحظات ثم يقرع الباب و كان فى بعض الأحيان يحمل معه تمرا يهديه لجاريه الفقيه لتمكّنه من الدخول على العالم.

و تعلق بالعلم تعلقا جادا فلزم عبد الرحمن بن هرمز و هو عالم من أجلّ علماء المدينه سبع سنوات لم يختلف فيها إلى غيره و كان يأخذ عنه المسائل الاجتهاديه و قضايا الفقه و كان ابن هرمز مشهورا بقوه عارضته و دلائل الحق و يقول الإمام مالك عن نفسه أنه اتخذ لنفسه ما يشبه الطرّاحه الصغيره، كان يأخذها معه فيجلس على صخره أمام دار ابن هرمز و لم يكن يطرق بابه خوفا من أن يزعجه منتظرا خروج الإمام يعنى ابن هرمز إلى الصلاه، فإذا خرج اتبعه و ذهب معه إلى المسجد.

ثم بدأ يأخذ عن نافع مولى (أى خادم) عبد اللّه بن عمر و كان من أحفظ علماء الحديث، كان حافظا و كان فقيها، أخذ الفقه و الحديث عن ابن عمر... ثم أخذ مالك أيضا عن الزهرى و كان يلازمه كما لازم ابن هرمز و كان يسير معه من بيته إلى المسجد.

يقول الإمام مالك عن نفسه: كنت أخرج من وقت الظهيره و ليس للأشياء ظل أتيمم درسا عند الزهرى... و أخذ مالك الحديث عن الزهرى مع قله من إخوانه و يقال إن الزهرى حدّثه فى يوم من الأيام نيفا و أربعين حديثا له و لبعض زملائه، فلما عادوا فى اليوم التالى قال الزهرى: استحضرتم كتابا لتسجلوا ما أملى عليكم خيفه أن تنسوها؟، فقال قائل منهم ينبؤك عنها هذا الشاب الأشقر (أى الإمام مالك)، فسأله الزهرى فتلا

علیه منها أربعین حدیثا مع أسانیدها فقال الزهری: و اللّه ما ظننت أنّ أحدا یأتیها غیری (أی لا یحفظها).

و کان الإمام مالک إذا جلس لتلقی الحدیث یسجل الحدیث و هو جالس و لما سئل هل أخذت من عمرو بن دینار قال لم آخذ و ذلک لأنی ذهبت إلی مجلسه فرأیته یحدّث و الناس حوله واقفین یکتبون عنه فلم أحب أن أکتب حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و أنا قائم لأنه کان یری فی هذا منقصه لحدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم... و تلقی الإمام مالک الفقه عن شیخه الکبیر ربیعه الذی کان یلقّب "بربیعه الرأی" مع أنه کان من علماء أهل المدینه.

تفوقه العلمی و جلوسه للفتیا:

تفوّقت مکانه مالک العلمیه علی کل أرباب الحلقات فی المسجد النبوی و عرف له الجمیع هذه المکانه سواء کانوا من شیوخه السابقین أو من العلماء الذین عاصروه. جلس الإمام مالک للفتیا و کان عمره ۲۵ سنه تقریبا علی أصحّ الروایات و یقول عن نفسه: لم أجلس للفتیا حتی أمرنی بالفتیا قرابه سبعین عالما، و أصبح رأیه فی أیه قضیه تعرض أو فتواه فیها مقدّما علی غیره مما جعل أصحاب الفتیا یتوقفون حتی قیل من غیر حرج: (لا یفتی و مالک فی المدینه!)...

و مما اشتهر به مالک أنه کان یقول لجاریته إذا جاء الناس إلی بابه لیسمعوا العلم أن تسألهم: هل جئتم لسماع الحدیث أم ابتغاء المسائل؟ فإن قالوا جئنا للمسائل خرج إلیهم و سمع منهم و أفتاهم و إن قالوا جئنا لنسمع الحدیث قالت الجاریه تریثوا قلیلا فتدخلهم إلی الدار و یدخل مالک فیغتسل و یلبس أحسن ثیابه و تحدیدا البیاض من الثیاب و یتطیّب ثم یدخل علیهم لیروی حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم. و کان یبکی إذا قال قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم.

عاش مالک فی المدینه المنوره و لم یبارحها (بخلاف کثیر من العلماء) إلی أی جهه أخری لیأخذ العلم من العلماء إذ إن المدینه هی دار هجره النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و کان العلماء هم الذین یرحلون إلیها من جمیع أنحاء العالم إما للحج أو الزیاره أو مجالسه علماء المدینه.

فکان أطیب الطّیب عند مالک ما یفوح و ینتشر من قبر المصطفی صلوات اللّه و سلامه علیه و أرقّ النسیم ما یهبّ حاملا ذکریات الماضی و ذکریات الوحی و النبوه و الجهاد و البطوله.

و بالرغم من أنه لم یغادر المدینه إلا أنه اطلع علی الظروف و البیئات المختلفه بسبب

احتکاکه بالعلماء من جمیع أنحاء العالم الذین کانوا إذا قدموا المدینه زاروه و إن لم یزوروه قدم هو إلیهم، یلقاهم و یتناقش معهم، لذلک اتسعت آفاقه الفکریه و مدارکه الاجتهادیه و أقام للمصلحه التی هی محور الشریعه الإسلامیه میزانا دقیقا... و اختار دار الصحابی الجلیل عبد اللّه بن مسعود سکنا له و کأنه یرید أن یشعر علی الدوام بنبضات عصر النبوه تخفق مع خفقات قلبه و تتردد مع أنفاسه و یعیش یومه کله فی عبق کریم و هذا التواصل الوجدانی بین مالک و بین حبیبه المصطفی صلّی اللّه علیه و سلّم جعله فی عقله و حسه یتّخذ من حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم أساسا و محورا لعلمه و فقهه.

کان مالک فی صدر حیاته فقیرا و کان والده صانعا، و تفرّغ مالک للعلم فأورثه ذلک شیئا من الفقر و لم تکن یومها تنفق الدوله علی طلبه العلم (ثم لما کان ذلک ارتاح العلماء و ازدهر العلم کثیرا)، لکنه بعد ذلک استغنی إذ کان له أخ یعمل بالتجاره فکان مالک إذا تجمع له مال یعطیه لأخیه لیتاجر له به ثم فتح اللّه علیه و استغنی فکان کثیر العطاء لطلبه العلم. و کان یحب أن یظهر أثر نعمه اللّه عز و جل علیه فی ملبسه و فی مطعمه و مسکنه و صار متجملا- فی مظهره و کان الذین یغشون داره من الضیوف یجدون فی أطرافها المخدات للاتکاء و الجلوس و یجدون کل أسباب الراحه و النظافه و المظهر الأنیق فی داره و لم یکن هذا عن حب للمال بل کان ینفق معظم ماله فی طرق الخیر تماما کأبی حنیفه و الشافعی رضی اللّه تعالی عنهم أجمعین.

و یروی عنه فی الأثر المشهور أنه قال: "ما أحب لامرئ أنعم اللّه علیه أن یری أثر نعمته علیه و خاصه أهل العلم".

و یروی الشافعی أنه فی إحدی زیاراته لبیت الإمام مالک رأی علی الباب هدایا من خیل و بغال أعجبته فقال لمالک بعد أن دخل علیه: ما أحسن هذه الأفراس و البغال. فرد علیه مالک یقول: هی لک فخذها جمیعا. قال الشافعی: أ لا تبقی لک منها دابه ترکبها؟ فقال مالک: إنی لأستحی من اللّه تعالی أن أطأ تربه فیها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بحافر دابه!. إلی هذا الحد من الحساسیه المفرطه فی الحب و التقدیس بلغ العشق فی قلب مالک للمدینه التی تضم أطهر الأجساد و أعظم خلق اللّه و أکرم الناس علیه أفضل الصلاه و أزکی السلام.

ورعه و تخوّفه من الفتوی:

اشتهر عن الإمام مالک کثره ترداده لکلمه "لا أدری" و ما کان علیه شیء أسهل من هذه الکلمه و لم یکن یشعر أن فی هذا منقصه له بل کان إذا

سئل عن مسأله قال للسائل أنظرنی حتی أفکر، و ربما یأتیه فی الغد فیجیبه و ربما یقول له أیضا أنظرنی. و یروی أنّ رجلا جاءه من أقصی المغرب فسأله عن موضوع و قال:

جئتک من مسیره سته أشهر من المغرب و حمّلت هذا السؤال، فقال له مالک: قل لمن أرسلک إنه لا یدری. قال فمن الذی یعلم؟ قال: الذی علّمه اللّه و لم یجبه و لکن قال له إن شئت عد غدا ریثما أفکر بها و أقرأ ما یمکن أن یتصل بها، حتی إذا جاء الغد جاءه الرجل فقال له مالک: فکرت بها ملیا و لا أدری ما الجواب! و لقد عوتب مالک فی ذلک فبکی و قال: إنی أخاف أن یکون لی فی المسائل یوم و أی یوم. و قال لهؤلاء المنتقدین:

من أحبّ أن یجیب عن مسأله فلیعرض علی نفسه الجنه و النار و لیتصور موقفه من اللّه غدا. فلننظر جمیعا إلی هذا الرجل الذی هان علیه أن یظهر جهله و هو العالم الذی یوثق بعلمه أین نحن الیوم من موقفه هذا حیث الواحد منا إذا ما سئل اعتصر دماغه و ذهنه و قد یصل به الأمر إلی أن یلفق جوابا خوفا من أن یقول عنه الناس إنه جاهل!!! و هذا الأمر و للأسف الشدید کثیرا ما یحدث مع علمائنا الیوم الذین یسارعون بالفتوی، الأمر الذی یوضح لنا الفرق بین هذا العصر و ذلک العصر و لعل هذه المقارنه توضح لنا أیضا الفرق بین قرب أولئک الأئمه من رحمه اللّه تعالی و بعدنا نحن عنها، أضف إلی ذلک کله سمو أهدافهم و مقاصدهم حیث کان همّهم الأکبر هو مرضاه اللّه سبحانه و تعالی نسأل اللّه عز و جل العفو و العافیه و أن یرزقنا الإخلاص و أن نحیا محیاهم و أن نحشر معهم إن شاء اللّه تعالی.

و جاء فی ترتیب المدارک للقاضی عیاض: "قال مصعب بن عبد اللّه: کان مالک إذا ذکر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم تغیّر لونه و انحنی حتی یصعب ذلک علی جلسائه، فقیل له یوما فی ذلک، فقال: لو رأیتم لما أنکرتم علیّ ما ترون، کنت آتی محمد بن المنکدر و کان سید القرّاء (أی سید العلماء) لا نکاد نسأله عن حدیث إلا بکی حتی نرحمه. و لقد کنت آتی جعفر بن محمد (أی جعفر الصادق) و کان کثیر المزاح و التبسم، فإذا ذکر عنده النبی صلّی اللّه علیه و سلّم اخضرّ و اصفرّ و کنت کلما أجد فی قلبی قسوه آتی محمد بن المنکدر فأنظر إلیه نظره فأتّعظ بنفسی أیاما.

الأجواء التی کانت سائده فی عصره و علاقته بالخلفاء:

عاش مالک فی الخلافه الأمویه و العباسیه فی عصر تسوده الفتن و کان موقفه کموقف الحسن البصری و سعید بن

المسيب الذين كانا قبله و هو موقف استنكار الفتن و الدعوه إلى الابتعاد عنها و كان إذا سئل عن تلك الفتن نصح بالابتعاد عنها و بعدم الولوج فيها. و قد صح أن الحسن البصرى كان ينهى عن الدعاء على أمثال الحجاج و غيره و كان ينهى عن مد اللسان فى قول السوء فى حقهم على الرغم من أنه لو شققنا صدر الحسن البصرى لرأيناه يستنكر الكثير من أعمالهم. و قد سمع مره الحسن البصرى رجلا- يسب الحجاج فقال له: لا- تفعل يرحمك اللّه إنكم من أنفسكم أوتيتم، إننا نخاف إن عزل الحجاج أو مات أن تليكم القرده و الخنازير. و روى البصرى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قوله المشهور: "عمّالكم عملكم و كما تكونوا يولّى عليكم" ،عمالكم أى رؤساؤكم هم أعمالكم أى انعكاس لأعمالكم... و كان الإمام مالك ممن يغشى مجالس الخلفاء و لم يكن يبتعد عنها و ذلك للنصح و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الوصيه بالخير فما كان يوفر جهدا ليوصى الخليفه أو ينصحه عند ما تسنح الفرصه و قد عوتب فى ذلك فقال: لو لا أنى أتيتهم ما رأيت للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى هذه المدينه سنّه معمول بها، فكان إذا أتاهم نصحهم لكى يحيوا سنه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و خاصه فى المدينه المنوره و كانوا يستجيبون لنصيحته.

لكنه كان إلى جانب ذلك يحترم نفسه فى مجالس الخليفه و الولاه و كان يفرض سلطانه عليهم. و كان إلى جانب كونه مهابا كان يحافظ على عزه نفسه فى هذه المجالس على خلاف عادته فى المساجد حيث كان إذا دخل المسجد يقف فى آخر الصف و لا- يأبى أن يتقدم و إن أصرّوا على تقديمه و يجلس حيث ينتهى به المجلس و كان كثير التواضع و لكن إذا غشى مجلس الخلفاء أو الولاه فرض عزته على المجلس كله.

جاء المهدى مره إلى المدينه و اجتمع إليه الناس و العلماء و ذهب مالك ليزوره فلما وصل وجد المجلس مزدحما و التفت الناس ينظرون أين سيجلس مالك يا ترى و ما سيكون موقفه. فقال الإمام مالك للمهدى: يا أمير المؤمنين أين يجلس شيخك مالك؟ فتضامّ المهدى و صغّر من جلسته و قال: هاهنا يا أبا عبد اللّه إلى جانبى، فوسع له و دخل مالك و تعالى و دينه أن يهان فى شخصه، الإمام مالك كان سمته سمه علم و إسلام و سمه المحافظه على الشرع لذا ينبغى لهذه السمه أن تكون هى المهيمنه و أن تكون هى العزيزه فى كل مكان، فاللّه تبارك و تعالى بالقدر الذى نهانا عن الكبر أمرنا أن نعتز بالإسلام و بالقدر الذى أمرنا بالتواضع نهانا فى الوقت نفسه عن الذل و جاء فى دعاء النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:

(اللهم إنى أعوذ بـك من الـذل إلا إليك)، و أى إنسان صاحب ذوق دقيق يسـتطيع أن يفرّق بين التواضع و الـذل المرفوض... و لما زار الرشـيد المـدينه و أراد لقاء مالك و كان قـد سـمع عن علمه الكثير، طلب أن يأتيه حيث نزل فقال مالك لرسول الخليفه: قل له إنّ طالب العلم يسعى إليه و العلم لا يسعى إلى أحد! فجاءه الخليفه زائرا معتذرا...

و لقـد روى الإمام مالك ذات مره حـديث "ليس على مسـتكره يمين" و شـرحه لتلامذته فى المسـجد و راح يبيّن للناس أنّ من طلّق امرأته مكرها لا يقع منه طلاق...

و لقد كان لهذا الحديث أثر كبير و حافز قوى لثوره أحد أحفاد الحسين بن على و هو النفس الزكيه على السلطه العباسيه و كان الخليفه وقتهـا المنصور. كـان محمـد يرى بأن أبا جعفر قـد أخـذ البيعه لنفسه غصـبا و إكراها فليس له فى رقاب الناس يمين و لا عهـد، و كـان محمـد يسـتند إلى فتوى مالك فى أنه ليس على مسـتكره يمين. أحسّ والى المـدينه بخطوره الموقف فأرسل إلى مالـك أن يكـفّ عن الكلام فى هـذا الحـديث و أن يكتمه على النـاس. أبى مالـك أن يكتم الحـديث أو أن يـتراجع عن فتواه فضـرب أسواطـا على مرأى النـاس و جـذب جـذبا غليظـا من يـديه و جرّ منها حتى انخلع أحـد كتفيه و حمل إلى داره و هو بين الحيـاه و الموت و ألزموه الإقامه فى الـدار إقامه جبريه فى عزله و حبس. فزع الناس فى المـدينه و التجئوا إلى اللّه تعالى يشـكون الظلـم و الظـالمين و اشـتد سـخطهم على الـوالى و على الخليفـه و غضـب العلمـاء و الفقهـاء فى كـل الأمصـار و الأقطـار. و رأى المنصور أنه لا بد من تصرّف يمتص غضب الناس يزيح التهمه عن نفسه فأمر والى المدينه بإطلاق مالك ثم جاء المنصور بنفسه إلى الحجـاز فى موسم الحـج و التقى بالإمـام مالـك و اعتـذر إليه و قـال: أنـا ما أمرت بالـذى كان و لا علمته و إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم.

و أمر بإحضار الوالى مهانا و بضربه و حبسه إلا أنّ مالكا عفا عنه.

علم الإمام مالك و أقوال بعض العلماء فيه:

أجمع المؤرخون و المترجمون أن الإمام مالك بلغ الذروه فى معرفه السنّه و الحديث و الفقه و قلما نال عالم مثلما نال مالك من المدح و أقرّ له علماء الرأى فى العراق و علماء الحديث فى الحجاز بأنه إمام فى كل منهما (أى الحديث و الفقه). قال عنه سفيان بن عيينه و كان معاصـرا له: كان لا يبلغ من الحـديث إلا صـحيحا و لا يحـدّث إلا عن ثقه للناس و ما أدرى المدينه إلا سـتخرب بعد موت مالك... قال عنه الشافعى: إذا جاءك الأثر عن مالك فشدّ به (أى تمسّك به) و هو

صحیح. و یقول إذا ذکر العلماء فمالک هو النجم فیهم.

أهم مؤلفاته: الموطأ:

طلب المنصور من مالک أن یضع کتابا یتضـمّن أحادیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و أقضیه الصحابه و فتاوی لیکون قانونا تطبّقه الدوله فی کل أقطارها و دیارها.

تردد مالـک ثم ألـحّ علیه المنصور فقبـل. و راح مالـک یعمـل عملاـ متقنـا جـدا خلال سـنین عـده راح خلالها طائفه من العلماء یعملون و یحـاولون أن ینـافسوا مالکـا طمعـا فی کسب رضـا الخلیفه. و کـان أصـحاب مالـک یـأتونه و یقولون له بأنّ تأخره فی الإنجاز قـد أتاح للآخرین أن یسـبقوه فقال مالک: "لا یرتفع إلا ما أریـد به وجه اللّه تعالی" ،و لقد کتب کثیر من معاصـریه کتبا کالموطإ و قـدّمت إلی الخلیفه، و کلمـا سـئل مالک أن یسـتعجل کتابه فقـد سـبقه الناس کان یقول: "ما کان للّه یبقی" ،حقیقه هکـذا کـان. و ظـلّ الإمـام مالک عاکفا علی عمله الضـخم سـنوات توفی خلالها المنصور حتی کان تمام العمل فی زمن هارون الرشـید الـذی تقبّله بقبول حسن و تقـدیر عظیم و أراد أن یعلّق الموطـأ فی الکعبه و لکن مالکـا أبی ذلـک. و یعتـبر الیوم کتـاب الموطـأ من أهم کتب السـنّه و یکـاد لا تخلو منه مکتبه إسـلامیه، أما تلک الکتب التی کتبها منافسوه فلم یبق لها أثر و کما یقول العلمـاء لو لاـ هـذه الحادثه مع الإمام مالک لما علمنا أصـلا أنه ألّفت هکـذا کتب، فتأمل یرحمنا اللّه و إیاک و لنتّعظ من هـذا و لنتیقن إن کـل عمل لا یبتغی به وجه اللّه تعالی لا یبقی، کُلُّ شَیْ ءٍ هالِکٌ إِلاّ وَجْهَهُ ، [القصـص: ۸۸]، قیل فی تفسیر هذه الآیه، کل شیء هالک إلا ما أبتغی به وجه اللّه تعالی.

منهجه العلمی:

الإمام مالک شأنه کشأن الإمام أبی حنیفه لم یـدوّن منهجا و لکن هذه القواعد أخذت و جمّعت من خلال عباراته فی کتبه و فی مقـدمه ذلک الموطأ فمن خلال کلامه نجـد أنه یأخـذ بالحـدیث المرسل و هو الحـدیث الـذی رواه التابعی رأسا عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم إن کان هذا التابعی ثقه.

أصوله الاجتهادیه:

أولا: إذا وجـد فی القرآن نصا بعباره صـریحه قاطعه واضـحه علی مبـدأ أو حکم ثم وجـد حدیثا مرویا عن طریق الآحاد یعارض هذا الخبر فإنّ مالک یأخذ بصـریح القرآن و یدع الآحاد... قال مالک و هو یفسر قوله تعالی: قُلْ لا أَجِدُ فِی ما أُوحِیَ إِلَیَّ مُحَرَّماً عَلی طـاعِمٍ یَطْعَمُهُ إِلاّـ أَنْ یَکُونَ مَیْتَهً أَوْ دَماً مَسْـفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِیرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْـقاً أُهِلَّ لِغَیْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْـطُرَّ غَیْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۴۵)، (الأنعام:

أولا: إذا وجد فی القرآن نصا بعباره صریحه قاطعه واضحه علی مبدأ أو حکم ثم وجد حدیثا مرویا عن طریق الآحاد یعارض هذا الخبر فإنّ مالک یأخذ بصریح القرآن و یدع الآحاد... قال مالک و هو یفسر قوله تعالی: قُلْ لا أَجِدُ فِی ما أُوحِیَ إِلَیَّ مُحَرَّماً عَلی طاعِمٍ یَطْعَمُهُ إِلاّ أَنْ یَکُونَ مَیْتَهً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِیرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَیْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَیْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۴۵)، (الأنعام:

۱۴۵).. هذا نص صریح و واضح بعدم تحریم غیر ما ذکر. و فی المقابل روی فی خبر الآحاد الصحیح: عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یرویه أبو داود أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم نهی عن أکل کل ذی ناب من السباع و کل ذی مخلب من الطیور. فرجّح مالک النص علی الآحاد فیجوز عنده أکل کل ذی ناب من السباع و ذی مخلب من الطیور و إن کان جمهور الفقهاء علی الحرمه.

ملاحظه: الإمام مالک کغیره من العلماء یأخذ بالحدیث الآحاد إن کان صحیحا و هو عنده حجه و لکن إذا تعارض مع نص من کتاب اللّه تعالی أو مع حدیث متواتر و لم یمکن الجمع بینهما، قدّم النص من کتاب اللّه عز و جل أو الحدیث المتواتر و لم یجعل حدیث الآحاد یخصص النص القرآنی أو الحدیث المتواتر کما فعل غیره من الفقهاء کالشافعی مثلا.

ثانیا: مالک یعیش فی المدینه و بصمات رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم واضحه فی هذه البلاد فعادات أهل المدینه و ما یتفق علیه علماء أهل المدینه فی عصره و العصر الذی قبله کلها من مخلفات النبوه لأن العهد ما بعد بینه و بین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، بناء علی ذلک إذا وجد حدیث آحاد مرویا عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بالسند و وجد عمل أهل المدینه علی خلاف ذلک الحدیث یرجّح مالک عمل أهل المدینه علی ذلک الحدیث، لا لأنه یرفض الحدیث و لکن لأنه یعتقد أن ما أجمع علیه علماء المدینه ما أخذوه من عند أنفسهم و إنما هی وراثه ورثوها عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم. یقول الإمام مالک فی رساله للّیث بن سعد: إنّ أهل المدینه هم من الذین قال اللّه تعالی عنهم: وَ السّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِینَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِینَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ ، [التوبه: ۱۰۰]، و أوضح اللّه تعالی أنّ هؤلاء السابقون من المهاجرین و الأنصار الذین استقر بهم المقام فی المدینه المنوره ینبغی أن یتّبعوا و أن نهتدی بهدیهم".

مثال ذلک، الحدیث الصحیح الآتی:" المتبایعان بالخیار ما لم یتفرّقا ".الشافعی عنده التفرق هو تفرق الأبدان و عند الحنفیه هو تفرق موضوع الکلام و لکن مالک یقول عمل أهل المدینه علی خلاف هذا، فعلماء المدینه السبعه و عامه الناس یقولون إن العقد إذا تمّ بالإیجاب و القبول کان العقد لازما.

مثال آخر، الحديث المشهور:" البيّنه على المدّعى و اليمين على من أنكر ".قال مالك نأخذ بهذا الحديث و لكن يخصّصه و يفسّره عمل أهل المدينه و هو أنّ هذا الحديث يطبّق بشرط أن ينظر القاضى فيجد أنّ بين المدّعى و المدّعى عليه علاقه ما إمّا جوار أو قرابه أو شركه... فإن لم يجد القاضى مثل هذه الصله فله أن لا يسمع الدعوى و ذلك لكى لا يتلاعب السفهاء بالوجهاء فيأخذوا منهم أموالهم خشيه تشويه سمعتهم، مثال ذلك أن يدّعى سفيه على أحد الوجهاء دعوى باطله، فلو أخذ بها القاضى لاضطر ذلك الوجيه إلى الذهاب إلى القاضى و عندها قد يدفع الوجيه شيئا من المال للسفيه الذى ادعى عليه تلك الدعوى الباطله و ذلك لكى لا تشوّه سمعته بالامتثال بين يدى القاضى.

ثالثا: إذا ثبت قانون شرعى و قاعده شرعيه عامه مثل:" وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى "، يقول الإمام مالك: إذا وجدنا بين هذه القاعده الضخمه الكبيره و بين جزئيات الأدله تناقضا، نأخذ بالقاعده و نترك هذه الجزئيات.

مثال ذلك: الحديث الصحيح عن عائشه رضى اللّه عنها: "إنّ الميّت ليعذّب ببكاء أهله عليه" .قال مالك هذا يتناقض مع القاعده التى مرّت معنا سابقا (و لا تزر وازره وزر أخرى)، و بناء على ذلك فلا ذنب للميت إن بكى أهله عليه فلم يأخذ بالحديث.

و لكن الشافعى مثلا و هو تلميذ مالك أخذ بالحديث و قال إنّ عذاب الميت فى قبره هنا هو عذاب نفسى و ليس عقابا من اللّه عز و جل و إنما هو عقاب خاص يأتى نتيجه لتصرفات أهله، فهو يتألم من فعل أولاده و يتمنى لهم الصلاح لأن اللّه تعالى يطلعه على أفعالهم التى قد لا تخلو من معاصى و أمور مختلفه تكون سببا لغضب اللّه تعالى عليهم.

مثال آخر: الإمام مالك وحده يفتى بعدم نجاسه لعاب الكلب و كذا رشحه و لكن الحديث الصحيح يقول: "إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليرقه و ليغسله سبعا إحداهن بالتراب" .قال مالك من المتفق عليه أنه يجوز استعمال الكلب فى الصيد و الكلب إذا اصطاد لا بد أن يمسك الطريده بفمه و يصيبه من لعابه لذلك أخذ بالقاعده العامه التى تفيد جواز صيد الكلب، ثم قال عن هذا الحديث انه مضطرب و هذا دليل ضعف فقد ورد الحديث بعده روايات (أولهن - أخراهن - إحداهن بالتراب).

رابعا: الأخذ بالاستحسان و هو عباره عن جزئيه صغيره اقتضتها مصلحه دينيه ثابته فى كتاب اللّه و إن عارضت هذه الجزئيه مبدأ كليا و يؤخذ به استثناء.

مثال ذلک قاعده أن الأخ المیت إذا مات و ترک أخا شقیقا أی لأب و أم هذا یسمّی عصبه و یأخذ کل ما تبقی من المال مثلا إذا کان المیت لیس له إلا أخ یأخذ کل الأموال و إذا مات و لیس له إلا أخ أو أخ شقیق، الأم تأخذ السدس و الأخ أو الأخوه الأشقاء یأخذون الباقی. إن مات رجل و ترک زوجا و أمّا و إخوه لأم و أخا شقیقا، الزوج یأخذ النصف و الأم تأخذ السدس و الأخوه لأم یأخذون من الثلث لم یبقی للأخ الشقیق شیء إن طبّقنا هذه القاعده.

هنا الإمام مالک و غیره عادوا فوجدوا أنّ الأمر قد رفع إلی سیدنا عمر رضی اللّه عنه فحکم أنه لیس للأخوه الأشقاء شیء فقال الأخوه الأشقاء هب أننا إخوه لأم فقط أ لا یکون لنا؟ قال: نعم، ثم جعل الإخوه للأم و الأخ الشقیق یشترکون معا فی الباقی.

القاعده علی خلاف ذلک و لکن هذه الجزئیه هی لمصلحه الشریعه لأن الشریعه تقتضی هذا الاستثناء.

فائده: الحقیقه أنه لیس بین الأئمه خلاف فی الأصول الشرعیه فإنهم متفقون علی حوالی سبعین بالمائه منها و إنما هناک خلاف فی العناوین یتعلق بالفروع الجزئیه و یشکّل حوالی ثلاثین بالمائه فقط و ذلک رحمه بالأمه و توسیعا علیها، فالحمد للّه أولا و آخرا الذی وفقهم أن یجتمعوا علی ما اجتمعوا علیه فإن اجتماعهم هذا خیر للأمّه و الحمد للّه الذی ألهمهم أن یختلفوا فیما اختلفوا فیه فإن اختلافهم أیضا رحمه للأمه.

خامسا: مبدأ سد الذرائع: و هذا المبدأ مأخوذ من قوله تعالی: وَ لا تَسُبُّوا الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَیَسُبُّوا اللّهَ عَدْواً بِغَیْرِ عِلْمٍ کَذلِکَ زَیَّنّا لِکُلِّ أُمَّهٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلی رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَیُنَبِّئُهُمْ بِما کانُوا یَعْمَلُونَ (۱۰۸)، (الأنعام: ۱۰۸).. "وَ لا تَسُبُّوا الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَیَسُبُّوا اللّهَ عَدْواً بِغَیْرِ عِلْمٍ "، الأئمه کلهم یأخذون بهذا المبدأ و لکنهم یختلفون بالمقدار الذی ینبغی أن یأخذوا به، مثال ذلک سب المؤمن لدین کافر أو لمن یتخذه إلها بزعمه أصله مباح و لکن إذا کان هذا العمل المباح ینتج عنه عمل محرّم فیسب الکافر اللّه تعالی عندها یصبح هذا العمل المباح فی أصله محرما لا لذاته و لکن لما قد ینتج عنه و هذا ما یسمّی بمبدإ سد الذرائع.

و مثال ذلک أیضا، إطاله السهر مباح أیضا و لکن إن کان هذا سیمنعک عن أن تستیقظ لصلاه الصبح تحوّل المباح إلی محرّم و هذا باتفاق الأئمه.

مثال آخر، بیع السلاح فی أصله مباح و لکن إذا علمت أنّ هذا یأخذ منک سلاحا لیؤذی به الآخرین أو کان وقت الفتنه فلا یجوز.

سادسا: المصالح المرسله: رائدها فی الشریعه الإمام مالک.

جاءت الشریعه لتحقیق خمسه أنواع من المصالح و هی علی هذا الترتیب: الدین، الحیاه، العقل، النسل أو العرض و المال. کل الأئمه الأربعه أخذوا بها.

المصالح المرسله هی أن یری العالم الفقیه أمامه مصلحه حدیثه العهد طارئه، لم تکن موجوده من قبل تقتضی حکما شرعیا و لکن هذا الفقیه لا یجد علیه (أی علی الحکم الشرعی) دلیلا من القرآن أو السنّه و لا یجد دلیلا علی حکم یشبهه للقیاس لا سلبا و لا- إیجابا، فما العمل؟ یقول مالک: أنا أعود بهذه المسأله فی الحکم إلی جنس هذه المصلحه التی یحققها الحکم، ننظر هل هی واحده من هذه المصالح الخمس التی جاءت الشریعه بحمایتها و رعایتها؟ فإن کانت واحده من هذه المصالح و کان الأخذ بها لا یفوّت مصلحه أهمّ منها یقول مالک أنا أجتهد علی وفق هذه المصلحه. و هذا باب عظیم فی الاجتهاد و سنورد فی ما یلی بعض الأمثله و النماذج لتوضیح الصوره:

۱ - منع عمر بن عبد العزیز الناس أن یشتروا أراض فی منی و أن یبنوا علیها بیوتا لهم لأن ذلک سیضیق علی الحجّاج مع أنه لا یوجد نص فی ذلک و لکن من باب المصالح المرسله أصدر عمر بن عبد العزیز أمره هذا (و هو ما یسمیه الحنفیه مقاصد الشریعه).

۲ - قال الإمام مالک لو أنّ صبیانا یلعبون و یتشاجرون و یمزّق أحدهم ثوب الآخر أو یتلف متاعا (یکسر زجاج منزل أو سیاره مثلا) فالوالد (أی أبو الولد الذی سبب الضرر) یضمن (أی یدفع تعویضا عن الضرر الحاصل) و إن لم یکن الولد بالغا. و لکن هنا الشهود کلهم أولاد و القاعده أنّ الشهاده لا تصحّ إلا من بالغ کبیر. ما ذا نفعل إذا ترکنا القضیه هکذا؟ طبعا ستقع مفاسد کثیره. المصلحه المرسله هنا التی تتوخاها الشریعه هی أن نقبل شهاده الصبیان بعضهم علی بعض فی أمور إجرائیه من هذا القبیل.

۳ - تدوین قواعد اللغه العربیه و المجامع الفقهیه و المؤتمرات کلها أشیاء حسنه تخدم مصلحه الدین...

سابعا: العرف: إنّ العرف فی الشرع له اعتبار فیما لم یرد فیه نص أو کان الأمر غامضا، و الأئمه کلهم متفقون علی ذلک. یقسم مالک العرف إلی قسمین: عرف قولی عرف فعلی أو سلوکی (فقط فی العقود).

مثال على العرف القولى: كلمه اللحم، فلو أنّ رجلا أقسم أن لا يأكل لحما، ننظر ما ذا تعنى كلمه اللحم فى عرفهم أحيانا تطلق و يقصد بها لحم الضأن (الخروف) و فى بعض الأعراف تطلق و يقصد بها لحم البقر و فى بعض الأعراف يقصد بها لحم السمك.

فإذا يقع القسم على ما هو معروف عندهم إلا إن قصد كل اللحم ساعتئذ تكون النيه مقدّمه على دلاله العرف.

مثال آخر على العرف القولى: لو نـذر فلان أن يتصـدّق بكل ما فى جيبه من دراهم و كانت الـدراهم فى عرفهم تطلق على عمله البلاد فلا يجب عليه أن ينفق من العملات الأخرى إن وجدت فى جيبه إلا إن نوى غير ذلك.

أما العرف السلوكى فهو مثلا أن يعقـد فلان على فلانه دون أن يتفقا على موعـد لدفع المهر و كان العرف أن يدفع قبل الدخول ساعتئذ يكون هذا هو الحكم.

و لو اشترى أحـدهم سياره مثلا- و لم يشترط أن تكون مكيّفه و البـائع لم يشترط ذلـك فاختلف المشترى و البائع، ننظر إن كان العرف أن تكون غير مكيفه كما فى بلادنا فالحق مع البائع أما إن كان العرف أن تكون مكيفه كما فى بلاد الخليـج فيكون الحق مع المشترى.

قاعده: المعروف عرفا كالمشروط شرطا

يقول الإمـام مالـك إن النصوص القرآنيه و نصوص السـنّه إنمـا تفسّـر على ضوء العرف القولى فى عصـر النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم، و هكذا فالعرف القولى مفتاح هام و خطير جدا لفهم النصوص.

و نضـرب على ذلك مثلا ما جاء فى الصـحيح أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم قال: إن زكاه الفطر هى صاع من غالب قوت البلـد. كلمه صـاع عباره عن مكيال معيّن هـذا المكيال يتغير من بلـد إلى بلـد و من عصـر إلى عصـر، فالصّاع فى العراق كان غير الصاع فى مصـر غير الصاع فى المـدينه... فإذا نحن نفسـر ذلك بما كان معروفا عند ما قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم هذا الحديث فى المدينه.

مثال آخر كلمه النبيذ كانت تعنى أو يقصد منها شـراب مكوّن من الماء و التمر و لا يقصد بها النبيذ المسكر المعروف فى عصرنا و قد شـرب رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم النبيذ و هذا كان سـبب الإشـكال الذى وقع فيه الكثير من المستشرقين عند ما قرءوا كتب التاريخ فوجدوا أن هارون الرشيد كان يشرب النبيذ و ظنوه من السكارى.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:" إنّ من أشدّ الناس عذابا يوم القيامه المصوّرون "،و فى

حديث آخر" كلّف أن ينفخ فيه الروح و ما هو بنافخ "،هنا نفسر المصوّر حسب العرف الدارج فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و بهذا لا يشمل الحديث الصور الفوتوغرافيه و المرايا و انعكاس الضوء فيكون حكم هذه الأشياء الجواز علما أن الإنسان له أن يبتعد عن هذه الأمور من باب الورع و لكن هذا لا ينفى جوازها و عدم حرمتها فالورع أمر و الجائز أمر آخر. و بالطبع فالشيء المصوّر له حكم آخر إن كان صورا لفتيات عاريات لا خلاف فى أنه حرام قطعا.

أما الدليل الشرعى للأخذ بالعرف أن اللّه تعالى أمرنا بكثير من الآيات أن نحتكم إلى العرف بقوله تعالى: وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (١٩٩)، أى اجعل العرف أساسا... قالت هند زوجه أبى سفيان يوم فتح مكه و كانت تبايع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم على أن لا تسرق و لا تزنى، قالت له: لقد كنت آخذ من مال أبى سفيان الهنه تلو الهنه (أى الشيء القليل دون علمه)، ما ذا أصنع؟ فقال لها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم عن المستقبل:" خذى ما يكفيك و أولادك بالمعروف".

مثال آخر: قال اللّه تعالى * وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ ، قال الإمام مالك إن كانت المرأه من الأغنياء أو كانت شريفه (العاده عندهم أن النساء الأغنياء لا يرضعن) ساعتئذ لا يجب عليها الإرضاع و لكن هو حق لها، أما إن كانت غير ذلك فهو واجب عليها، لأن ذلك لم يأت بصيغه الأمر الجازم كقوله تعالى: وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ ، [البقره: ٢٣٣].

قاعده: إن النص يهيمن على العرف و لا يهيمن العرف على النص.

و نأخذ بالعرف فقط فى الأمور التى علّقها النص على العرف، أما ما ورد فيه نص فلا يغيّره العرف حتى لو ترك أهل بلد ما جميعا العمل بحكم شرعى، يبقى الحكم الشرعى كما هو. فلا نقول إنّ العرف السائد اليوم هو عدم ارتداء الحجاب مثلا خلافا للعرف قديما و أن الزمن قد تغير، فلو كان الأمر هكذا ما كان للشريعه الإسلاميه معنى إذا كنا دائما نحتكم إلى العرف فقط دون النص.

أسباب انتشار مذهب الإمام مالك:

شاع مذهب الإمام مالك فى المغرب كثيرا مع أن مالكا لم يترك المدينه و ذلك لأن المدينه كانت تستقطب أناسا و علماء كثر أيام الحج و فى غير أيام الحج... و من الأسباب التى ساهمت على انتشار مذهب الإمام مالك دون

سواه كمذهب الأوزاعى أو سفيان الثورى، تقييض اللّه سبحانه و تعالى لمالك تلاميذ كثر من مختلف الأصقاع فمن مصر كان الليث بن سعد و من المغرب و من العراق و من الشام و من اليمن، كلهم تتلمذوا على الإمام مالك و هم الذين قاموا بنشر مذهبه حتى وصلنا بالتواتر بحيث يستطيع الإنسان أن يجزم أنه عند ما يقرأ الموطأ أو المدونه بروايه سحنون أو غيره من تلامذه مالك يستطيع أن يجزم أنه يتبع إماما راسخا فى العلم يبرأ ذمته عند اللّه باتباعه و الحمد للّه. و هكذا انتشر مذهبه فى المغرب و فى مصر و فى صعيد مصر و فى اليمن و فى أنحاء مختلفه متفرقه حتى أنّ فرنسا حين استعمرت أقسام كثيره من المغرب مده طويله، اطّلع علماء القانون الفرنسيون على الفقه الإسلامى لا- سيما مذهب الإمام مالك فأعجبوا به أيّما إعجاب، لذلك نرى أن القانون الفرنسى اليوم يعتمد اعتمادا كبيرا على فقه مالك. و بواسطه هذه النافذه انتشر الفقه الإسلامى فى فرنسا و اطّلع عليه كثير من المستشرقين فى أوروبا الذين بدءوا يتحركون لصدّ و محاربه هذا الغزو الإسلامى و ذلك بزرع الشكوك و الشبهات ليبعدوا الناس عن الإسلام، فادعوا قائلين: هؤلاء العرب أصحاب الأدمغه القانونيه مثل مالك و أبو حنيفه جاءوا إلى الأعراف القبليه عند العرب فدوّنوها و جمعوها و نظّموها و فكروا بطريقه يخلدون هذه الأحكام بها و وجدوا أنّ الطريقه هى أن يبتدعوا لها إطارا دينيا فاخترعوا لها الأدله من الأحاديث و النصوص القرآنيه لكى يرسخوا بهذه الأدله الأعراف العربيه و القبليه التى كانت سائده منذ العصر الجاهلى!!!. أ يعقل هذا الكلام؟ الإمام مالك الذى رحل إليه الناس و قال لا أدرى و الذى كان لا يحدّث حتى يغتسل و يلبس البياض من الثياب و يبكى عند ما يذكر حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و الذى لم يطأ المدينه بحافر دابه قط أدبا مع النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، أ يعقل بعد كل هذا أن يقال عنه ما قيل؟. فهذا شاخت، و هو أحد المستشرقين أعداء الإسلام يقول إنّ مالكا اخترع الحديث! فكل واحد يقيس الناس على نفسه: الدجّالون أمثال كريمر و شاخت و غيرهم يجلسون فى ما بينهم فيختلقون الأكاذيب ثم يظهرونها على أنها حقائق و يظنون أن غيرهم يفعل الشيء نفسه.

يقول الدكتور أمين المصرى رحمه اللّه و هو أحد علماء الشام إنه عند ما ذهب إلى أوروبا لنيل شهاده الدكتوراه فى الشريعه الإسلاميه - هكذا حظنا أن ندرس الشريعه الإسلاميه فى أوروبا؟! -، فكّر فى موضوع لأطروحته، فوجد كتاب شاخت عن الفقه الإسلامى من أهم الكتب فى أوروبا (و كتاب شاخت هذا يعتمد و يؤكد هذه النظريه الباطله

التی أشرنا إلیها عن اختراع مالک للحدیث)، فقرر أن تکون أطروحته دراسه هذا الکتاب. فجاءت دراسته موضحه بما لا مزید علیه اللبس الحاصل کاشفه أکاذیبهم دافعه لکل أباطیلهم و افتراءاتهم بحیث یتبین القارئ المنصف حقد أولئک المستشرقین و تعنتهم الذی أخرجهم عن المنهج العلمی فی البحث و دفعهم لاختلاق الأکاذیب... هذا ما دفع إداره الجامعه إلی رفض أطروحته و ألزمته بالتحول عن هذا الموضوع، فلما أبی لم یستطع أن یحصل علی شهاده الأستاذیه و اضطر أن یأخذ شهاده فی علم النفس و علم التربیه و أن یترک دراسه الشریعه الإسلامیه فی الغرب.

وفاته: توفی الإمام مالک فی أوائل عام ۱۷۹ ه عن ۸۷ سنه فی الأرض التی لم یفارقها قط إلا للحج حبا و شوقا للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم. و قد بقی مفتیا للمدینه مده ستین سنه. و کان من أبلغ الناس حزنا علیه و أشدهم بکاء تلمیذه النجیب و وارث الإمامه من بعده محمد بن إدریس الشافعی. و لقد دفن مالک رضی اللّه عنه فی البقیع.

و کان الإمام مالک قد ترک حضور الجنازات فی آخر حیاته و کان یأتی أصحابها فیعزیهم ثم ترک ذلک کله و لم یشهد الصلوات فی المسجد و لا الجمعه أیضا، فعوتب فی ذلک فقال: لیس کل الناس یقدر أن یتکلم بعذره. و علم بعد ذلک أنه کان قد اصیب بسلس البول و کان یخشی أن ینجّس مسجد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم، و قال و هو یودّع الدنیا: لو لا أنی فی آخر یوم من الدنیا و أوله من الآخره ما أخبرتکم، سلس بولی، فکرهت أن آتی مسجد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم علی غیر طهاره استخفافا برسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم و کرهت أن أذکر علّتی فأشکو ربی!!!.

من أقواله:

- کلما کان رجل صادق لا یکذب فی حدیثه (أی مطلق حدیث) إلا متّع بعقله و لم یصبه مع الهرم آفه و لا خرف.

- من لم یکن فیه خیر لنفسه لم یکن فیه خیر لغیره.

انتهینا من الحدیث عن الإمام مالک و فقهه و السبب الذی جعل مذهبه ینتشر و یترسخ فی کثیر من أنحاء العالم الغربی و الإسلامی و عرفنا کیف أنّ اجتهاد الإمام مالک زاد فی التقریب بین مذهبی أهل الحدیث فی الحجاز و أهل الرأی فی العراق. و عرفنا لما ذا نمت مدرسه الحدیث فی الحجاز و لما ذا نمت مدرسه الحدیث فی العراق. تکلمنا أیضا عن دور الإمام أبی حنیفه و الإمام مالک فی نسج شجون الصله بین هذین المذهبین فی الشکل

الذی ذکرناه و انتهینا إلیه. و الآن ننتقل إلی الکلام عن الإمام الشافعی رحمه اللّه تعالی.

۳ – ترجمه الإمام الشافعی رضی اللّه عنه:

بشاره النبی صلّی اللّه علیه و سلّم به:

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم عن علی و ابن عباس: "اللهم اهد قریشا فإنّ العالم منهم یسع طباق الأرض فی آخرین" ،رواه أحمد و الترمذی و قال حسن...

و قال صلّی اللّه علیه و سلّم: "لا تسبّوا قریشا فإنّ عالمها یملأ الأرض علما" ،قال ابن حجر الهیثمی حدیث حسن له طرق عدیده.

اسمه و نسبه و تاریخ میلاده:

هو محمد بن إدریس الشافعی، ولد بالاتفاق عام ۱۵۰ هجریه أی فی العام الذی توفی فیه أبو حنیفه و قد غالی البعض فقال فی الیوم نفسه الذی مات فیه أبو حنیفه. و الصحیح الذی ذهب إلیه الجمهور أنه ولد فی غزه فی فلسطین، والده قرشی و یلتقی نسبه مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فی عبد مناف جده صلّی اللّه علیه و سلّم. أما أمه فمن قبیله أخری، من قبیله الأسد و هی قبیله عربیه أصیله و لکنها لیست قرشیه. ولد الشافعی فی أسره فقیره جدا، و بعد ولادته بعامین توفی أبوه فقررت أمه العوده بابنها محمد إلی مکه لأنه قرشی حتی لا یضیع نسبه و لأن له سهم من ذوی القربی.

و لکن هذا المال الذی کانت تأخذه من سهم ذوی القربی کان قلیلا و قلیلا جدا، فعانت هی و ولیدها محمد حرمانا و فقرا. و لکن الأم کانت قویه الشخصیه راسخه الإیمان، علی جانب من العلم و الحفظ، فأرادت لولدها أن یتعلم و یحفظ فدفعت به إلی مکان فی مکه یقرئ الصبیان. و لکن الأم لم تجد أجر المعلم، فکان الشیخ المقرئ یهمل و یقصّر فی تعلیم الصبی المتعطّش إلی العلم و المعرفه و لکن کان المعلم إذا علّم صبیا شیئا، تلقّف الشافعی ذلک الکلام ثم إذا قام المعلم من مکانه لیقضی شأنه أخذ محمد مکانه و راح یعلم الصبیان تلک الأشیاء. و رآه المعلم یفعل ذلک، فارتاحت نفسه و نظر إلی أنّ الشافعی یکفیه من أمر الصبیان أکثر من الأجره التی یطمع بها منه فترک طلب الأجره و استمرت هذه الحال مع الشافعی حتی حفظ القرآن و هو دون العاشره من عمره و منهم من قال و هو ابن سبع سنین.

عرف الشافعی بشجو صوته فی القراءه. قال ابن نصر: کنا إذا أردنا أن نبکی قال بعضنا لبعض: قوموا إلی هذا الفتی المطلبی یقرأ القرآن، فإذا أتیناه (یصلی فی الحرم) استفتح القرآن حتی یتساقط الناس و یکثر عجیجهم بالبکاء من حسن صوته فإذا رأی

ذلک أمسک من القراءه.

تحصیله و طلبه للعلم:

کانت أمه قد وجّهته لإتقان القراءه و التلاوه و التفسیر علی شیوخ المسجد الحرام و لم یکد یبلغ الثالثه عشره من عمره حتی أتقن ذلک إتقانا جیدا ملفتا للنظر. ثم اتجه الشافعی إلی علم الحدیث فلزم حلقه سفیان بن عیینه و مسلم بن خالد الزنجی فی المسجد الحرام. و کان الورق غالی الثمن باهظ التکالیف و الشافعی و أمه فی قله و فقر فکیف یفعل فی التدوین؟ یروی أنه کان یلتقط العظام العریضه فیکتب علیها أو یذهب إلی الدیوان فیجمع الأوراق المهمله التی یلقی بها فیستوهبها و یکتب علی ظهرها. هذه المعاناه وفقته إلی أن یعتمد علی الحفظ فتکوّنت لدیه حافظه قویه ساعدته مستقبلا علی حفظ کل ما یسمع و ما یلقی إلیه من علم و معرفه.

و بذکائه و ملاحظته أدرک الشافعی أنّ لغه قریش قد دخلتها ألفاظ غریبه و لم یعد لسانها هو اللسان العربی السلیم فی فصاحته و بیانه، و علم أنه لا یستطیع أن یجید علوم القرآن و الحدیث و استخراج الأحکام من النصوص إلا إذا أتقن اللغه العربیه الصحیحه.

و کان یحضر فی المسجد الحرام دروس إمام مصر اللیث بن سعد حین یأتی حاجا أو معتمرا و کان یوصی مستمعیه أن یتقنوا اللغه و أسرارها و أن یتعلموا خاصه کلام هذیل و هم قبیله فی الباديه و أن یحفظوا أشعارهم لأن هذیل أفصح العرب. انطلق الشافعی إلی مضارب هذه القبیله فأقام فی ظهرانیهم و لازمهم عشره أعوام عکف خلالها علی دراسه اللغه و آدابها و حفظ الشعر (حفظ أکثر من عشره آلاف بیت) کما تعلّم الرمایه و الفروسیه و برع فیهما. و روی الشافعی عن نفسه فقال: کانت همّتی فی شیئین، فی الرمی و العلم فصرت فی الرمی بحیث أصیب عشره من عشره ".و سکت عن موضوع العلم تواضعا علما أنه فی العلم أکثر من ذلک. عاد إلی مکه و هو یحمل ثروه هائله من شعر و أدب العرب حتی قال الأصمعی - راویه العرب المشهور -" صحّحت أشعار الهذلیین علی فتی من قریش یقال له محمد بن إدریس ".و أصبح الشافعی حجه عصره فی اللغه. و عاد إلی مکه لیتعلّم عند علمائها من أتباع عبد اللّه بن عباس و جعفر الصادق.

و کان الإمام سفیان بن عیینه إذا جاءه شیء من التفسیر أو الفتیا التفت إلی الشافعی فقال: سلوا هذا الغلام.

و کان الشافعی یوما یحضر مجلس ابن عیینه فحدّث ابن عیینه بحدیث أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم کان معتکفا، فأتته صفیه، فلما ذهبت ترجع مشی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم معها فأبصره رجل

من الأنصار فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:" إنها صفيه، إنّ الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ".فقال ابن عيينه: ما فقه هذا الحديث يا أبا عبد اللّه؟ فقال الشافعى: لو كان القوم اتهموا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لكانوا بتهمتهم إيّاه كفارا و لكنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم أدّب من بعده فقال إذا كنتم هكذا فافعلوا هكذا حتى لا يظنّ بكم، لا أنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم - و هو أمين اللّه فى وحيه - يتّهم. فقال ابن عيينه: جزاك اللّه خيرا يا أبا عبد اللّه ما يجيئنا منك إلا ما نحبه. و لا عجب فى ذلك فقد كان يعمل و يهتدى وفق توجيهات أمّه البارّه التى كانت عالمه، حافظه و فقيهه. فقد استدعيت مره للشهاده أمام قاضى مكه و معها امرأه أخرى و أراد القاضى أن يفرّق بينها و بين المرأه الأخرى فى الشهاده ليسمع كلّا منهما على حده، فاعترضت و طلبت إلى القاضى أن تكون شهادتها و شهاده المرأه الأخرى بحضور كليهما و استدلّت على ذلك بقوله تعالى: أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى ، [البقره: ٢٨٢].

و أجازه شيخ الحرم الإمام مسلم بن خالد الزنجى و كان أول من أجازه فقال له و هو غلام: أنت يا أبا عبد اللّه و اللّه لقد آن لك أن تفتى. و لكن الشافعى مع هذا رفض أن يفتى و كيف يفعل ذلك و هو يعتبر أنّ سلّم العلم ما زال طويلا، و كيف يفعل ذلك و الإمام مالك فى المدينه و قد سمع من حديثه عند ما جاء حاجّا إلى بيت اللّه الحرام؟!!!.

و أدرك الشافعى ما عند مالك من علم واسع و أحب لقاءه و لكنه تهيّب أن يرحل إليه قبل أن يأخذ من علومه شيئا، فأقبل على الموطأ فحفظه غيبا و لم يكن يملك ثمنه فاستعاره و حفظه. و خشى أن لا يستقبله الإمام مالك لحداثه سنّه فلقد اشتهر عن مالك أنه رغم سماحته و طيب خلقه كان صارما فى العمل و لا يبيح وقته للناس و لا يستقبل من يطرق بابه خلال راحته فى داره. و لكن الشافعى الشاب المتوقد المتوهج المتعطش إلى غرف العلم لا يشبع نهمه الجلوس فى حلقات درس مالك فى المسجد و لكنه يريد أن يتفرّد بلقائه. فتوسطت له أمّه عند والى مكه، فأرسل معه رساله إلى والى المدينه. فلما وصلت الرساله إلى والى المدينه و قرأها قال: يا فتى إنّ مشيى من جوف مكه إلى جوف المدينه حافيا راحلا أهون علىّ من المشى إلى باب مالك، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه!... فقال الشافعى: أصلح اللّه الأمير، إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر. فقال الأمير: هيهات، ليت أنى لو ركبت أنا و من معى و أصابنا من تراب العتيق (حى يسكنه مالك) نلنا بعض حاجتنا. و واعده على الذهاب إلى مالك فى وقت العصر. و يروى

الشافعی فیقول: و رکبنا جمیعا، فو اللّه لکان کما قال، لقد أصابنا من تراب العتیق فتقدم رجل منا فقرع الباب فخرجت إلینا جاریه سوداء فقال لها الأمیر: قولی لمولاک أنی بالباب. فدخلت ثم خرجت فقالت: إنّ مولای یقرئک السلام و یقول إن کان لدیک مسأله فارفقها فی رقعه یخرج إلیک الجواب و إن کان للحدیث فقد عرفت یوم المجلس فانصرف. فقال لها الأمیر: قولی له إنّ معی کتاب والی مکه إلیه فی حاجه... فدخلت و خرجت و إذا بمالک قد خرج و علیه المهابه و الوقار و هو شیخ طویل مسنون اللحیه، فرفع الوالی الکتاب إلی الإمام مالک فطفق یقرأه فلما بلغ إلی هذا:" إنّ هذا رجل یهمنی أمره و حاله فتحدثه... و تفعل... و تصنع... ".فرمی مالک الکتاب من یده ثم قال:

سبحان اللّه أو صار علم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یؤخذ بالرسائل؟!!! قال الشافعی: فرأیت الوالی قد تهیّب أن یکلّمه فتقدمت و قلت:" أصلحک اللّه... إنی رجل مطلبیّ من بنی المطّلب و حدّثته عن حالتی و قضیتی فلما سمع کلامی نظر إلی و کان لمالک فراسه فقال:

ما اسمک؟ قلت: محمد، فقال: "یا محمد إنه سیکون لک شأن و أی شأن، إنّ اللّه تعالی قد ألقی علی قلبک نورا فلا تطفئه بالمعصیه. إذا جاء الغد تجیء مصطحبا معک ما تقرأ به. و طلب منه أن یأتی بمن یقرأ له الموطأ لصغر سنه و لکن الشافعی جاءه فی الیوم الثانی و معه الموطأ و بدأ یقرأ عن ظهر غیب و الکتاب فی یده. و کلما قرأ قلیلا تهیّب مالکا و أراد أن یقطع و لکن أعجب مالک حسن قراءته و إعرابه فقال: زد یا فتی، حتی قرأ علیه الموطأ فی أیام یسیره. قال مالک عنه: ما یأتینی قرشی أفهم من هذا الغلام، و قال:

إن یک یفلح فهذا الغلام.

و لازم الشافعی مالکا تسعه أعوام و لم ینقطع عنه إلا لزیاره أمّه أو لرحله علمیه و کان قد ذهب فی بعض الرحلات إلی العراق و حصل ثروه من علم أبی حنیفه. و تلقی الشافعی علومه من مالک و من باقی علماء المدینه. و کانت المدینه أجلّ بلد حافظ علی الطابع الإسلامی الأصیل، و أکثر الصحابه کانوا فیها، فإنّ النبی صلّی اللّه علیه و سلّم بعد رجوعه من حنین ترک فیها نحو اثنی عشر ألف صحابی، لبث فیها نحو عشره آلاف، ثم ماتوا فیها و تفرّق فی سائر الأقطار نحو ألفین. و ما کان یوثق بعلم العالم فی جمیع أقطار الخلافه الإسلامیه إلا أن یؤم المدینه، یختلف إلی علمائها و یروی عن حفاظها.

و فی إحدی رحلات الشافعی العلمیه غاب عن المدینه زهاء عامین و کان دائم السؤال عن شیخه مالک، و یوم عاد دخل الحرم النبوی و تهیّأ للجلوس فی حلقه مالک و ما هی إلا

لحظات حتی وصل مالک و فاح ریح الطیب فی أرجاء المسجد و جلس مالک علی کرسی أعدّ له و أخذ یلقی المسائل علی التلامیذ المتحلقین حوله و من بینهم و فی زحمتهم الشافعی الذی لا یکاد یراه مالک. سکت الحاضرون و لم یجیبوا علی مسائل مالک فتضایق الشافعی ثم أوحی بالجواب إلی الذی بجواره و کذلک بجواب آخر و آخر، مالک یلقی المسأله و جار الشافعی یجیب، ثم سأله مالک متعجبا: من أین لک هذا العلم؟ فقال إنّ بجانبی شابا یقول لی الجواب و إذا هو الشافعی فتلقاه مالک بالترحاب و الحفاوه و السرور و قال له: أتمم أنت هذا الباب و هذه إجازه من مالک للشافعی بالفتیا. فلما کان عام ۱۷۹ توفی مالک و بکاه الشافعی بکاء حارا. و کان الشافعی یعانی من الفقر و لا یبالی فی سبیل إقباله علی العلم و الدراسه فلما توفی مالک شعر بفراغ فالتفت یبحث عن عمل و کان قد وصل إلی قمه الشباب، فبحث له بعض القرشیین عن عمل فی الیمن بواسطه والی الیمن، فأعطی عملا جیدا فی نجران دون مستوی المحافظ بشیء قلیل.

اتهامه بخیانه الخلافه العباسیه:

فی الیمن تنامت ثروه الإمام الشافعی العلمیه بالتعرف علی فقه إمام مصر اللیث بن سعد الذی کان تلامذته منتشرین هناک. و لکن والی مدینه نجران تحفّظ علیه فوشی إلی هارون الرشید بشأنه و شأن عدد من الناس معه کان مجموعهم عشره و کانت الخلافه العباسیه آنذاک تحسب حسابا للشیعه لا سیما العلویین - أی أسره و ذریه سیدنا علی رضی اللّه عنه - ذلک لأن الخلافه العباسیه قامت علی سواعد الشیعه أی المتشیعین و المناصرین لعلی رضی اللّه تعالی عنه و أرضاه، إلا أنّ العباسیین تنکروا لهم بعد قیام الخلافه. لذا کانت الخلافه العباسیه دائما تخشی من ثوره العلویین علیهم. و کان والی نجران قد اتّهم الشافعی بأنه یحرّض العلویین علی الثوره. و سیق إلی هارون الرشید مکبّلا بتهمه خیانه الدوله و کانت عقوبه هذه الخیانه القتل. دخل الشافعی ثابت الفؤاد علی الخلیفه ینتظر الحکم علیه و هو یردد:" اللّه یا لطیف... أسألک اللطف فیما جرت به المقادیر ".قال الشافعی للخلیفه: السلام علیک یا أمیر المؤمنین و برکاته (دون أن یلفظ و رحمه اللّه). فردّ علیه الرشید: و علیک السلام و رحمه اللّه و برکاته، ثم أضاف فقال: بدأت بسنّه لم تؤمر بإقامتها، و رددنا علیک فریضه قامت بذاتها و من العجب أن تتکلم فی مجلسی بغیر أمری أو إذنی. فقال الشافعی: إنّ اللّه تعالی قال:" وَعَدَ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضی لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً "، و هو الذی إذا وعد وفّی، فقد مکّنک فی أرضه و أمّننی بعد خوفی... حیث رددت علیّ السلام بقولک و علیک رحمه اللّه، فقد شملتنی رحمه اللّه بفضلک. فقال الرشید: و ما عذرک بعد أن ظهر أنّ صاحبک - یعنی الثائر العلوی - طغی علینا و بغی و اتّبعه الأرذلون و کنت أنت الرئیس علیهم؟ فقال الشافعی: أما و قد استنطقتنی یا أمیر المؤمنین فسأتکلم بالعدل و الإنصاف و لکن الکلام مع ثقل الحدید صعب، فإن جدت علیّ بفکه أفصحت عن نفسی و إن کانت الأخری فیدک العلیا و ید السفلی و اللّه غنی حمید. فأمر الرشید بفک الحدید عنه و أجلسه، فقال الشافعی: حاشا اللّه أن أکون ذلک الرجل، و لکن قال تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جاءَکُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا ، [الحجرات: ۶] لقد أفک المبلّغ فیما بلّغک. و إنّ لی حرمه الإسلام و ذمه النسب و کفی بهما وسیله و ما أنا بطالبیّ و لا علوی و إنما أدخلت فی القوم بغیا علیّ. أنا محمد بن إدریس، و أنا طالب علم. فقال الرشید: أنت محمد بن إدریس؟ قال: نعم، ثم التفت إلی محمد بن الحسن الشیبانی و سأله: یا محمد ما یقول هذا؟ أ هو کما یقول؟ قال محمد بن الحسن: إنّ له من العلم شأنا کبیرا و لیس الذی زعم علیه من شأنه (معلوم أنه بین العلماء المخلصین نسب أقوی من الرحم). و کأنّ اللّه تعالی وضع هذه المحنه التی انزلق فیها الشافعی من أجل أن یعیده عز و جل من عمل الدنیا إلی عمل الآخره و هذا

واضح جدا و عسی أن تکرهوا شیئا و هو خیر لکم و عسی أن تحبوا شیئا و هو شر لکم و لکن هذه الحقیقه لا تظهر إلا آخرا عند ما یکون الإنسان فی طور المفاخره و أمّا فی طور الحکم الإلهی فیکون کالغائص فی جوف البحر لا یعلم إلا من وثق بعلم اللّه سلفا.

ص: ۱۶۶

فی الیمن تنامت ثروه الإمام الشافعی العلمیه بالتعرف علی فقه إمام مصر اللیث بن سعد الذی کان تلامذته منتشرین هناک. و لکن والی مدینه نجران تحفّظ علیه فوشی إلی هارون الرشید بشأنه و شأن عدد من الناس معه کان مجموعهم عشره و کانت الخلافه العباسیه آنذاک تحسب حسابا للشیعه لا سیما العلویین - أی أسره و ذریه سیدنا علی رضی اللّه عنه - ذلک لأن الخلافه العباسیه قامت علی سواعد الشیعه أی المتشیعین و المناصرین لعلی رضی اللّه تعالی عنه و أرضاه، إلا أنّ العباسیین تنکروا لهم بعد قیام الخلافه. لذا کانت الخلافه العباسیه دائما تخشی من ثوره العلویین علیهم. و کان والی نجران قد اتّهم الشافعی بأنه یحرّض العلویین علی الثوره. و سیق إلی هارون الرشید مکبّلا بتهمه خیانه الدوله و کانت عقوبه هذه الخیانه القتل. دخل الشافعی ثابت الفؤاد علی الخلیفه ینتظر الحکم علیه و هو یردد:" اللّه یا لطیف... أسألک اللطف فیما جرت به المقادیر ".قال الشافعی للخلیفه: السلام علیک یا أمیر المؤمنین و برکاته (دون أن یلفظ و رحمه اللّه). فردّ علیه الرشید: و علیک السلام و رحمه اللّه و برکاته، ثم أضاف فقال: بدأت بسنّه لم تؤمر بإقامتها، و رددنا علیک فریضه قامت بذاتها و من العجب أن تتکلم فی مجلسی بغیر أمری أو إذنی. فقال الشافعی: إنّ اللّه تعالی قال:" وَعَدَ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَما اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضی لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً "، و هو الذی إذا وعد وفّی، فقد مکّنک فی أرضه و أمّننی بعد خوفی... حیث رددت علیّ السلام بقولک و علیک رحمه اللّه، فقد شملتنی رحمه اللّه بفضلک. فقال الرشید: و ما عذرک بعد أن ظهر أنّ صاحبک - یعنی الثائر العلوی - طغی علینا و بغی و اتّبعه الأرذلون و کنت أنت الرئیس علیهم؟ فقال الشافعی: أما و قد استنطقتنی یا أمیر المؤمنین فسأتکلم بالعدل و الإنصاف و لکن الکلام مع ثقل الحدید صعب، فإن جدت علیّ بفکه أفصحت عن نفسی و إن کانت الأخری فیدک العلیا و یدی السفلی و اللّه غنی حمید. فأمر الرشید بفک الحدید عنه و أجلسه، فقال الشافعی: حاشا اللّه أن أکون ذلک الرجل، و لکن قال تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جاءَکُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا ، [الحجرات: ۶] لقد أفک المبلّغ فیما بلّغک. و إنّ لی حرمه الإسلام و ذمه النسب و کفی بهما وسیله و ما أنا بطالبیّ و لا علوی و إنما أدخلت فی القوم بغیا علیّ. أنا محمد بن إدریس، و أنا طالب علم. فقال الرشید: أنت محمد بن إدریس؟ قال: نعم، ثم التفت إلی محمد بن الحسن الشیبانی و سأله: یا محمد ما یقول هذا؟ أ هو کما یقول؟ قال محمد بن الحسن: إنّ له من العلم شأنا کبیرا و لیس الذی زعم علیه من شأنه (معلوم أنه بین العلماء المخلصین نسب أقوی من الرحم). و کأنّ اللّه تعالی وضع هذه المحنه التی انزلق فیها الشافعی من أجل أن یعیده عز و جل من عمل الدنیا إلی عمل الآخره و هذا واضح جدا و عسی أن تکرهوا شیئا و هو خیر لکم و عسی أن تحبوا شیئا و هو شر لکم و لکن هذه الحقیقه لا تظهر إلا آخرا عند ما یکون الإنسان فی طور المفاخره و أمّا فی طور الحکم الإلهی فیکون کالغائص فی جوف البحر لا یعلم إلا من وثق بعلم اللّه سلفا.

لذا ینبغی للمسلم أن یراجع نفسه کل فتره من الزمن و یحاول أن یتذکر ما هی الأشیاء التی حصلت معه فی الماضی و ظنها حینذاک شرا و إذا بها مع مرّ السنین الخیر کله، ذلک یفید الإنسان بزیاده ثقته باللّه تعالی فإنّ أکثر المعاصی و الإحباطات إنما هی ناتجه عن عدم الثقه باللّه و عدم المشاهده له دائما عز و جل (ثقه عین الیقین).

موقف الشافعی من الإمامه و الخلافه:

کان الشافعی علی عقیده جمهور أهل السنه و الجماعه و کان یستدل علی أنّ أولی الناس بالخلافه هو أبو بکر رضی اللّه عنه بعد

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم، أنّ امرأه جاءت إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلّم تسأله فى أمر فقال لها ارجعى فيما

بعد، فقالت: فإن لم أجدك؟ فأمرها النبى عليه الصلاه و السلام أن تأتى أبا بكر، أى إن ذهبت و عادت و كان الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم قد توفى فعليها أن تأتى إلى أبى بكر.

إقامته فى العراق:

و بقى الشافعى فى العراق فتعرّف على محمد بن الحسن و وطّد صلته به و عاد و تفرغ للعلم و ترك الدنيا و العمل فيها... يقول الشافعى: "أخذت من محمد بن الحسن وقر بعير (أى حمل بعير) من سماعه عن أبى حنيفه، أى لو جمعت العلم الذى أخذته منه فى كتب فإن هذه الكتب تبلغ حمل بعير و كل ما فيها ليس فيه شىء من عندى، كله أخذته سماعا من محمد بن الحسن". انظروا إلى تواضع الشافعى الذى ما حال بينه و بين هذه الكلمه المكانه العاليه التى تبوّأها قد تقدّم ربما على محمد ابن الحسن و هو المجتهد المطلق ما قال فى نفسه ما ذا سيقول عنى الناس لو سمعوا أنى تلميذ محمد بن الحسن. و هذا من باب ذكر فضل أهل الفضل. و قد ملأ الشافعى كتابه "الرساله" مناقشات طريفه جدا بينه و بين محمد بن الحسن الشيبانى ملئت علما. و كان محمد بن الحسن يقدره تقديرا عظيما و لا يؤثر على مجلسه مع الإمام الشافعى أى مجلس. و قد حصل أن اتفق يوما أنّ الإمام الشافعى كان ذات مره متجها إلى بيت محمد بن الحسن ليتدارس معه العلم و ليأخذ منه و لكن محمد بن الحسن كان متجها إلى الموعد الذى كان قد ارتبط به مع الخليفه، فآثر مجلس الشافعى و تخلّف عن مجلس الخليفه.

و قد لبث الشافعى فى العراق زهاء عامين عاد بعدها إلى مكه و أخذ يدرس فى الحرم المكى، و هذه فتره ازدهار علمه، منذ هذا العهد بدأ الشافعى يصب كل تفكيره و يعمل كل فهمه فى تدوين الفقه و أصوله أى بدأ فى تدوين موازين الاجتهاد و أصول استنباط الأحكام من نصوص القرآن و السنّه حتى تجتمع العقول المختلفه على هذه الموازين.

فالقرآن و السنه كل منهما ملىء بالأحكام و لكن كيف نفهمهما، ما هى قواعد الفهم، ما هى قواعد الدلاله العربيه التى على أساسها نستنبط الأحكام من القرآن و من السنه؟ هذا ما بدأ يشغل بال الشافعى فوضع و خطط لهذا العلم و هو علم جديد لم يكن موجودا من قبل هو "علم أصول الفقه"...بقى الشافعى فى مكه تسع سنوات يجمع هذه القواعد و يدونها و ينسجها و قبل ذهابه إلى مكه كان قد زار مسجد الإمام الأعظم أبى حنيفه و هناك صلى الفجر على مذهب الإمام (أى أبو حنيفه) مخالفا مذهبه فى الحركات و القنوت و ما إلى ذلك، و لما سئل عن ذلك قال: إنى فعلته أدبا مع الإمام أبى حنيفه أن

أخالفه فی حضرته. انظروا إلی أدب علمائنا بعضهم مع بعض.

تألیفه لکتابه "الرساله" و أهمیته:

أصبح من عاده الشافعی أن یجلس فی الحرم عند بئر زمزم حیث کان یجلس الصحابی الجلیل شیخ المفسرین عبد اللّه بن عباس رضی اللّه عنهما... و بدأ یؤلف فی مکه کتابه "الرساله" ،و کان صیته العلمی فی هذا الوقت یطبق الآفاق فی مختلف أنحاء البلاد و مقاطعات الدوله الإسلامیه الشاسعه، فیأتیه طلاب العلم و المعرفه من أقصی الأماکن و کان من هؤلاء أحمد بن حنبل الذی کان تلمیذا للإمام ابن عیینه إمام الحدیث فی عصره فی المسجد الحرام. و ابن عیینه کان یروی جلّ أحادیثه عن الزهری و هو أعلی الأسانید، فکان الناس یغشون مجلسه. و لکن الإمام أحمد لما علم بمجلس الشافعی و سمع منه ترک مجلس ابن عیینه و أصبح یغشی مجلس الشافعی فلما سئل عن ذلک قال: إنک إن فاتک الحدیث بعلوّ تجده بنزول و لا یضرک ذلک أما إن فاتک عقل هذا الفتی - یقصد الشافعی - فإنی أخاف أن لا تجده إلی یوم القیامه، ما رأیت أحدا أفقه بکتاب اللّه تعالی من هذا الفتی القرشی. و کان أحمد یقول:

کان الفقه مقفلا علی أهله حتی فتحه اللّه للإمام الشافعی. قال الحسن بن محمد الزعفرانی: کنا نحضر مجلس بشر المریسی المعتزلی القدری المناظر البارع و کنا لا نقدر علی مناظرته فسألنا أحمد بن حنبل فدلّنا علی الشافعی، فسألناه شیئا من کتبه فأعطانا کتاب الیمین مع الشاهد فدرسته فی لیلتین ثم غدوت علی بشر المریسی و تخطّیت إلیه فلما رآنی قال: ما جاء بک یا صاحب الحدیث؟ قال الحسن الزعفرانی: ذرنی من هذا، ما هو الدلیل علی إبطال الیمین مع الشاهد؟ فناظرته فقطعته فقال: لیس هذا من کیسکم، هذا من کلام رجل رأیته بمکه معه نصف عقل أهل الدنیا. و کان بشر المریسی لما رأی الشافعی المفتی فی مکه یحدّث قال لأصحابه المعتزله: إنی لا أخاف علیکم من أحد و لکنی أخاف علیکم من هذا الفتی فإنّ معه نصف عقل أهل الدنیا.

و الذی یدعو إلی الإعجاب أن یکون الشافعی کتب هذه الرساله فی أصول الفقه و هو شاب و کان قد طلبها منه إمام المحدّثین فی بغداد لکی یستفید منها هو و غیره من کبار العلماء فی کیفیه فهم النصوص. و لما کتب الشافعی الرساله و وصلت إلی إمام المحدثین فی بغداد، جعل یتعجب و یقول: لو کانت أقل لنفهم... و قال الإمام المزنی: قرأت الرساله خمسمائه مره، ما من مره إلا و استفدت منها فائده جدیده. و فی روایه عنه قال: أنا أنظر فی

الرساله من خمسين سنه، ما أعلم أنى نظرت فيها مره إلا و استفدت شيئا لم أكن عرفته.

كتاب "الرساله" هو مقدمه ضخمه لكتابه "الأم" مثل مقدمه ابن خلدون لكتابه "تاريخ الأمم و الملوك"،و مقدمه ابن خلدون ليست كتابا مستقلا و إنما هى مقدمه لموسوعه تاريخيه و لأهميه هذه المقدمه طبعت طبعا مستقلا و افردت باسم مستقل و أصبحت مقدمه ابن خلدون اسم مستقل تماما، و كذلك كتاب "الرساله" فهو فى أصله عباره عن مقدمه كبيره و واسعه جدا لكتاب "الأم" و هو عباره عن سبعه أجزاء، إلا أنّ "الرساله" فيما بعد أفردت بالطباعه و أصبحت عباره عن كتاب مستقل لأنه يحوى علما مستقلا، و قد تضمّن ما يلى:

أولا: بيان أنّ أى علم شرعى لا بد أن يدور على فلك نص مأخوذ من الكتاب أو السنّه. ثم أكّد أهميه و حجيه حديث الآحاد (و حديث الآحاد هو الحديث الذى يرويه صحابى واحد أو اثنين أو ثلاثه عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم) و قد ذكرنا طرفا من ذلك من قبل، و استدلّ على حجيه الآحاد بأدله كثيره منها:

- أنّ اللّه تعالى حينما أنزل فى القرآن الكريم تحويل القبله من المسجد الأقصى إلى مكه المكرمه، جاء صحابى و أخبر الصحابه الذين كانوا يصلّون فى مسجد ذى القبلتين فاستداروا و هم فى الصلاه، فإذا أخذوا بخبر الواحد!.

- حينما أنزل اللّه تعالى آيه تحريم الخمر، أخبر صحابى باقى الصحابه بذلك، فانتهوا و ألقوا خمورهم.

- إنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم بعث معاذ رضى اللّه عنه إلى اليمن ليبلّغ عنه و لقد أخذ عنه أهل اليمن.

- إن اللّه عز و جل قد أمرنا أن نأخذ بقول الشاهدين و هما من الآحاد.

و هذا الأمر أى حجيه حديث الآحاد لم يخالف فيه أحد من الأئمه الأربعه و إنما اختلفوا فى نسخ الآحاد للقرآن أى هل ينسخ حديث الآحاد حكم آيه من كتاب اللّه تعالى و هل يخصص هذه الآيه أم لا؟...

ثانيا - و كان قد ظهر فى عصر الشافعى من يدّعى أنه يأخذ بالقرآن الكريم وحده و يدع العمل بالحديث الآحاد و هم من الزنادقه، فردّ عليهم الشافعى ردا مفحما و سمّى بذلك "نصير السنّه النبويه" ...ثم عقد الشافعى بابا سمّاه "الدلالات" أى كيف تدل

النصوص على معانيها سواء كان المفهوم الموافق أو المفهوم المخالف و كيف نستخرج قواعد القياس على نص فى كتاب اللّه تعالى... و أوضح البيان، أى كيف يمكن أن يكون القرآن بعضه بيانا لبعض و أنّ النص قد يكون عامّا و قد يكون خاصا و قد يكون مطلقا و قد يكون مقيّدا. و النص المطلق يمكن أن يأتى نص آخر فى المعنى ذاته فيقيّده و يفسّره... و أوضح أيضا فيما إذا كان يمكن للسنّه أن تخصص القرآن العام أو أن تقيّده و هل يصح العكس...

و باختصار كتاب "الرساله" هو عباره عن مفاتيح لكيفيه فهم الأحكام من النصوص. و قد كان المجتمع آنذاك يفتقر إلى هذا العلم و لم يكتب فيه أحد قبلا، صحيح أنّ الإمام أبو حنيفه و الإمام مالك كل منهما بنى فقهه على أصول و مبادئ و لكن هذه المبادئ لم تسجّل و لم يصرّح بها كلها بل إنّ تلامذتهما هم الذين استنبطوا الأصول من فروع المسائل. و الذى أعان الشافعى على هذا العلم علم استنباط الأحكام من النصوص فضلا عن كونه عالما بالفقه و الحديث و بلوغه درجه قصوى من الذكاء، هو أنه عاش فى الباديه عشر سنوات حيث أخذ الطبيعه العربيه و السليقه العربيه من ينبوعها، فكان يعلم كيف يفهم الرجل العربى الجمله و كيف يأخذ المعنى إثر المعنى من الجمله الواحده، و مما جعل من الشافعى حجه فى اللغه.

عوده الشافعى إلى العراق:

عاد الشافعى إلى العراق و أقبل العلماء جميعا من شتى المذاهب على كتاب "الرساله" و أعجبوا به أيما إعجاب و كان الشافعى يشرح و يناقش هذه القواعد. و كان الشافعى يضرب فى طول البلاد و عرضها فى سبيل أن ينقل علم الحجاز إلى العراق و بالعكس و يجمع الكل تحت مظله هذه القواعد، فلقد تنبّه إلى ثغرات علماء العراق و هى أنهم كلما فقدوا النص استنجدوا بالرأى و استحسنوا و مالوا إلى ما تطمئنّ إليه نفوسهم و لكن على أى أساس؟ و على أى قاعده؟ و ما هو المقياس الذى يوضح الرأى المتفق مع شرع اللّه تعالى و حكمه و الرأى المتنكر عن شرع اللّه تعالى و حكمه؟ لا يوجد! إذا هذه هى الثغره التى يعانى منها أهل العراق. أما أهل الحجاز فلاحظ أنهم يأخذون بالنص دون أن يتوغلوا فى فهم طرق دلالته و قوانين هذه الدلاله. إذا رأوا نصا فى كتاب اللّه تعالى أو سنه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم تصوّروا ضروره تطبيق هذا النص دون التأمل فى كيفيته و أسلوبه، و هذه هى ثغرتهم، فكان كتاب الرساله سدا لثغره أهل الحديث فتقبله

المسلمون فی جمیع أنحاء البلاد و أقبلوا علیه. و یقول الشافعی فی هذا الموضوع: صحیح أننا لا نخرج عن دائره النص و لکن هناک فرق بین من لا یغوص فی أعماق النص و لا یتعمق به و بین من یبحث و یتفکر و یتعلم و یتعمق و یستنبط معان عدیده فیجد أنّ مسافه النص ۱۰ أمتار من حیث المعنی. و ضرب علی ذلک أمثله عدیده فقال:

- إنّ اللّه عز و جل خاطب عباده فی کتابه بألفاظ عامه و أراد منها الخاص و خاطب عباده بألفاظ خاصه و أراد منها العموم، مثال علی ذلک: قوله عز و جل: "اَلَّذِینَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَکُمْ فَاخْشَوْهُمْ " إنما أرید بالناس الأولی رجل واحد هو أبو سفیان، فیکون هنا اللفظ عام یراد منه الخاص.

- مثال علی الخاص الذی یراد منه العام: قال اللّه تعالی: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ، [الطلاق: ۱]، فهو خطاب للنبی صلّی اللّه علیه و سلّم وحده و لکن المقصود به عموم الناس.

من هنا کثر إعجاب الإمام أحمد بالشافعی فعن صالح بن أحمد بن حنبل قال:

جاء الشافعی یوما إلی أبی یعوده - و کان علیلا - فوثب أبی إلیه، فقبّل ما بین عینیه، ثم أجلسه فی مکانه و جلس بین یدیه. قال فجعل یسائله ساعه، فلما وثب الشافعی لیرکب قام أبی فأخذ برکابه و مشی معه، فبلغ یحیی بن معین هذا الخبر فوجه إلی أبی: یا أبا عبد اللّه، یا سبحان اللّه! أ اضطرک الأمر إلی أن تمشی إلی جانب بغله الشافعی؟ فقال له أبی: و أنت یا أبا زکریا لو مشیت من الجانب الآخر لانتفعت به قال: ثم قال أبی: من أراد الفقه فلیشم ذنب هذه البغله. و قال الفضیل بن زیاد: قال أحمد بن حنبل: هذا الذی ترون کله أو عامته من الشافعی، ما بتّ مده أربعین سنه إلا و أدعو اللّه للشافعی. قلت و هذا من شیم أهل الفضل یعرفون الفضل لأصحابه.

و کان الشافعی بالمقابل یحب و یجلّ الإمام أحمد کثیرا و کان یجلس بین یدیه یتعلم منه الحدیث و یقول له إذا صح عندک الحدیث فأخبرنی عنه. و کان الإمام أحمد یحدّث ابنته کثیرا عن الشافعی و عن تقواه و علمه و فی یوم نزل الشافعی ضیفا عند أحمد و لعل ذلک کان فی رحله الشافعی الأخیره له إلی بغداد، فأعطاه غرفه لینام فیها. و کان الإمام أحمد کثیر التعبد و کثیر التنسک فأخذت ابنته تراقب الشافعی کیف تکون عبادته و متی سیستیقظ من اللیل و أیهما أکثر تعبدا والدها أم الشافعی. فلاحظت أنّ غرفه الشافعی بقیت مظلمه إلی قبیل أذان الفجر بینما الإمام أحمد کان یقوم أکثر اللیل. و فی الصباح

قالت لأبيها: أ هذا هو الشافعى الذى حدثتنى عنه؟ فلم يجبها الإمام أحمد و دخل على الشافعى فقال له: كيف كانت ليلتك يا أبا عبد اللّه؟ فقال له: لقد فكرت الليله فى بضع آيات من كتاب اللّه تعالى و روايه فى حديث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم، فاستخرجت منها أحكاما كثيره - و فى روايه فوق الستين حكما - فقال الإمام أحمد لابنته: لضجعه واحده من الإمام الشافعى خير من صلاه أبيك الليل كله!.

هذا يصور لنا كيف كان أدب و تعظيم أئمه المسلمين بعضهم لبعض و نظر كل واحد منهم إلى الآخر على أنه إمام و حجه. أما اليوم فللأسف كثير ممن يدّعون حب إمام من الأئمه يسفّهون أو ينتقدون إماما آخر. و قد أنبأنا النبى صلّى اللّه عليه و سلّم عن هذا الداء الخطير و أنه من أشراط الساعه أن يلعن آخر هذه الأمه أولها.

أسفاره و زيارته مصر:

لقد طاف الشافعى فى آفاق العالم الإسلامى، و لم يترك بقعه إلا زارها من الحجاز حتى أقصى الشرق و الشمال و لكنه لم يأت مصر بعد. و مصر مهد عريق فى الحضاره و العلم و هى فى الوقت عينه مجتمع علماء فحول و فضلا عن ذلك هى مدرسه إمامه و شيخه الليث بن سعد. و بينما إمامنا العظيم فى تطلعه هذا إذ جاءته دعوه كريمه لزياره مصر فوافقت هوى قلبه و نفسه و كانت الدعوه من أحد تلامذته و محبّيه، الفقيه العالم، و التاجر الواسع الثراء" ابن عبد الحكم ".فشد الشافعى رحاله على الفور و كان وداع الناس و العلماء خاصه له فى بغداد مؤثرا جدا. كانوا يبكون و يحاولون إقناعه بالبقاء خصوصا الإمام أحمد... و امتدت إقامه الشافعى فى مصر خمس سنوات حيث استقبل استقبالا حافلا من مختلف الطبقات إذ سبقه صيته إلى هناك و حاول الكثيرون أن يستفيدوا من ضيافتهم له فعرضوا عليه الإقامه عندهم من الوالى حتى أقل الناس شأنا و لكن الشافعى آثر التشبه برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حين هاجر إلى المدينه المنوره فنزل عند أقارب أمه... و كان أول ما فعله الشافعى أن قام بزياره قبر الإمام الليث بن سعد و وقف عند القبر خاشعا يردد و يقول: للّه درّك يا إمام... لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم: العلم و العمل و الزهد و الكرم.

لقاؤه السيده نفيسه و أخذه عنها العلم:

كانت السيده نفيسه رضى اللّه عنها حفيده الحسن بن على و الحسين بن على رضى اللّه عنهم موئل علم و دين و تقوى، تقيم فى مصر، و كان الشافعى يعرف مقدارها و مكانتها. فاستأذن فى زيارتها فأذنت له و رحبت

به و أعجبها عقله و ورعه و سمع منها ما لم يكن قد وصل إليه من حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم.

تدريسه و تأليفه لكتابه" الأم ":

كان الشافعى جامعه علم فى شتى الفنون، فكان يجلس فى جامع تاج الجوامع فى مصر بعد صلاه الفجر و يبدأ بالقرآن و علومه فيأتيه علماء التفسير و علوم القرآن الفطاحل ليتعلموا منه، فإذا انتهى تحوّل إلى الحديث فيأتيه علماء الحديث ليتعلموا منه و إذا فرغ انتقل إلى علوم اللغه و آدابها فيأتيه علماؤها يدرسون عنه و هكذا... و فى مصر أعاد الشافعى النظر فى" الرساله "فجدد تأليفها - و" الرساله" التى بين أيدى الناس اليوم هى" الرساله "المؤلفه فى مصر - كما أعاد النظر فى كتابه" الحجه "فألّف بدله كتاب" الأم "و هو مجموع لكتب كثيره جديده ألّفها الشافعى فى مصر و هذا الكتاب هو المعروف و المشهور فى أيامنا. و تراجع الشافعى عن بعض مسائله الفرعيه فى العراق و أفتى بغيرها من هنا إذا قيل اليوم فى المذهب الشافعى القديم فإنما يراد به أقواله فى العراق المجموعه فى كتابه" الحجه "و إذا قيل مذهب الشافعى الجديد فيراد به أقواله فى مصر المجموعه فى كتابه" الأم ".و ابتكر الشافعى كتبا - كما يقول الإمام النووى - لم يسبق إليها، منها: أصول الفقه و كتاب" القسامه "و كتاب" الجزيه "و كتاب" أهل البغى "و غيرها.

فائده: الفتوى اليوم هى على المذهب الجديد إلا فى بعض المسائل التى لا تتجاوز العشرين مسأله حيث يفتى فيها بالقول القديم.

أدب الشافعى مع مخالفى مذهبه و عدم تعصبه:

الشافعى رضى اللّه عنه إن وجد نفسه يخالف فى بعض آرائه الإمام مالك، لم يكن يعرّض لذلك و لم يكن يناقشه و لم يكن يتحدث حتى لا يضع نفسه من أستاذه موضع المناقش أو الرّاد على رأيه و لكن فى الوقت نفسه يخالف بأدب. إلى أن بلغه أنّ فى المغرب أناسا وصل بهم التقديس الأعمى للإمام مالك. فصاغ الشافعى هنا فى هذا الوقت المتأخر من حياته" خلاف مالك "أى" خلافياتى مع مالك "و قال إنّ الإمام مالك بشر يصيب و يخطأ و هو أى الشافعى بشر يصيب و يخطأ و بدأ يناقش مسائل يرى خلافا فيها مع مالك. و فى كثير من الأحيان ذهب كثير من الأئمه العظام ضحيه عصبيه تلامذتهم و هذا فى التاريخ كثير. قد يكون الإمام عظيما لكن له تلامذه يتعصبون و يتشنّجون.

من هنا كان الشافعى ينادى مرارا و تكرارا: (إذا صح الحديث فهو مذهبى) يعنى

إن صح حديث لم أكن قد سمعت به و أفتيت بخلافه و وصل إليكم و فقهتم المعنى فإنّ هذا هو مذهبى. إذا هذا القول ليس موجها إلى عامه الناس و إنما هو موجّه إلى فقهاء مذهبه و تلامذته و أصحابه. يعنى مثلا قد يأتى من يعترض و بالفعل فقد أتى فى هذا الزمن كثير من اعترض على الشافعى، يقول مثلا- إن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال فى الحديث الصحيح:" من لحم جزور فليتوضأ "،و الشافعى يقول إذا صح الحديث فهو مذهبى. نقول ليس مطلق حديث وقع عليه إنسان يستطيع أن يطبق عليه مقوله الشافعى إذ ينبغى أولا أن يكون من أهل النظر و الاجتهاد، ثانيا أن يرى هل اطّلع على هذا الحديث الشافعى أو أصحابه أو فقهاء المذهب من بعد و كيف فسروه؟ و لقد رد الشافعيه على هذا الحديث فقالوا هذه واقعه حال و الواقعه أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم كان جالسا مع بعض أصحابه و قد أكلوا لحم جزور و خرجت رائحه كريهه من أحد الحاضرين ثم حان وقت الصلاه و من البديهى أنّ الذى سيذهب للوضوء سيعلم حاله، فرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم الأديب الرفيع الذوق قال رفعا للحرج عن هذا الصحابى: من أكل لحم جزور فليتوضأ. هذه واقعه حال و وقائع الأحوال لا تصلح للاستدلال. ثم لو صح أنّ لحم الجزور ينقض الوضوء، فمن المعلوم أنّ أهل مكه و المدينه لا- يأكلون فى ذلك الوقت من اللحوم إلا لحم الإبل و لو صح أنه ينقض الوضوء لعلم ذلك و شاع و لكن لم ينقل إلا عن هذا الصحابى و فى هذه الحاله...

و كان الشافعى يدعو إلى عدم التعصب فى أمر من الأمور لأن الشيطان دائما يتربص بالمسلمين على الأطراف التى تشكل الإفراط أو التفريط فكلما ابتعد الإنسان عن القصد فى الطريق تخطّفه الشيطان و إنه لا يستطيع أن يتخطّفه إلا إذا خرج عن الجاده الوسطى كما قال تعالى:" أَنَّ هذا صِراطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ".

علم أصول الفقه و تعريفه:

علم أصول الفقه إجمالا- هو الميزان العربى الذى تزان به فهوم الفقهاء بنصوص الكتاب و السنّه. و هذا العلم ينقسم إلى ثلاثه أقسام:

- قسم يسمى: "الدلالات".

- قسم يسمى: "البيان".

- قسم يسمى: "صفات المجتهد و كيفيه الاجتهاد".

فقسم الدلالات عباره عن كيف يفهم العربى الكلام العربى، مثلا نقول الأمر

(افعل، اقرأ، اكتب) يدل على الوجوب و النهى يدل على طلب الترك الجازم و يدل على الحرمه. اللفظ يدل بمعناه الإيجابى دلاله منطوق و يدل بمعناه السلبى دلاله مفهوم مخالف. هذه كلها دلالات و الكلمه تتفاوت حسب قوه الدلالات على المعنى عبر سلم من الدرجات. فأقوى دلاله على المعنى اسمها "النص" ،فى الدرجه الثانيه يأتى ما يسمى "بالظاهر" ،و فى الدرجه الثالثه "المجمل" ،و فى الرابعه "المتشابه" .النص كيف يفهم و الظاهر كيف يؤوّل... هذا خلاصه قسم الدلالات.

القسم الثانى و هو قسم "البيان" أى كيف يأتى نص فى القرآن الكريم بيانا لنص آخر، و كيف يأتى نص من القرآن بيانا لحديث من السنّه، و كيف يأتى حديث من السنه بيانا لنص من القرآن أى شرحا له. كثيرا ما يأتى نص من القرآن عاما محتملا فيأتى نص آخر واضح وضع النقاط فيه على الحروف فيفسر هذا النص الذى يسمى الخاص على العام عن طريق ما يسمى بالتخصيص أو التقييد أو التأويل أو النسخ، و هذا خلاصه القسم الثانى.

أما القسم الثالث و هو "الاجتهاد" :ما الاجتهاد؟ و بأى الأحكام نجتهد؟ القاعده تقول أنه لا اجتهاد فى معرض النص و إذا لم يكن هناك نص و لكن هناك إجماع أيضا لا اجتهاد. و إذا كان الاجتهاد واردا فما هى شروطه يا ترى؟ و ما هى شروط المجتهد أى ما هى الشروط التى ينبغى أن تتوفر فيه من علم و درايه و ذوق و فقه و ما إلى ذلك حتى يستطيع أن يجتهد؟ كل هذه الأسئله تكمن إجابتها فى هذا القسم.

هل هناك خلاف فى أصول الفقه بين العلماء؟ الحقيقه أنّ هناك خلاف بين الأئمه فى بعض الفروع أما فى أصول الفقه فالخلاف قليل جدا جدا. الإمام الشافعى عند ما دوّن هذا العلم وافقه العلماء الذين كانوا فى عصره، فكل من المالكيه و الحنابله و الشافعيه طبّقوا هذه القواعد التى دوّنها الشافعى، لذلك لا يوجد عندنا كتب أصول فقه للمالكيه و الحنابله، فقط الحنفيه هم الذين خالفوا الشافعى فى مسائل فى أصول الفقه. لذلك عند ما ندرس أى كتاب فى أصول الفقه نجد أنّ هذه الأصول تأخذ أحد طرفين طريقه الأئمه الثلاثه مالك و الشافعى و أحمد و تسمى طريقه المتكلمين و طريقه الحنفيه.

ملاحظه: هنا قد يرد إشكال ألا و هو إن كان الإمام الشافعى هو الذى وضع قواعد أصول الفقه بمعنى أنّ الفقه الذى تفرّع من هذه الأصول يمكن أن نعتبره فقها وضعه

الشافعی و بالتالی لا تثبت البیّنه علی أنّ الفقه هو حکم اللّه عز و جل و شرعه المنزل، هذا من جهه و من جهه أخری هناک إشکال آخر أثاره بعض المستشرقین یقول فیه: من أین جاء الإمام الشافعی بقواعد أصول الفقه؟ لعله ابتدعها من عنده!.

الجواب: إنّ هنالک فرقا دقیقا و لکن هاما جدا بین قولنا إنّ الإمام الشافعی وضع علم أصول الفقه و بین قولنا إنه دوّن علم أصول الفقه. الشافعی لم یخترع و لا قاعده واحده من قواعد علم أصول الفقه إطلاقا و إنما بحکم أنّ الشافعی حجه و إماما فی اللغه عکف علی أسالیب العرب و کیفیه فهمهم للکلام و المعانی التی تستخلص من العبارات فاستخرج من قواعد العرب و اصطلاحات اللغه العربیه فی الفهم و النطق استخرج من ذلک قواعد دوّنها و لفت إلیها أنظار الفقهاء و المحدّثین. و لکی نقرب الصوره أکثر نضرب المثال التالی: إنّ أول من دوّن علم اللغه العربیه هو أبو الأسود الدؤلی، فهل لأحد أن یقول إذا أن أبو الأسود الدؤلی اخترع اللغه العربیه؟!!! فأبو الأسود الدؤلی إذا کان وضع قواعدها فهذا لا یعنی أنه اخترعها. نحن جمیعا نعلم أنّ اللغه العربیه کانت موجوده من قبل أبی الأسود بکثیر و أنّ الناس کانوا یرفعون الفاعل و ینصبون المفعول به و یجرّون المضاف إلیه و ما إلی ذلک قبل الدؤلی بقرون و لکن الذی حصل أنّ أبا الأسود عمد بعبقریته الفذه إلی النطق العربی و تتبّعه فوجد أنّ العرب دائما ترفع الفاعل و ما إلی ذلک، فقعّد له قوانین و قواعد حتی یستطیع من لا یجید العربیه بالسلیقه أن ینطق النطق السلیم. و الکلام نفسه یطبّق علی الشافعی و علم أصول الفقه، فالشافعی مثلا وجد أنّ العرب إذا سمعوا جمله ما، تدرک لها معناها الإیجابی و تأخذ بالاعتبار معناها السلبی. مثال علی ذلک، عند ما تسمع العرب حدیث "مطل الغنی ظلم" (أی إذا کان المدین ملیئا غنیا و ماطل فی دفع الدّین المترتب علیه فهو ظالم) العرب قبل الفقهاء فهموا من هذا الکلام أنّ مطل الفقیر لیس بظلم و هذا ما سماه الشافعی "المفهوم المخالف" .إذا هو لم یخترع هذا و إنما تتبع لغه العرب و قعّدها.

منهج الشافعی العلمی:

أخذ الشافعی بالمصالح المرسله و الاستصلاح و لکن لم یسمها بهذا الاسم و أدخلها ضمن القیاس و شرحه شرحا موسعا. و کذلک کان الشافعی یأخذ بالعرف مثل مالک و لکن کل لدرجه ما.

یروی إنه فی أحد الأیام، فی مجلس مالک، کان فیه الشافعی، جاء رجل یستفتی

مالکا، یقول أنه ابتاع طائرا من رجل أقسم البائع باللّه تعالی و فی روایه بالطلاق أنّ طائره هذا لا یفتأ عن التغرید. فلما أخذه الشاری وجده یغرد حینا و یسکت حینا، فسأل مالکا فقال له: لک حق خیار العیب (أی أنه لک الحق فی رده بسبب عیب فیه) و قد حنث فی یمینه أو علی الروایه الأخری وقع الطلاق. و کان الشافعی جالسا فی ذلک المجلس و لکنه لم یتکلم أدبا مع شیخه مالک. فلما ذهب الرجل لحق به و سأله: طائرک یغرد فی الیوم أکثر أو یسکت أکثر؟ قال الرجل: بل التغرید أکثر، فقال له الشافعی: إذا البیع صحیح و لیس لک خیار العیب و لم یحنث و فی تلک الروایه لم یقع الطلاق. فجاء الرجل إلی مالک، فلما ناقشه الشافعی قال له: یا سیدی، الألفاظ التی ننطق بها إنما نضعها فی میزان العرف الشرعی إن وجد (مثل الطلاق و العتق...)، لکن إن فقد العرف الشرعی عندئذ نشرحه بالعرف اللغوی الدراج بین الناس فإن فقد العرف اللغوی الدارج بین الناس نعود إلی اللغه العربیه فی جذورها و أمهاتها. و نحن نعود فی هذا إلی کلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فقد روینا عن المصطفی علیه الصلاه و السلام أنّ امرأه جاءت تستشیره فی رجلین قد خطباها فأیهما تتزوج، فقال لها النبی صلّی اللّه علیه و سلّم: أما فلان فلا یضع العصا عن عاتقه و أما فلان فصعلوک (أی لا یلیق بک من حیث المستوی الاجتماعی و غیره). قال الشافعی:

فقوله صلّی اللّه علیه و سلّم لا یضع العصا عن عاتقه کنایه عن کثره السفر و قد علمت أنه یصلی فیضع العصا عن عاتقه و یأکل و یضعها عن عاتقه و ینام و یغتسل و فی کل ذلک یضع العصا عن عاتقه و رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم صادق فیما یقول، إذا هذه الکلمه سارت مسار العرف الدراج و هنا (أی فی مسأله الطائر) عرف فی السوق لو قال البائع هذا الطائر لا یفتأ عن التغرید یعنی أنّ أکثر أوقاته التغرید.

و کان الشافعی یتمسک بالأحادیث الصحیحه و یعرض عن الأخبار الواهیه و الموضوعه.

و اعتنی بذلک عنایه فائقه. و قال الشافعی ذاکرا فضل اللّه تعالی علیه: ما کذبت قط و ما حلفت قط باللّه تعالی صادقا و لا کاذبا. قال أبو زرعه: ما عند الشافعی حدیث فیه غلط.

و قد وضع الشافعی فی فن مصطلح الحدیث مصطلحات کثیره، لم یسبق إلیها مثل:

الاتصال و الشاذ و الثقه و الفرق بین حدّثنا و أخبرنا...

من عباداته و نوافله:

كان يقسم ليله إلى ثلاثه أجزاء: ثلث ينام و ثلث يكتب و ثلث يصلى. و كان يختم القرآن فى كل شهر ثلاثين مره و فى رمضان ستين ختمه. و من نوافل الشافعى كثره صلاته على النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و كان يحضّ على ذلك أصحابه و تلاميذه و من يحضره. و كان أسخى الناس على الدينار و الدرهم و الطعام لا يدخل على مكه حتى يتصدّق بما معه.

مرضه و وفاته:

كان الشافعى من الأئمه العاملين فرابط فتره فى مصر فى الثغور و هى المواضع التى يخشى هجوم العدو منها على بلد مسلم. و فى آخر حياته ظهرت عليه عله البواسير و كان يظن أنّ هذه العله إنما نشأت بسبب استعماله اللّبان - و كان يستعمله للحفظ - و بسبب هذه العله ما انقطع عنه النزيف و ربما ركب فسال الدم من عقبيه.

و كان لا يبرح الطست تحته و فيه لبده محشوه، و ما لقى أحد من السقم ما لقى.

و العجيب فى الأمر بل يكاد يكون معجزا أن تكون هذه حال الشافعى و يترك فى مده أربعه سنوات كلها سقم من اجتهاده الجديد ما يملأ آلاف الورق مع مواصله الدروس و الأبحاث و المناظرات و المطالعات فى الليل و النهار، و كأنّ هذا الدأب و النشاط فى العلم هو دواؤه الوحيد الشافى!. و ألحّ على الشافعى المرض و أذابه السقم و وقف الموت ببابه ينتظر انتهاء الأجل. و فى هذه الحال، عند آخر عهده بالدنيا و أول عهده بالآخره، دخل عليه تلميذه المزنى فقال: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلا و للإخوان مفارقا و لكأس المنيّه شاربا و على اللّه جلّ ذكره واردا و لا و اللّه ما أدرى روحى تصير إلى الجنه فأهنّئها أو إلى النار فأعزّيها! ثم بكى و أنشأ يقول:

و لما قسى قلبى و ضاقت مذاهبى جعلت الرّجا منى لعفوك سلّما

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما

و ما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود و تعفو منّه و تكرّما

و دفن الشافعى رحمه اللّه تعالى عليه فى القاهره فى أول شعبان، يوم الجمعه سنه ٢٠۴ هجرى. مات و كان له ولدان ذكران و بنت و كان قد تزوج من امرأه واحده...

من وصاياه و أقواله:

له رحمه اللّه تعالى و رضى عنه أقوال مهمه، منها:

- ما تقرّب إلى اللّه عز و جل بعد أداء الفرائض بأفضل من طلب العلم.

ص: ۱۷۹

- طلب العلم أفضل من صلاه النافله.

- من ضحک منه فی مسأله لم ینسها أبدا.

- من حضر مجلس العلم بلا محبره و ورق کان کمن حضر الطاحون بغیر قمح.

- ما ناظرت أحدا قط إلا أحببت أن یوفّق أو یسدد أو یعان و یکون له رعایه من اللّه تعالی و حفظ، و ما ناظرت أحدا إلا و لم أبال بیّن اللّه تعالی الحق علی لسانی أو لسانه.

نحن کلما رأینا سیره إمام قلنا و اللّه هذا أحق بالاتّباع و کلما سمعنا دلیله قلنا و اللّه هذا لهو الدلیل المقنع! نعم کلهم أحق بالاتّباع و کلهم عندهم أدلّتهم المقنعه فلذلک و رحمه من اللّه تعالی بنا جاز لنا أن نتبع من شئنا منهم و الحمد للّه رب العالمین.

۴ – ترجمه الإمام أحمد بن حنبل رضی اللّه عنه

اشاره

الإمام أحمد بن حنبل رجل النصف الأول من القرن الثالث، فلیس من أحد فی عصره بلغ من الشهره و الثقه و الاعتقاد ما بلغه، ذلک أنه کان رحمه اللّه إماما فی الورع، إماما فی الزهد، إماما فی التفقه، إماما فی طریقته الفقهیه، إمام أئمه الحدیث فی عصره و إماما فی الثبات و الصبر.

مولده و نسبه:

ولد الإمام أحمد بالاتفاق فی عام ۱۶۴ هجری فی بغداد و توفی عام ۲۴۱ فکان عمره عند ما مات الشافعی أربعین عاما، و کان الشافعی یکبره بأربعه عشر عام. و هو عربی الأصل من قبیله شیبان لم تخالط العجمه نسبه قط و یلتقی نسبه مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم عند نزار بن معد. توفی والده و هو صغیر و تولت أمه تربیته و کانت رعایه والدته له أشبه ما تکون برعایه والده الشافعی. و کانت والدته فقیره و کانت شابه حسناء جمیله فتقدم لخطبتها و الزواج منها عدد کبیر من الراغبین لکنها رفضت و امتنعت و فضلت أن تعیش لولدها و نذرت نفسها له، و هذا الأمر أنشأ فی نفس أحمد برا بأمه...

و لم یتزوج حتی ماتت لکی لا یدخل علی الدار سیده أخری تنازع أمه السیاده و کان قد بلغ الثلاثین.

طلبه للعلم:

کسائر أترابه تعلم القرآن فی صغره و تلاه تلاوه جیده و حفظه عن ظهر قلب. و عند ما تجاوز الخامسه عشره من عمره، بدأ یطلب العلم، و أول من طلب العلم علیه هو الإمام أبو یوسف القاضی. و الإمام أبو یوسف کما هو معلوم من أئمه الرأی مع

کونه محدّثا و لکن فی البدایه و بعد مرور فتره لأحمد مع أبی یوسف وجد الإمام أحمد أنه یرتاح لطلب الحدیث أکثر. فتحول إلی مجالس الحدیث و أعجبه هذا النهج و اتفق مع صلاحه و ورعه و تقواه و أخذ یجول و یرحل فی سبیل الحدیث حتی ذهب إلی الشامات و السواحل و المغرب و الجزائر و مکه و المدینه و الحجاز و الیمن و العراق و فارس و خرسان و الجبال و الأطراف و الثغور و هذا فقط فی مرحلته الأولی من حیاته. و لقد التقی الشافعی فی أول رحله من رحلاته الحجازیه فی الحرم، و أعجب به و کنا قد ذکرنا أن الإمام أحمد بقی أربعین سنه ما بات لیله إلا و یدعو فیها للشافعی. و کان یقول عند ما یروی حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم: إنّ اللّه یبعث علی رأس کل أمّه من یجدد لهذه الأمه أمر دینها. و کان یقول: لقد أرسل اللّه تعالی سیدنا عمر بن عبد العزیز یجدد لهذه الأمه دینها علی رأس المائه الثانیه و آمل أن یکون الشافعی علی رأس المائه الثالثه. و قد حیل بین أحمد و مالک ابن أنس فلم یوفّق للقائه و کان یقول: لقد حرمت لقاء مالک فعوّضنی اللّه عز و جل عنه سفیان بن عیینه. (لاحظوا مدی تعظیم الأئمه لبعضهم البعض، بینما الجماعات فی عصرنا لا همّ لهم إلا تسفیه العلماء و منهم من یتعصب لمذهبه فیسفه باقی الأئمه حتی یرفع من شأن إمامه) و الشافعی کان یکثر من زیاره الإمام أحمد، فلما سئل عن ذلک أنشد قائلا:

قالوا یزورک أحمد و تزوره قلت الفضائل لا تبارح منزله

إن زارنی فبفضله أو زرته فلفضله فالفضل فی الحالین له

قصته و یحیی بن معین مع عبد الرزاق: ارتحل یوما الإمام أحمد من العراق هو و یحیی بن معین قاصدا المحدث الکبیر عبد الرزاق فی الیمن لطلب الحدیث منه. فلما و صلا مکه و أخذا یطوفان حول البیت، فإذا بهما یریان الإمام عبد الرزاق فقال یحیی بن معین لأحمد تعال نسأله أن یحدثنا بدلا من أن نلحق به إلی الیمن فقال الإمام أحمد:

"خرجت من بغداد و أنا قاصد أن أرحل إلی دار عبد الرزاق بن الهمام الیمنی صاحب المصنف فی الیمن من أجل مزید من المثوبه و الأجر فلن أفسد هذه النیه" .حاول عبد الرزاق أن یصل أحمد ببعض المال و هو فی دیار الغربه فرفض و صمم أن یکسب عیشه و عمل نساخا.

و کان أشد ما أتعب الإمام أحمد و أرهقه من العلماء هو عبد اللّه بن المبارک الذی

ظل أحمد يسعى وراءه هنا و هناك ليلقاه و لكن من غير جدوى. و كان ابن المبارك فقيها محدّثا واسع العلم و واسع الغنى و كان من أزهد الناس. و تعلّم أحمد من ابن المبارك حقيقه الزهد و كان يطعم الفالوذج و يأكل الخبز و إذا اشتهى طعاما طيبا لم يأكله إلا مع ضيف و يقول: بلغنا أنّ طعام الضيف لا حساب عليه. و قيل له قلّ مالك فقلّل من صله الناس فقال: إن كان المال قلّ فإنّ العمر قد نفد. و أصبح يعتبره أحمد أستاذه فى الحديث و السلوك. و حاول أن يصله مثل عبد الرزاق و لكن أبى أحمد و قال: أنا ألزمك لفقهك و علمك لا لمالك. و تلقى الحديث عن هشيم بن بشير و استفاد منه أكثر ما استفاد من غيره و تعلم منه الهمه العاليه فى الحديث. و تلقى الفقه و أصوله عن الشافعى.

حجه بيت اللّه الحرام:

حج الإمام أحمد خمس مرات إلى بيت اللّه، حج منها ثلاث مرات ماشيا راجلا و ذلك لأنه كان قليل المال و لكن ما منعه ذلك عن الحج.

ورعه و تقواه و تعففه:

من عظيم ما عرف به الإمام أحمد هو تعففه و له فى ذلك قصص رائعه، فقد كان يسترزق بأدنى عمل و كان يرفض أن يأخذ من صديق و لا شيخ و لا حاكم قرضا أو هبه أو إرثا لأحد يؤثره به. و قد يقبل هديه و لكنه يعجل فى إعطاء من أهداه هديه مثلها أو خيرا منها، رافعا بذلك شأن العلم و العلماء. و لقد أجمعت الأمّه على صلاحه و كان مضرب مثل فى الصلاح و التقوى حتى أنّ بعض العلماء قال: لو أنّ أحدا قال إنّ الإمام أحمد هو من أهل الجنه لم يحنث و لم يتألى على اللّه تعالى، و دليلهم على ذلك إجماع أهل العراق و الشام و غيرهم على هذا الأمر و الإجماع حجه.

تنبيه: إجماع الأمه على هذا الأمر إنما كان بعد مماته.

منهجه العلمى و مميزات فقهه:

اشتهر الإمام أنه محدّث أكثر من أن يشتهر أنه فقيه مع أنه كان إماما فى كليهما. و من شده ورعه ما كان يأخذ من القياس إلا الواضح و عند الضروره فقط و ذلك لأنه كان محدّث عصره و قد جمع له من الأحاديث ما لم يجتمع لغيره، فقد كتب مسنده من أصل سبعمائه و خمسين ألف حديث، و كان لا يكتب إلا القرآن و الحديث من هنا عرف فقه الإمام أحمد بأنه الفقه بالمأثور، فكان لا يفتى فى مسأله إلا إن وجد لها من أفتى بها من قبل صحابيا كان أو تابعيا أو إماما.

و إذا وجد للصحابه قولين أو أكثر، اختار واحدا من هذه الأقوال و قد لا يترجّح عنده قول صحابى على الآخر فيكون للإمام أحمد فى هذه المسأله قولين.

و هکذا فقد تمیز فقهه أنه فی العبادات لا یخرج عن الأثر قید شعره، فلیس من المعقول عنده أن یعبد أحد ربه بالقیاس أو بالرأی و کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم یقول: "صلوا کما رأیتمونی أصلی" ،و یقول فی الحج: "خذوا عنی مناسککم" .کان الإمام أحمد شدید الورع فیما یتعلق بالعبادات التی یعتبرها حق للّه علی عباده و هذا الحق لا یجوز مطلقا أن یتساهل أو یتهاون فیه.

أما فی المعاملات فیتمیز فقهه بالسهوله و المرونه و الصلاح لکل بیئه و عصر، فقد تمسّک أحمد بنصوص الشرع التی غلب علیها التیسیر لا التعسیر. مثال ذلک: "الأصل فی العقود عنده الإباحه ما لم یعارضها نص" ،بینما عند بعض الأئمه الأصل فی العقود الحظر ما لم یرد علی إباحتها نص... و کان شدید الورع فی الفتاوی و کان ینهی تلامذته أن یکتبوا عنه الأحادیث فإذا رأی أحدا یکتب عنه الفتاوی، نهاه و قال له: "لعلی أطلع فیما بعد علی ما لم أطلع علیه من المعلوم فأغیر فتوای فأین أجدک لأخبرک؟...

و لما علم اللّه تعالی صدق نیته و قصده قیّض له تلامذه من بعده یکتبون فتاویه و قد کتبوا عنه أکثر من ستین ألف مسأله. و لقد أخذ بمبدإ الاستصحاب کما أخذ بالأحادیث المرسله.

رفضه للفتوی فی أول حیاته:

مع انتشار علمه فی الآفاق، لم یفت و قد أصرّ الناس علیه بالفتوی فلم یفت إلا بعد أن بلغ الأربعین من عمره و ذلک لأسباب:

۱ - تقلید النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و هو فی هذا کعبد اللّه بن عمر رضی اللّه عنهما.

۲ - کان یعتبر الفقه أو مجلس الفتیا مجلس الوراثه النبویه.

۳ - کیف یفتی و الشافعی شیخه و إمامه و هو لا یزال علی قید الحیاه.

شده حرصه و أسلوبه فی التدریس:

و مع أنه أوتی حافظه لم یؤتها أحد فی عصره إلا نادرا، کان یحمل کتبه أی کتب الحدیث و یأتی بها إلی المجلس و یوصی تلامذته أن لا یحدّثوا إلا من کتاب. و کان إذا جلس فی الدرس یسود مجلسه الوقار و السکینه کأنما علی رءوسهم الطیر، و کانت هذه السکینه تظلل مجالسه کلها إلی جانب تواضعه العظیم. و أی مجلس جلس فیه الإمام أحمد سواء کان معلما أو متعلما ساده السکینه و الوقار، کان هذا الطبع منه یهیمن علی الشیوخ الذین کان یأخذ عنهم، و ذلک بسبب احترامه و تقدیره و الشخصیه العظیمه التی کان یتمتع بها. یروی عن أستاذه یزید بن

هارون أنه مدح بمناسبه ما فتنحنح أحمد، فوضع يزيد يده على جبينه و قال: أ لا أخبرتمونى أنّ أحمدا هنا.

و كان كثير التواضع هيّنا طريا و لكن كان الواحد إذا نظر إليه تذكر اللّه تعالى. لقد ألبسه اللّه عز و جل ملابس هيبته فقام مستعزا بعزه اللّه تعالى. و كان بعيدا جدا عن الخوض فى الفلسفه و ذلك أنّ الفلسفه فى عصره كانت فى بدايتها، ثم طبق العلماء قاعده:

خذ الحكمه و لا تبالى من أى وعاء خرجت. و كان الإمام أحمد يعيش بعيدا عن أمور الفلسفه و شغل نفسه بالأحاديث و آثار الصحابه، حتى أنّ من ترجم له قال: إنّ الإمام أحمد من طبقه الصحابه معنويا و إن جاء متأخرا إلا أنه فى طبعه و سلوكه و عقيدته و حياته العامه أشبه ما يكون بالصحابه. و قال بعض العلماء لو كان الإمام أحمد فى عصر بنى إسرائيل لاحتمل أن يكون نبيا!. سئل الشافعى عمن يصلح للقضاء فأشار إلى أحمد الذى قال:" أنا أجلس فى مجلسك لكى يزيد فىّ العلم زهدا فى الدنيا و أنت تطلبنى للقضاء!!!؟ ".و لقد كان عاملا بأحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و هو الذى يروى: كل معروف صدقه و من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق... فطبّق هذا الحديث على نفسه، فكان لا يلقى الناس إلا مبتسما و يقدمهم عليه إذا مشوا فى الطريق أو دخلوا مكانا أو اصطفوا لصلاه الجماعه. و كان إذا قرأ القرآن أو صلى و دخل عليه أحد سكت على الفور و إذا خرج من عنده عاد لصلاته و قراءته و ذلك خشيه الرياء. و كان مستجاب الدعوه.

و من الجدير بالذكر أنّ الشافعى قبل وفاته كان قد أرسل برساله مع الربيع إلى الإمام أحمد قبل وفاته جاء فيها: لقد رأيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فى المنام فى الرؤيا و قال لى أبلغ أحمد بن حنبل عنى السلام و قل له إنه مدعو إلى محنه و فتنه سيدعى فيها إلى القول بخلق القرآن و سيثبت على الحق و إنّ اللّه تعالى سيرفع له علما بذلك إلى قيام الساعه.

و أعطى الإمام أحمد قميصه الذى يلى جسده للربيع على هذه البشرى فقال له الشافعى:

لن أطالبك بالقميص (رحمه به و لعلمه أن الربيع لا يؤثر على بركه قميص الإمام أحمد أحدا) و لكن بله بالماء ثم أعطنى الماء حتى أتبرّك به.

محنته العظيمه:

عاش الإمام أحمد فى عصر المأمون ثم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل. فى هذه العصور، كانت صوله المعتزله و جولتهم فى أعلى ذروتها لا سيما فى عصر المأمون. و كان المأمون تلميذا لأبى هذيل العلاف من رؤساء المعتزله، فافتتن بالفلسفه

اليونانيه. و استغل هذه الصله أحمد بن أبى ذؤاد المعتزلى المتعصب و راح يكلم المأمون و يتودد إليه حتى عيّنه وزيرا خاصا له و مستشارا. الإمام أحمد كما سبق و ذكرنا، كان بعيدا عن الفلسفه و عن الاعتزال و فى هذه الأثناء قال المعتزله بخلق القرآن أى أنّ القرآن حادث مخلوق و ليس كلام اللّه الأزلى القديم و تبنى المأمون هذا القول. و فى عام ٢١٨ ه أرسل كتابا إلى نائبه فى بغداد و هو إسحاق بن إبراهيم يوضح فيه هذا القول مدعوما بالحجه العلميه المفصله على زعمهم. و الواضح أنّ هذا لم يكن من كلام المأمون و لكن من كلام وزيره خاصه و المعتزله عامه. و أمر المأمون إسحاق أن يجمع كل العلماء و يقنعهم بأنّ القرآن مخلوق و أمره أن يقطع رزق و جرايه كل من لم يقتنع بهذا. امتثل إسحاق بادئ ذى بدء لهذا الأمر فجمع كل العلماء من أهل السنّه و هددهم بقطع أرزاقهم و منع الجرايه عنهم إن هم لم يقتنعوا، و أرسل إلى المأمون بأجوبه هؤلاء التى تتضمن رفض هذا القول.

فأرسل المأمون ثانيه أمرا بقطع أرزاق من لم يقتنع و إرساله إليه مقيدا بالأغلال تحت تهديد القتل. و كان الإمام أحمد من بين الثله التى رفضت أن تقتنع و لم تتراجع، فقيّدوا جميعا بالأغلال و ذهب بهم إلى طرطوس. و فى الطريق تراجع البعض خوفا و مات البعض الآخر و لم يبق إلا أحمد الذى جاءه خادم المأمون و قال له: إنّ المأمون أقسم على قتلك إن لم تجبه. و لكن أحمد رفض التراجع عن الحق و بينما هو فى الطريق لا يفصله عن المأمون إلا ساعات من السّير، إذ جثى على ركبتيه و رمق بطرفه إلى السماء و دعا بهذه الكلمات: سيدى غرّ حلمك هذا الفاجر حتى تجرّأ على أوليائك بالضرب و القتل، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فألقنا مؤنته. توفى المأمون قبل أن يصل أحمد إلى طرطوس فأعيد الإمام أحمد و أودع السجن ريثما تستقر الأمور. و جاء بعد ذلك المعتصم و لكن المأمون كان قبيل موته قد أوصى أخاه أن يقرّب ابن أبى ذؤاد المعتزلى منه. لذلك لما استقر الأمر للمعتصم استدعى الإمام أحمد و هو مثقل بالحديد و كان عنده ثله من المعتزله على رأسهم ابن أبى ذؤاد الذى كان يضمر كيدا شديدا لأحمد، و سأله: ما تقول فى خلق القرآن؟ قال: أقول إنه كلام اللّه. قال: أ قديم أم حادث؟ قال: ما تقول فى علم اللّه؟ فسكت أبو ذؤاد. قال أحمد: القرآن من علم اللّه و من قال إنّ علم اللّه حادث فقد كفر! و طلب المعتصم أن يناقشوه و كاد أن يقتنع بقول أحمد و لكن قال له المعتزله و ابن أبى ذؤاد إنه لضال مبتدع. عرض المعتصم على الإمام أحمد أن يرجع عما يقول مغريا

إیاه بالمال و العطایا و لکن الإمام أحمد قال له: أرنی شیئا من کتاب اللّه أعتمد علیه (أی أعطنی دلیلا علی ما تزعم من کتاب اللّه تعالی). و حذّر المعتزله المعتصم إن هو أطلق سراحه أن یقال إنّ هذا الرجل تغلب علی خلیفتین اثنین فسیق أحمد إلی الضرب و التعذیب. و کان یضرب ضربا مبرحا حتی یغشی علیه ثم یأتون به فی الیوم المقبل.

و برغم ذلک أقبل أحمد علی الناس فی السجن یعلّمهم و یهدیهم.

أمر ابن أبی ذؤاد بنقله إلی سجن خاص حیث ضاعفوا له القیود و الأغلال و أقاموا علیه سجانین غلاظ شداد، و کم سالت دماؤه الزکیه و کم أهین و هو رغم هذا کله یرفض أن یذعن لغیر قول الحق و لو کلفه ذلک حیاته. و بعد مرور عامین و نصف علی هذه المعاناه و هذه المحنه، أوشکت الثوره أن تشتعل فی بغداد نقمه علی الخلیفه المعتصم و ابن أبی ذؤاد، فقد وقف الفقهاء علی باب المعتصم یصرخون: أ یضرب سیدنا! أ یضرب سیدنا! أ یضرب سیدنا! فلم یجد المعتصم بدا من إطلاق سراحه و أعید إلی بیته یعالج جراحه. و لما سئل عن المعتصم دعا له بالرحمه و أن یعفو اللّه تعالی عنه و قال إنه یستحی أن یأتی یوم القیامه و له حق علی أحد!. ثم تولی الواثق الحکم و حاول ابن أبی ذؤاد إقناعه بموضوع خلق القرآن و لکن خشی الفتنه. أما المتوکل فکان من أهل السنّه و حاول أن یکرم الإمام أحمد و أن یصله و لکنه رفض شاکرا و لقد ندم المعتصم علی ما وقع منه و کان یرسل کل یوم من یطمئن علی حاله، بینما ابتلی ابن أبی ذؤاد بالفالج الذی أقعده أربع سنوات و استرد منه المتوکل کل أمواله التی تعدّ بالملایین. و کان الإمام أحمد یصلی من اللیل قبل ضربه ۳۰۰ رکعه و بعد مرضه الشدید صار یصلی ۱۵۰ رکعه.

موقفه من الحکم و الدوله:

کان بإمکان الإمام أحمد أن یفتی الناس بکفر الخلیفه أثناء حکم المأمون أو المعتصم و کیف یفعل ذلک و هو یراقب اللّه تعالی فی کل لحظه، فکان یقول أنه لا یجوز الخروج علی إمام المسلمین برا کان أو فاجرا ما دام مسلما و هذا هو قول الجمهور و باقی الأئمه.

مسند الإمام أحمد:

بدأ بجمع مسنده منذ أن کان عمره سته عشر سنه، فسجل الأحادیث بأسانیدها، فی أوراق منثوره و ظل علی هذه الحال إلی أن قارب الوفاه. و لما شعر بدنو أجله بدأ یجمعها و یحذف منها... و أملی هذه الأحادیث کلها علی أولاده و أهل بیته و أنبأهم بالعمل الذی قام به و لعله أوصی ابنه عبد اللّه أن ینهض بجمع هذه

الأحاديث و تنسيقها من بعده فجمعها عبد اللّه بطريق السند و هذا الأسلوب يعتبر صعبا جدا و هو أن يرتب الأحاديث حسب درجه رواتها من الصحابه فيبدأ بالأحاديث المرويه عن أبى بكر ثم عن عمر ثم هكذا. و كانت طريقه الإمام أحمد فى انتقاء الأحاديث أنها إن كانت تتعلق بأحكام أو عقيده كان لا بد من اشتراط الصحه فيها، أما إن كانت تتعلق بفضائل الأعمال و لها ما يؤيدها من الكتاب أو السنه الصحيحه فلا بأس أن تكون ضعيفه. و إن كان الحديث يعارضه نص آخر أقوى منه لا يمكن الجمع بينهما، حذف الأضعف.

مثلا- نجد اسم عبد اللّه بن لهيعه فى المسند مع أنّ الحفاظ ضعفوه لا- لأنه اتّهم بالكذب و لكن الرجل كان عنده كتب و مخطوطات كثيره كان يروى عنها ثم تلفت، فلما تلفت أخذ يرويها من الذاكره و كثيرا ما كان يخطئ و رواه الحديث كانوا متشددين و مدققين و محتاطين جدا فى هذا الأمر. جزم ابن تيميه و ابن القيم أنه ليس فى المسند حديث موضوع، و قال البعض فيه أربعه أحاديث موضوعه و لكنها ليست من أحمد.

و الأحاديث الضعيفه التى فى المسند لا تتعلق بالأحكام و هى ليست شديده الضعف. و لقد طاف أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع مسنده.

من أقواله: له أقوال جليله منها: إذا أردت أن يدوم لك اللّه كما تحب فكن كما يحب.

قصه ثوب أحمد بن حنبل: وقعت حريق فى بيت صالح بن أحمد بن حنبل و كان قد تزوج بامرأه ثريه، فلما علم بأمر الحريق راح يبكى لا على شىء و لكن على ثوب أبيه الذى كان يتبرك به، و لما دخل إلى بيته، وجد الثوب على السرير و قد أكلت النار ما حوله و بقى سالما.

و هناك مذاهب فقهيه عديده أخرى لا يتسع المجال لتفصيلها، كالزيديه للإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم الرضوان و السلام جميعا، و الجعفريه للإمام جعفر الصادق رضى اللّه عنه، و الظاهريه لابن حزم الأندلسى.. و هناك أيضا مذاهب أخرى قسم منها دثر أو قلّ أتباعه كمذهب الأوزاعى و الثورى و عطاء بن أبى رباح و إبراهيم النخعى و عبد اللّه بن المبارك و غيرهم الكثير.. فقد

ذکر الأستاذ الدکتور عبد الحمید حمد العبیدی أنه أشرف علی بحوث دراسات علیا ماجستیر و دکتوراه عدیده بکلیه الشریعه بجامعه بغداد فی تفصیل المذاهب الفقهیه فوجدوا أنها بالعشرات.. و قد قسّم هذه المذاهب الفقهیه إلی عده أقسام:

۱ - من العلماء من کان له مذهب فقهی و کان له طلاب علم و أتباع، فدونوا علمه فوصلنا کما هو الحال فی المذاهب الأربعه لأهل السنه مع المذهبین الشیعیین الزیدیه و الجعفریه.

۲ - منهم من کان له مذهب فقهی کبیر الشأن و اتبعه کثیر من الناس فدونه أتباعه و لکنه دثر کما هو حال کثیر من المذاهب کمذهب الأوزاعی و الثوری و عطاء بن أبی رباح و إبراهیم النخعی و عبد اللّه بن المبارک و غیرهم الکثیر، فضعف أتباعها و انتهت و لم تعد متبعه.

۳ - منهم من کان له اتباع و لکنهم بقی منهم القلیل کما هو حال المذهب الظاهری لابن حزم الأندلسی، و کذلک الأشاعره و الأباضیه.

۴ - و منهم من کان له مذهب و لکن لم یدون و لم یکن له طلاب یدونون علمه.

و غیر ذلک من التصانیف مما لا یتسع المجال لذکره، و ما ذلک إلا لسعه أفق هذا الدین لیشمل کل الأجناس و یستوعب کل الحضارات و علی مر العصور، إذ معلوم أن الخلاف فی المذهب الفقهی عن الآخر متأت من خلاف علی تفسیر آیه أو مجموعه أحادیث، أو خلاف علی إجماع أو قیاس و کما فصلنا فی بدایه الملحق هذا.. هذا الخلاف إنما هو خلاف فی الفروع و لیس فی أصول الدین کما حصل فی فرق الأدیان السابقه التی اختلفت فی الأصول فذمّها اللّه تعالی فی القرآن الکریم فی آیات عدیده منها قوله تعالی مخاطبا نبیه صلّی اللّه علیه و سلّم إِنَّ الَّذِینَ فَرَّقُوا دِینَهُمْ وَ کانُوا شِیَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِی شَیْ ءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَی اللّهِ ثُمَّ یُنَبِّئُهُمْ بِما کانُوا یَفْعَلُونَ (۱۵۹)، (الأنعام: ۱۵۹)..

لذلک فهذا الخلاف مقبول عند اللّه تعالی فلا یصل إلی مرحله الاختلاف(۱) التی ذمّها اللّه تعالی فی کتابه الکریم و حذر منها المصطفی صلّی اللّه علیه و سلّم. و کل هذه المذاهب کانف.

۱- راجع کتابنا (القوانین القرآنیه للحضارات - النسخه المفصله) فستجد تفاصیل عن الفرق بین الخلاف و الاختلاف.

أصحابها علماء أجلاء أوصلوا الدين للأمه و كانوا يحترمون رأى بعضهم البعض و لا يتجرأ أحدهم على الآخر بالقدح أو الذم أو الاستهزاء كما يفعل بعض علمائنا اليوم و مع الأسف، بل على العكس كانوا و كما رأينا فى بعض زوايا هذا الملحق متآخين متحابين كل ما يرجوه هو إيصال العلم الحق من منبعه الصافى من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم إلى الناس كى لا يضيع الدين، فاجتهدوا لذلك فجزاهم اللّه تعالى عن دينه و كتابه و رسوله صلّى اللّه عليه و سلّم ألف خير.

على أن هناك اتجاهات مدمره لأصل العقيده و الشريعه و مناف لإجماع الأمه، من هذه الاتجاهات:

من كان له مذهب نحى به منحى غير مقبول من الأغلبيه، فأدى فى زمانه إلى صراع فكرى لإثبات بطلانها أخذ زمنا ليس بالقصير كالمعتزله و الزنادقه و غيرها.

منهم من اتخذ اتجاهات شاذه متطرفه و مغاليه كالخوارج، و منهم من وصل به التطرف لحد الكفر و الإلحاد كالعلى إلهيه و القدريه و الباطنيه و البابيه و البهائيه و غيرهم.

أما ما حصل من تحول فى مسار المذاهب بعد إقحام بعضها فى الصراعات السياسيه، أو تحول بعضها إلى الاتجاه السياسى المحض فقد أدّى بالأمه إلى الانشقاق إلى فرقتين رئيسيتين استغلها أعداء الأمه على مر العصور لإثاره النعرات و التفرقه و الاقتتال فيما بينها لخدمه مصالح الأعداء.. و هذا ما يفرح شياطين الإنس و الجن عند ما ترى أمه الحبيب صلّى اللّه عليه و سلّم و هى تفترق و تتناحر، و هو ما لا يرضاه اللّه تعالى لهذه الأمه المرحومه، و هو أيضا ما يحزن الحبيب صلّى اللّه عليه و سلّم و آله الأطهار و صحابته الأخيار الذين رووا بدمائهم الزكيه الطاهره أرض اللّه الواسعه لنشر من أجل أن تكون كلمه اللّه هى العليا و كلمه الذين كفروا السفلى، فنسأل اللّه تعالى أن يحقن دماء المسلمين و يعيدهم إلى وحدتهم و دينهم و كتابهم و سنه رسولهم صلّى اللّه عليه و سلّم و طريق عظماء هذه الأمه من الآل و الأصحاب و التابعين و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. و الحمد للّه رب العالمين...

أعمال للمؤلف

١. كتاب (المنظار الهندسی للقرآن الكريم)، دار المسيره، عمان - الأردن، ط/ ١، ١۴٢٢ ه - ٢٠٠١ م.

٢. كتاب (المنظار الهندسی للقرآن الكريم)، دار المسيره، عمان - الأردن، ط/ ٢، ١۴٢۵ ه - ٢٠٠۴ م.

٣. كتاب (أنت و الأنترنت - جلّ ما تحتاجه من خدمات الشبكه العالميه -)، دار الرشد، ط/ ١، ١۴٢٢ ه - ٢٠٠١ م.

۴. كتاب (القرآن منهل العلوم)، طبع الجامعه الإسلاميه، بغداد، ط/ ١، ١۴٢٣ ه - ٢٠٠٢ م.

۵. كراس (مواصفات الفحوص المختبريه لأعمال الهندسه المدنيه)، مع مجموعه من المختصين، ١۴٢٣ ه - ٢٠٠٢ م.

۶. كتاب (القوانين القرآنيه للحضارات - النسخه المختصره، ١٢۵ صفحه من القطع الصغير -)، طبع ببغداد عام ١۴٢۴ ه - ٢٠٠٣ م.

٧. سلسله كتب (ومضات إعجازيه من القرآن و السنه النبويه - ١۵ جزءا -)، دار الكتب العلميه، بيروت - لبنان.

أ. التأريخ و الآثار.

ب. الماده و الطاقه.

ت. الفلك.

ث. الأرض.

ج. الرياح و السحب.

ح. المياه و البحار.

خ. النبات و الإنبات.

د. الحيوانات و الحشرات.

ذ. الطب.

ر. الصيدله و الأمراض.

ز. الوراثه و الاستنساخ.

س. الجمله العصبيه و الطب النفسی.

ش. الأحكام و الباراسايكولوجی.

ص. الاقتصاد و الاجتماع.

ض. آخر الزمان.

۸. كتاب (القوانين القرآنيه للحضارات – النسخه المفصله، ۳۶۵ صفحه من القطع الكبير)، دار الكتب العلميه، بيروت – لبنان..

۹. كتاب (تفصيل النحاس و الحديد فی الكتاب المجيد)، دار الكتب العلميه، بيروت – لبنان.

۱۰. عده بحوث فی مجال الهندسه المدنيه منشوره فی مجلات و مؤتمرات هندسيه مرموقه داخل العراق و خارجه.

۱۱. عده بحوث و مقالات فی مجال الإعجاز القرآنی منشوره فی صحف و مجلات و مؤتمرات مرموقه داخل العراق.

۱۲. عده أعمال مرئيه تلفازيه و حاسوبيه فی محطات محليه و أخری فضائيه عربيه.

مشاريع كتب للمؤلف

۱. كتاب (استنباط الحلول من أسباب النزول)، قيد التأليف.

۲. كتاب جامعی عن المواد الهندسيه، قيد التأليف.

۳. تصاميم شبكات الخدمات المائيه و الصحيه، قيد الإعداد.

فهرس المحتويات

مقدمه ۳

الفصل الأول: نظره عامه ۹

الفصل الثانى: الاقتصاد فى الإسلام ۱۶

الفصل الثالث: النظام الاجتماعى الإسلامى ۲۵

الفصل الرابع: بعض دلائل الرقى فى السلوك الاجتماعى فى الإسلام ۶۵

الملحق: تاريخ التشريع الإسلامى ۸۵

فهرس المحتويات ۱۹۲

ص: ۱۹۲

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹